صبا الحرز

الآخرون

رواية

دار الساقي

«الآخرون هم الجحيم»

جان - بول سارتر

صبا الحرز

الآخرون

(١)

ولهذا كانوا طابوراً أدخله من بابي الأمامي، وأتحول بدوري باعثاً للفرجة. متحف وبضع لوحات معلقة جميلة، سلم دوّار يثير الدوخة، قطع لعبة بازل مبعثرة.. أيّ شيء يترك أثراً حسناً لكنه مضجر في حال استمراره، ممل، بليد، سهل التسرب، قابل للنسيان. المهم أن ينتهي الطابور بالباب المقابل، حيث لا يافطة تفيد: مَخرَج، الباب الذي يؤدي دوره بإتقان ولا يملك غير جهة واحدة، الخارج فحسب.

قلّة، بل أقل من القلة، أولئك الذين اخترقوا قانوني الخاص، وبمرور الوقت كانت الدور السفلية مني تتحوّل مكبّاً بشرياً. الآخرون حين يصيرون جثثاً مقيمة فيّ ومتعفنة، يأبون أن يغادروا ويأبون أن يتركوني بسلام. ينسون أدوارهم، ربما تقمّصوها أكثر مما يستلزم الأمر، أو أنهم لم يفطنوا لها منذ البدء. في الليل يصير الوضع لا يُطاق، الزعيق والهرش والتكدس وإعادة رسم الحدود لسطوة كلّ واحد منهم على جزئه الخاص من مساحتي. كُنت أفضل الغبار وبيوت العناكب على جرذان تقرض قلبي من دون هوادة وتُخلِّف شظايا الخشب في كلّ مكان.

ضي كانت إحدى معجزاتي. أو بالأحرى ما حسبته معجزتي. لم تأتِ من باب لأخرجها من آخر، ربما من العلية، متزحلقة على الدرابزين أو

متعلقة بالسقف. شيء أجبرني أن أعلّق نظري بناحية واحدة: الأعلى، ففقدت بوصلتي اتزانها وكانت سقطتي إثر ذلك قاصمة. ربما كنتُ أتخاذل في تحديد خطوطي الحمراء، ربما كانت هي المتجاوزة جداً، ربما لم أعِ من اللعبة شيئاً باستثناء لذتها الحارقة وفرط إثارتها. كفتا الميزان في يدي كانتا ساكنتين سكوناً تاماً، في حين كانت ضي تجيد المرجحة، وشقلبة الأمور رأساً على عقب، وافتعال سلسلة طويلة من ردود الأفعال للفعل الوحيد الضامر الذي كنتُه.

في الوقت الوجيز الذي كنّا فيه جديتين كفاية لأخبرها أنه صار حريّاً بها أن تغادر، كانت تبدو حزينة جداً على نحو مفاجيء، لتستثير شفقتي عليها، لم يعد الفرق كبيراً بعد كلّ هذا، ولذا طال مكوثها إلى أن باتت مرضي.

نعم، مرضتُ بكائن اسمه: ضي!

التعويذة التي خفتُ كثيراً أن تُقرأ كي لا تبطل، أو أن تُمس فتتفتت. كنتُ من الهشاشة بحيث غدوت سالباً متضخماً، وكانت هي نواتي الأم. انسقتُ مراراً حتّى دخلت في الظلّ، وفي الظلّ من المضحك جداً أن تكتشف كم أنك تخاف العتمة، العتمة التي هي دوامتك وما من خلاص منها.

(٢)

في طفولتي، كان جهاز التكييف بطلي أنا. دائرتا التحكم عينان عسليتان، وشفرات التبريد شعر منكوش. صوت التكييف صدى هرش لذيذ، ذلك الذي ينبعث من جلدنا عند صحونا. جهاز التكييف كان محاربي الليلي في مواجهة كوابيسي ومخاوفي ورطوبة فراشي. سقف غرفة ضي يفعل الشيء نفسه برغم أنه لم يكن بمقدوري اختلاق أيّة صورة متحركة من صمته، ولا عوّلت كثيراً على مشاركته. كان شاهداً أبكم، ولعله اختار بطريقة ما، أن يغمض عينيه وينام. علّقتُ عيني بالسقف وبدأت أحفر الكلمة نفسها في عقلي، عليّ أن أقولها من دون تلكؤ، بثقة وهدوء.

بضعة لقاءات كفتني مؤونة معرفة مزاج ضي وطباعها. أعرف متى تهادن، متى تغضب، متى تراهن على ذكائي، متى تأخذني، ومتى تضحك تلك الضحكة التي تقززني لزوجتها، الضحكة البعبع.

أعرفُ الآن من اللون السماوي لقميصها القطني أنها رائقة، ومن شعرها المُضفر أنها مرحة، ومن حركة أصابعها على درزات بنطالي الجينز أنها تسبر طريقاً ناحيتي، وكان عليّ أن أسبقها قبل أن تصل.

ـ لنذهب الى هناك.

قلتُ وأنا أشير بيدي إلى جوار المرآة، التفتتْ وعلى وجهها سؤال

مشكك: «هل أنت أكيدة؟»، لكني، وقبل أن تطرحه، أخذتها من يدها حدّ المرآة. أحتاج إلى شيء يخلصني مني، أريد أن أعبر من التجربة برصيد وافر. ولعبة الكر والفر، الدفع بالأمور إلى حدّها الأخير ومن ثم التمنّع، صارت مبتذلة جداً. أرخيت زراً وتركتُ بقية المهمة بيد ضي، وما بدا أنه سيأخذ وقتاً لا نهائياً كان قد حدث بالفعل مُباغتاً انتباهي. تشبثت بالمرآة، عريي الفاضح يدفع بي إلى نشوة غير مسبوقة، نشوة أن أراني مُشتهاة ومنفلتة من قوانين جسدي نفسه.

كنتُ أتحرر مني. أدير وجهي ناحية المرايا التي فتحتها ضي من أبواب دولابها، وأنا شاردة تماماً. ليس فقط أني طليقة فحسب، بل لا يد لي عليّ، سطوتي على ما أملكه مني كانت معدومة القيمة. جسدي الذي يتلاشى تحتها ويستحيل ماءً ليس ملكي. كانت ضي ربّته منذ تلك اللحظة، وصرتُ أنا الكائنُ الذي نأى عنه جسده في عزلة مبهمة، عزلة تتيح لي أن أشاهد، لكن، كمتفرج خارجي، لا أنفعل، لا أشارك، لا أشعر بشيء، وأكتفي بالتحديق، من دون أيّ ملامح على وجهي، أحدقُ إلى ما يبدو أنه لا يعنيني إطلاقاً، لولا وجوده السافر في حيّز انتباهي.

وانتهينا، ابتسامة زائغة ظلّتْ على فمي فيما هي تلطّخ وجهي بقبلاتها الرطبة كالعادة. عضّت شفتها للحظة، ثم أتت إليّ بلفاف قطني وقالت أشياء لم أتبينها البتة. من السياق المتكرر للشفة التي تُعض واللفاف القطني، فهمتُ أنها تركت على عنقي آثار مرورها.

بعيدة ضي، وجسدي خلّفني في الوراء وراح نحو نقطة غير مرئية من حيث أنا باقية، شرع في وضع لوائحه وتنظيماته الخاصة، خططه لما يمكنه

أن يحصد في التالي من الأيام، كانت نيّاته تخيفني لأنها غامضة ومطلقة، وأنا في وحدتي المروّعة، ليس لأني لا أنتمي للعالم، فها أنا لا أنتمي إليّ أيضاً.

هدوئي الأول تحول خوفاً ثم طاقة غضب عمياء. لم أفق من سكرتي، لم أسكر أصلاً، غير أنّي فقدت من أصابعي الثلاث الباقية التي وضعت عليها الإجابة عن سؤال: ماذا سأفعل؟ جئت لضي وفي نيتي أن أقول «خذيني»، فقلتها، ثم لأشاركها في جسدي وقد فعلت، ثم... هذه الـ«ثم» التي عوّلت على أن التقط تفاصيلها، لا أن أقف مزعزعة، غير عازمة على أي شيء.

بدأتُ أسترجع إحساسي بعض الشيء، وأخرج من القطرة الهلامية التي غشتني مطولاً. كلّ ما حولي يزعجني. ضي تزعجني، رائحتها، أنفاسها، عري جسدها، ثقلها فوق ضلوعي، الشعرات القليلة المبعثرة، حول حاجبيها، سبابتها العابثة في فمي، صوتها، ضحكتها، كلّ ما هو جزء منها، كل ما هو أناها، تفاصيلها الحلوة التي دوختني مراراً استحالت تفاصيل من التفاهة والصغر، وهذا ما لا يمكنني رؤيته، بل ما يمكنني أن أنتقصها عبره، والأخرى التي أبقتْ بيننا سجلاً حافلاً بالخلافات والشتائم والقطيعة، كانت تتضخم وتملأ عيني إلى ما لا نهاية.

ارتجفتُ، وارتجفت، وارتجفت. غطتني بجسدها، وشرعت تفرك يدي بيديها، من دون جدوى. ليس البرد هو ما يدفعني إلى الارتعاش، شيء آخر، غائر في عمق سحيق، ولا أدرك كنهه. لم أستطع التوقّف، ولا التحكّم بأيّ من أطرافي. جهدتُ لتثبيت تفكيري على فكرة ما، تخرجني

من مأزقي المريب هذا، ولم يخلصني شيء. رغبتُ أن أهرب من ضي، ولذا استدرتُ. انكفأت دافعةً ساقي ناحية صدري ووازيتُ وجهي بذراعيّ المتشابكي الكفين، أخذتْ تلعق خدوش ظهري، تلك التي بفعل أظفارها أو الأخرى الطفيفة نتيجة احتكاك جلدي بخشونة السجاد، دفعتني إلى التخيّل بأني مستنقع من اللعاب والأنفاس، إنها قطة وجروحي لا تشفى.

داعبتْ بأطراف أصابعها أذني، وسألتني: «ندمتِ؟» فهززتُ رأسي أن لا، لم أندم. في الحقيقة، لم يكن الندم فعلاً مدرجاً في قائمة حياتي. أنا أفعل الشيء أو لا أفعله، وفي الحالتين لا أخسر الكثير، تجربة وقد خضتها فتعلمتُ منها. الندم يعني أن أتراجع عما فعلت، أن أمحو تجربة، أن أسحب لبنة من بنائي، وما من بناء يظل قائماً عندما يفقد لبنة من أساسه. لم أكن نادمة، إنما متقززة، ومشمئزة، كنتُ قد فطنت فجأة لقدرة جسدي على أن يكون حيوانياً ومخلِصاً جداً لدونيته، عابثاً، ومن أنا لأمنعه عن عبثه.

وما كنتُ لأصادر رغبات جسدي، لو كنتُ أفهمها، أو أستوعبها، أو لو أنه يتفضل قليلاً ويفتح معي حواراً قصيراً حولها. لو أنه يختصر الأمر في بضع نقاط واضحة. لستُ ملاكاً، ولا أدّعي فضيلتي المطلقة، ثم إنها ليست أولى خطواتي باتجاه الجحيم. كلّ ما في الأمر أني أحتاج إلى أن أفهم، هذه الفوضى المعتمة تذبحني، إني أساق في ليل العميان هذا، وما من نهار يطل عليّ.

عليّ أن أغادر، أختنق. صدري طاف في سرير موحل، وأنفاسي مسروقة بالقبلات، وهواء الغرفة فاسد. إن هذا لا يحدث، لم يحدث.

سأخرج الآن وأسقط في بئر النسيان. يمكنني بجهد قليل أن أنسى وأتسرب إلى خارج ضي، وإذا فتحت الباب فستتشبّع الغرفة بهواء جديد وصدري أيضاً. يمكنني أن أركض. الذاكرة لا تملك ساقين تأخذانها عكس الريح. يمكنني أن أصلي، الله سيكون كريماً معي ويشطب من قائمة أخطائي علامة سوداء أخرى. بإمكاني أن أقبّل أمي، ولن يعود لفمي الطعم المرّ لسكرتي المحترقة: ضي.

(٣)

قذارتي ليست مما يمكنني شطفه بالماء والصابون. تعبتُ من تكرار غسل يديّ وفمي، من عدد مرات استحمامي، من خوفي كلّما نمتُ على ظهري، أو باعدت بين رجليّ. لا أستطيع الآن أن أمرر ممحاة ضخمة على جسدي وذاكرتي وإعادة الصفحة إلى بياضها. ما حدث أن ضي شطرتني اثنين: جسدي المتباهي بحلواه، وذاتي النزّاعة إلى التطهّر من آثامها، وكم كان إثمي هائلاً في مقابل سطوة تراكم أخلاقي، يضع في قوانينه الأولى جسدي معياراً لتقويمي، وإحالتي على إحدى فئتين: طاهرة أم عاهرة.

إذاً، أنا عاهرة وقد أتيتُ إليّ بالجحيم، وكنتُ أمام حلّين لأعيد توائمي معي وأسترد ثنائية الكائن الذي هو أنا، الحتمية والمتوافقة، جسده وروحه: أن أستغفر ذنبي وأعيش تحت مظلة إنكار ما فعلت، ليس ما فعلت وحسب، بل الفكرة المؤذية والكامنة خلف ذلك والمفضية إلى كوني شاذة عن النسق الطبيعي، أنكره حتى يُنسى ما حدث بالتقادم، حتّى يفقد الذنب صورته الخالصة كذنب، هكذا أصير دماً فاسداً للمقصلة المسماة ضميري، وحين تسقط عن ظهري سيكف شعوري بالخزي.

لكني لم أختر. لم تبدُ الخيارات جلية لعينيّ الضريرتين عن رؤية شيء سوى فداحة الذنب. كنتُ وحيدة ومتروكة في تخبّطي. وبالتدرّج الذي

أخذه الأمر منذ قبلتنا الأولى المتواطئة جداً، حدّ التفكير في أن ثمة اتفاقاً مسبقاً بيننا على أن تتم على النحو الذي تمّت به، من أصغر تفصيل في شكل القبلة إلى أكبر تفصيل في طريقتها، مروراً بالمناوشات الخجولة، وانتهاءً بانفصالي الكلي عنّي ومنحها جسدي كاملاً بالتدرّج ذاك. حتى أنا لم أفطن لما كنتُ معترك حدوثه طوال الشهرين الفائتين من حروب وانتصارات هزيلة، ولا فكرتُ في الخطوة التالية. ما حدث أشبه ما يكون بلوحة معلّقة على الجدار تشدها عشرات المسامير من طرفيها، أحدهم لا يفرغ من عمله فيها حتّى يبدأ الآخر، وبقيتْ تتشقق ببطء، ببطء، ببطء حتى أن أحداً لم يلحظ شيئاً ولا أن اللوحة باتت جزءين مشطورين تماماً.

قلتُ لو أن أمي انتبهت، لو أن حسن لم يغلب، لو ما كرهتُ ضي وشغفتُ بها في الوقت نفسه، لو أن ثمّة أحداً. أيّ أحد يا ربي. لو أن الله ليس صارماً إلى هذا الحدّ. لو أن القدر ضرب ضربته وباغتني بتغيير طفيف في أي حدث صغير وتافه من نمط حياتي وقتذاك، لو أن امتحاناتي النهائية صادفت آنها، لو لم تكن هذه ألفية العالم الجديدة، لو لم أكن مرهقة جداً ومهووسة بشيء اسمه: التجربة! وفي الأخير أخلصُ الى أن فرويد ليس هنا ليردّ ما أنا عليه الآن الى أن أمّي لم ترضعني كفاية، ولا ثمّة شمّاعة لي ولا حائط مبكى.

أردتُ خوض التجربة، وما أعدتُ حساباتي في الثمن الذي سيترتّب عليّ دفعه، ووجدتني بعد علامة الخطأ المعلّمة على باطن كفي اليمنى، غير قادرة على الدفع. الثمن باهظ ومحفظتي خاوية. جربتُ افتعال محاولة حثيثة من القطيعة، مع الحدث الذي أردتُ تثبيته في فكرة كونه

ماضياً منتهياً ولا جدوى من نبشه. وبدأت سلسلة لا نهائية من الإغراق، خيوطي المفتوحة والمتشابكة لصاحبات لا يعنيني أمرهن كثيراً، أجندة مواعيدي المفرّغة من فراغها، والجدول الحافل بالاجتماعات تبعاً لطبيعة انخراطي في فعاليات الحسينية، تحديداً، وقد بتنا على مشارف خاتمة رمضان. ولم يكن شيء من ذلك مجدياً، إذ فيما أكون مشغولة ووقتي يتسرب في زحام المواعيد وقلما أخلو بنفسي، كان عقلي في الوقت نفسه لا يكفّ عن الدوران والدوران في الساقية نفسها، متوقفاً عند ليلتي تلك مع ضي، ما تجاوزها لحظة، كأنما قد تجمدت عنده الأمكنة والزمن.

حينذاك، كنا للتوِ فرغنا من إعداد برنامج «الطبق الخيري» الذي سيُقام في السابع والعشرين من رمضان. وحان البدء بتنظيم حفل للإحتفاء بخريجات الدورات التعليمية في مجالاتها الثلاثة: الصلاة، الأخلاق، العقائد. ولتكريم المتطوعات اللواتي شاركن في التدريس. ذلك يعني تحديد الموازنة المالية. أقل موازنة يمكننا الانطلاق منها، واختيار موعد الحفل مع التأكد أنه لا يتضارب مع مواعيد نشاطات لجهات أخرى، والثبات عليه، وتوزيع الأدوار، واختيار سمة للحفل، وتنسيق الفقرات، والاتصال بخطيبات حسينيات، أو كاتبات في مجالات دينية، للمشاركة واختيار الهدايا الرمزيّة التي ستُقدّم للمتطوعات، والإتفاق مع إحدى القرطاسيات لتوفير العدد المطلوب من شهادات اجتياز الدورة، وقد نشرك مجموعة من طالباتها للإنشاد، وكتابة مقدمة الحفل، ومقدمات فقراته، وخاتمته، وأخيراً، الإعلان عنه في مُلصقات تُعلّق على

الواجهات الزجاجيّة لمحال البقالة وتوزّع في سوق «البسطة» وتنشر في منتديات النت. وفي اليومين الأخيرين ما قبل الحفل، كان علينا تزيين جدران الحسينية وسقفها، وإعادة تأكيد الموعد للمشاركات، والتمرين النهائي على العرض المسرحي في حال كان ضمن قائمة الفقرات. وهذا يعني بعض الصداع الناجم عن التغييرات التي تأتي في اللحظات الأخيرة، وعن إعداد الخطة البديلة أو عدم الإتفاق بين المشاركات، واتكال بعضهن على بعض...

التحدي كان رؤيتي شبه اليوميّة لضي، ليس ملاحظتي عبورها فحسب، أو وجودنا المشترك في مكان ما، بل اضطراري إلى فتح نقاشات مطولة معها باعتبارها عنصراً من مجموعتنا الصغيرة، والتوقيع الضمني على الخطوات نفسها. بدونا لكل من حولنا في زمالة عميقة وعملية بمقتضى اشتغالنا على مفكرات البرامج المشتركة لا أكثر. بدونا شخصين لم ينجزا أيّ تغيير في شكل علاقتهما أو يدخلا عليها أيّ خصوصية على مدى قرابة الثلاث سنوات مذ بدآ فعلياً في المكان نفسه. لم نتفق سلفاً على سريّة علاقتنا، لم يكن ثمّة ما يستدعي ذلك. وكان هذا أفضل ما حدث من تلقاء نفسه، في علاقة عانت خلال بضعة أشهر الكثير من التوقّف وإعادة الانطلاق، الأمر الذي شكرته لها حقاً.

ومع أني ساهمتُ في ترتيب برامج ناجحة في فعاليات أواخر رمضان، فلم أشعر للحظة أني قدمتُ اعتذاراً لائقاً لله، ولا حتى لنفسي. بقيت غارقة في خجلي، والشعور الممض بأن ذنبي يقطر من أطرافي. فهمتُ مقدماً أني فعلتُ ذلك بدافع استهلاك وقتي، كي لا ألتقي بي وأعاود

الخلافات معي، لتخفت بعض الشيء حدّة انكساري أمام نفسي، ولينقضي زمن كافٍ أستطيع معه أن أُشكل حججاً تقنعني، أو نسياناً يجرف معه خدوش الذاكرة.

قرفي مني تحوّل من علامات تعجّب ضخمة إلى علامات استفهام تخدش صدري. حينذاك بدأتُ أكثر أطواري غرابة على النت برغم الأبواب المُقفلة بإحكام، على الجنس. لم يكن هذا الأمر يخلو من التفافات جانبية غريبة حين فتشتُ المجموعات البريديّة على الـyahoo ولم تكن قد لفتت انتباهي سابقاً، ووجدت أنها كانت مُغلقة لمجموعات المثليات، من جانب مزود الخدمة المجانية في شركة أرامكو، في حين كانت مجموعات المثليين مشرّعة، وهكذا، وجدتني غارقة في هذه الأخيرة، أنضمُّ إلى واحدة بعد واحدة، حتّى أستهلك نصيبي اليومي من الاشتراكات ومجموعه عشرون اشتراكاً، وبريدي يتلوث بالصور والحكايات، ولا أجد فيه شيئاً مما أبحث عنه، أبحث عن البدايات وأسبابها، عن التحول، عن تكوّن شهوة الجسد، عن جسد كان نظيفاً واتسخ.

وأكثر عاداتي نشازاً، دخول موقع دردشة، لم أكن قد دخلته قبلاً إلا على سبيل التجربة، كان هادئاً ومنضبطاً طوال النهار بحكم وجود مراقبين باستمرار، لكنه في الثلث الأخير من الليل يتحول إلى بازار جنس، كلٌّ يلقي بأشد رغباته جنوحاً وينتظر من يقابله برغبة مماثلة، وما كنتُ بأفضل حال منهم، استرعيتُ انتباه بعضهم، بعض المثليين بالطبع، ومن الجنسين، إذ كنتُ ألعب مع الفتية دور الفتى الخجول، وكان الدور برغم

سذاجته ينطلي عليهم سريعاً، وكنتُ أتعلم وأكبر بحيث أني صرتُ أنقل التجارب التي أسمعها من واحد لآخر باعتبارها تجاربي الشخصيّة، فأتلبس تفاصيلها وأستدعي شخصية ملائمة للدور، وهكذا كانت عندي حصيلة لا تُحتَمل من الغرائب والشهوات الجامحة، في حين كانت الفتيات يكتشفن سريعاً كذلك مدى قلة خبرتي أو تعذّر الوصول إليّ، أو يطلقن شكوكاً بشأن حقيقة هويتي الجنسية. ويسارعن لإبداء امتعاضهن ويبتعدن عني.

لاحقاً، تحولتُ إلى بحث أكثر جديّة، قرأتُ وقتذاك جميع الصفحات التي أتاحها لي محرك البحث google عن الـ bisexual وhomosexual، وكانت تتسبب لي بصداع، إذ شعرتُ بأنها تحمّلني وعياً زائداً لتوجه لا يخصّني، في حين كانت صفحات النتائج التي تظهرها الشاشة إثر البحث عن «المثلية الجنسيّة» تراوح ما بين التحريم والتجريم، وتضطرني إلى إقفالها قبل أن أنهي قراءتها، وهي تصرخ في وجهي بأني أهزّ عرش الله في سمائه. وانتهيتُ إلى التفكير، لعل الإجابات كلّها هنا، في جسدي، جسدي بدوره كان يغلق في وجهي الأبواب وينسحب.

وما انسلختُ عن خجلي، كنتُ أغضّ عيني عن المرآة، وأسدلتُ أغطية على مرآة الحمام كي لا أراني عارية أستحم، بل عدا ذلك عدتُ إلى الاستحمام وأنا مرتدية ملابسي الداخليّة، العادة التي كنت قد أقلعت عنها قبل سنوات قليلة، خجلي إلى حدّ أني لا أستطيع وضع يدي على أيّ جزء من جسدي، ولو عرضياً، ولا أستطيع حتى إمرار الصابون عليه. الخجل كحذاء ضخم من الفولاذ يصعد على صدري.

بقيتُ على حالة من القطيعة مع نفسي في الوقت الذي أخذ جسدي يتعنت في طلباته. وأنا أعي جيداً متى يمكنني ردعه ومتى آخذ رغباته بجديّة، لكن المحك هنا ما يريده جسدي، ليس سكاكر ولا ساعتي نوم إضافتين، أراد خطيئة أخرى تقلّل منسوب المياه فيه ثانية، تجربة تكسر عظماً آخر وتلون الجلد فوقه؛ المحك الآن أن جسدي صار خطيئة وعليّ أن أدفنها بالسرعة الممكنة، وإلا فسيغالبني ويفلتُ مرّة أخرى.

(٤)

كنتُ مكتظة بمشاعر متضاربة، ومصابة بالوهن. أنام ساعتين في اليوم وأخلط ما أراه في أحلامي القليلة بما كان يحصل فعلاً. هكذا، أتصرف مع الجميع بمقتضى أحلام لم يشاركوا في أحداثها، وأرجمهم بأقاويل لم تطرأ على خيالاتهم. كنتُ أرزح تحت ثقل باهظ من الذنب والخزي والريبة فيّ. كنتُ أتداعى.

للتو كنتُ قد أغلقتُ هاتفي في وجه عُمَر. سألتُه بطريقة ساذجة: «تجي نلعب لعبة؟ تجي نحبّ بعض؟»، وضحكنا، ضحكنا مطولاً. لم أفكر لحظتذاك بمعنى اللعبة التي أقترحها وبمضمونها الخفي، وحالما أغلقتُ الهاتف فكرتُ: لعل ذلك الشيء الوحيد الذي سيمنعني من الاستغراق في خطيئتي مع ضي، الشيء الوحيد الذي سيحميني من آثام نفسي.

نويت تشرداً ما، وليس وجهة آمنة غير: هبة. سألتها: «تسلفيني مخدة؟». لم أكن منذُ ليلتي تلك مع ضي قد لمستُ أحداً، غير المصافحات الطفيفة التي أجبرتني عليها لقاءاتنا في الحسينية، وفي مواعيدي مع صاحباتي اللواتي لم أرهن طوال بضعة أسابيع أو بضعة أشهر. كنتُ أمتنع عن تقبيلهن وأكتفي بتركهن يضعن قبلاتهن على خدي، حتّى جسدي لم ألمسه! وكنتُ أغض عيني عن الأخريات كلّما

جاورني جسد أو مرّبي! كنت منهكة من الخوف، موصدة على حواسي، ومرعوبة مما قد أكتشفه في جسدي، إضافة إلى ما كشفته ضي! احتجتُ إلى أن أقترب من هبة، أن ألمسها وأن تكشف لي أن ثمّة مكاناً فيّ لم يتسخ بعد، وأن شهوتي الفائتة ليست نقطة خلل في كيمياء جسدي وستدفعني لارتكاب الخطيئة مثنى وثلاث. احتجتُ إلى أن يجاورني جسد هبة ثم لا أجد شيئاً تغير في مشاعري تجاهه، في قدرتي على النظر إليه خارج إطاره الحسّي، في تمكني من التماس معه بلا نيران من شبق. كانت منفعلة جداً وتروّج بصخب واضح لمقتنياتها الجديدة ونسيتْ تماماً أن تجيب عن سؤالي، ثم تدبرتْ ضحكة في آخر السياق وقالت: «جيئي بمخدتك، أو إدفعي لي ثمنها مسبقاً. لا شيء بالمجان يا حلوة»، أنا الأخرى تدبرت ضحكة بالمقابل: «يا حلوة أنتِ! إنكِ بذلك تبيعيني المخدة، لا تؤجرينها!».

لا أفهم شكلاً يمكنني أن أحدد به ما الذي كانته هبة بالنسبة إليّ، ولا أيّ آخر سواها. ولم تكن تلك مشكلة جهل، بقدر ما كانت مشكلة معرفة، بالأحرى مفهومي أنا للمعرفة! إذ فيما أكون متنبهة لبعض تفاصيلهم، تفاصيلهم الأقل لفتاً للانتباه، والتي قد لا تعني شيئاً على الإطلاق مثل أن يحبّ أحدهم الدوري الأوروبي وفريق ليفربول، أو أن يكون طلاء غرفة إحداهن بلون رغوة الكابتشينو، رغم أني لا أعرفُ تشكيلة الليفربول، ولا أعرف من الغرفة غير لون طلائها، وكنتُ لا أحفل بتفاصيلهم الأخرى التي تبدو لغيري أكثر أهمية وأجدر بالحفظ والتداول، عدد أخوتهم، وظائف آبائهم، طبيعة أمهاتهم، لون بشراتهم وأسماء أصحابهم، ولذا قلما كانت

عندي الإجابات الصحيحة حين تُطرح عليّ أسئلة عن أحدى صاحباتي مثلاً: «كيف هي ملامح وجهها؟»، «هل هي من عائلة غنية؟»، «أختها تدرس طب في البحرين، صح؟»، «هي محجوزة لابن عمها الذي سيتزوجها بعد تخرجه». أنا لا أفهم انتقائيتي في التفاصيل، ولا أستوعب الطريقة التي تبدو فيها المعرفة بالآخرين بالنسبة إليَّ مُجردة، نُقطيّة إن صح القول. كنتُ أكتفي بتقديم إجابات تقريبيّة، محتفظة لنفسي بحقيقة أني لا أدري، وأنّي على أيّة حال غير آبهة بكوني لا أدري! لم أكن أرى أحداً. هذه هي الحقيقة في أبسط حالات تجليها.

علاقتي مع هبة كانت زخم ذاكرة مؤلفة من الثرثرة ومواعيد سوق «البسطة» كلّ خميس والمشي قرب الماء والسهر معاً في العطلات وعكاز جدّ تبتدىء فروعنا من شجرته. نطبخ أصنافاً لا يمكن أن يغامر سوانا بتذوقها، ونلصق على الباب لوحة من الورق المقوى تعلن اسمينا كمالكتين للغرفة، بالأحرى كمالكة وشريكتها المُقيمة، بالطبع أولاهما: أنا! كنتُ أتهكم على بعض جنونها. إنني على الأقل أعرف كائناً بشرياً يبدو طبيعياً، يشرب الشاي بائتاً ويقرأ الجريدة من صفحتها الأخيرة، ويستحم بالماء البارد حتّى آخر ليلة شتوية، لا لشيء إلا نكاية بالبرد.

كنا خطين متوازيين وقلّما اجترحنا معجزة صغيرة نتلاقى عبرها. أنا بطيئة، متوجسة وشكاكة. أما هبة فهي فرقعة نارية لا يمكن أن تهدأ إن لم تبعثر شظاياها في كلّ مكان، نشطة ومتوثبة باتجاهات عبثية. التفكير مرتين في الخطوة نفسها تعده هدراً للوقت لا يغتفر. كانت تحترم حياتها الخاوية والحافلة في الوقت نفسه كما تصفها، بغض النظر عما إذا كانت هذه

الحياة تأخذ مساراً تصاعدياً أو تنازلياً. تقول إن كلّ نَفَس هو نعمة مباركة من الله فلمَ تزفره متأففة!

وكان من الطبيعي أن نختلف. كلّ شيء في حياتينا مُختلف. كان أهلي لا يقيمونني من خلال دراستي وعملي التطوعي وحسن تصرفي ونفسيتي الجيدة إلا لماماً، في حين كان عمي وزوجته يقيمان هبة بكلّ ما من شأنه أن يزيد فرصها في الحياة، وما كانت الحياة في نظرهما إلا أن تتزوج البنت و«ربي يسترها». ولهذا كانت قيمتها تُحطّ كلما ازداد وزنها بضعة كيلوغرامات أو قَلَّتْ تلبيتها لدعوات الزواج والمناسبات الاجتماعية، والأكثر شقاءً منذ قررت أن تتوقف عن الدراسة بعد أن اجتازت الأول الثانوي، ولم يسترعِ الأمر انتباههم في البدء، إلى أن باتت الدراسة الجامعيّة في سنوات معدودة شرطاً شبه حاضر وملزماً في قائمة الطلبات لأيّ زواج، غير أن محاولاتهم وليس محاولاتي، وإن اختلفت أهدافنا، لم تُفلح في إقناعها لتعود إلى مقاعد الثانوية، كانت تختلق أعذاراً وتدعي أن ليس بوسعها أن تجاور أطفالاً على الطاولات نفسها، ثمّ إن عقلها أشد بلادة من أن يفقه ألغاز الرياضيات وأحاجي النحو.

لم نكن متضادتين تماماً ولا متشابهتين بعض الشيء، كنا منطقتين متباينتين لا يجمعهما الكثير من السمات المشتركة. الحصيلة: مؤشر اتفاقنا في أعلى أسهمه لا يتعدى واحدة من الأصابع العشر. إلا أنها كانت تهبني، مصداقاً لاسمها، ما كانت اتفاقات العالم وتحالفاته غير قادرة على وهبي إياه: أمان وافر بحجم كف طرية، سائغ في شكل لوح شوكولاته، ومُضاء على شاشة من ألوان تتماوج.

ـ لماذا أنتِ كئيبة؟

ـ جميعنا رماديون في مثل هذا الوقت من السنة.

على مقربة من رأس السنة، يرتدي العالم كله معطفاً قاتماً، يشرع في الغمغمة والبكاء، والبرد يحفر خطوطاً طولية وعرضية كيفما اتفق فوق عظامي. كنتُ للتو قد أدرتُ فيروز، ونشزتُ وراءها بصوتي المشروخ: «أديش كان في ناس، على المفرق تنطر ناس... وتشتي الدني.. ويا حملوا شمسيّ... وآنا بأيام الصحو ما حدا نطرني..». وبرغم غيرتي على صوت فيروز من خدش صوتي، الصوت الذي يخرج من حنجرة يُجرش فيها الثلج باستمرار، فما كنتُ أجرؤ على دخول فردوس صوتها ونسيان نفسي فيه، أو لعلي أراني فيه. أخذ وجهُ هبة منعطفاً غائماً، ملامحها تشكلت سؤالاً من عشرين علامة استفهام: «وش فيك، طيب؟». فتحتُ في الكلام طريقاً جانبية لأتلافى فخ ملامحها، طرحتُ سؤالاً عما الذي يمكن أن أتمناه لفترة زمنية متوسطها من الآن حتّى نهاية العام وسارعتُ إلى الإجابة:

ـ سيفعل الله بي خيراً لو تنزاح هداية عن ظلي.

ـ هل تضايقكِ؟

ـ مللتُ! الحال كلّها بلا جدوى.

ليس هذا مللاً! إنه التعب الباهظ الذي تسببه الجهود المهدورة. في كلّ مناسبة، كُنا نفتعل الترتيبات نفسها، البهرجة في الأفراح والسواد في التأبينات، وكلمات التقديم التي لا يصغي إليها أحد ولا يفهم فحواها أحد، الوجوه التي لا تتغير، واجتماعاتنا المُغلقة بلا إضافات، حالما تحدد

هداية موضوع الحفل، وتُقسم الأدوار، ندّعي أننا مشغولون جداً في مهمات بالغة الجدية، كلّ فكرة جديدة هي محل شكّ، وكلّ متجاوز ينتهي في سلة المهملات. وأنا لا أفهم ما الذي نفعله هنا، إذاً! «الناس لا تتقبل» تستفحل لتأكل المسرح الخشبي البسيط الذي نجسّد عليه أفكارنا الساذجة والمكرورة، و«خاف الله في عباده» تسحق أصواتنا قبل وصولها وترجف في ضمائرنا كأنها الجحيم، و«حاذر مواطن السوء» تُعمي عيني عن الرؤية وقلبي عن اليقين.

كنتُ مغتاظة من هداية، إلى حدّ التجني. ما حدث هو أني قرأتُ لها تقريراً من إحدى الصحف عن معدل الانتحار في البلد، وقد بلغ خمسمئة حالة، وكان ثلث ذاك العدد من القطيف، وثلاثة أرباعه من الفتيات، غالبيتهن قاصرات يعشن في ظروف مادية متدنية، وتساءلتُ أليست مشكلة تستحق أن يُعنى بها أحد، فأجابتني بأن هذه حسينية وليست مركز خدمة اجتماعية أو هاتفاً مجانياً للمساعدة! صعقني ردّها، بطريقته المُستخِفة، ولم تكن تلك عادتها مطلقاً، فصمتُ. غير أنها زادت الطين بلة. فبعد يومين كانت أمي تُخبرني عن اتصال هداية التي شكتني إليها متذمّرة مني ومن تعجلي ورغبتي في تغيير العالم بفرقعة اصبعين.

هبة تعرف أني إذا بدأتُ بالحديث هكذا، بالثرثرة المتسارعة ونبرة الحنق، فإني بلا شكّ، أنوي الهروب من قلق ما، بدلاً من العبور بمنعطفاته. وأنا أضمن اتكاءً على معرفتها هذه ستمدد معي خيط الثرثرة من دون أن تقطعه، لولا أنها خيبتني وفعلتْ.

ـ ولستِ شجاعة كفايةً لتتركي!

ـ هل تظنين ذلك؟

أغبط قدرة هبة على عدم الاكتراث. الشيء الذي لا يمنحك متعةً ضعفي ما يستهلك منك من جهد لا يستحق أن تُعمِل عقلك لأجله. تبعاً لهذا تراني هبة لا أحسن استثمار وقتي. الوقت عمر، والعمر الذي يمرّ ليس عقرب ساعة سيعيد دورته. لكنها، برغم حدّتها في كلّ ما من شأنه أن يكون هدراً فادحاً، كانت لا تحاكمني، لا تسرع إلى التأفف كلّما أفرغت في أذنها سأمي من المنطقة الصماء جداً حيث أقف، ولا تدبج لي صفحتين كاملتين انتقاداً لتوجهي، السقيم بحسب رأيها. أعرف دائماً حلها النهائي والحاسم: «اعتادي، أو اتركي».

كنتُ أبرر إجابتها المعلبة بأنها لم تجرب مرّة أن تمنح أي عمل جهدها، عمل تؤمن به كما كنتُ آنذاك أؤمن بأن العالم سيصبح أجمل، إذا ما حككنا قشرته الخارجية قليلاً، إذا ما دسسنا يداً عابثة في عقله، وغيّرنا ترتيب الأشياء هناك. الطريق لله سالكة فلمَ نحفر فيها ثقوباً ونطمر أخرى، مضيعين بذلك فرصة كلّ واحدٍ أن يجد خريطته الخاصة. أليس ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾؟. وكانت هي في المقابل تطرق رأسي الفارغ، كبطيخة، مما يجعل عقلي عرضة للوهم الطويل والسراب: «استيقظي يا بنتي! سيأتي وقتٌ تصيرين فيه مثل أولئك الغباريات اللواتي تحاولين نفضهن بلا جدوى. ستصيرين هداية أخرى».

لم أتراخَ من قبل لدى سماعي فكرة هبة هذه، وأراني اللحظة أسألها: «ظنّك؟». كنتُ أحاول جادة تغيير وجه العالم، وعلى ما يبدو، وجهي وحده الذي تغيّر. إنني لا أكثر الآن من أسئلة متحركة برياح سرعتها مئتا

وستون ميلاً في الساعة، وعلى مقربة من أن لا تُبقي فيّ شيئاً. من يعطيني الحق في أن أكون ضالة إلى هذا الحدّ، عاصية عاهرة إلى هذا الحدّ ثم أجيء كنبيّ بلا معجزة، ممسكة الميكرفون، وبخشوع نصف مصطنع وباقتناع مهتز تماماً، أحدّث الآخرين عن الله.

حدقت مطولاً إلى الجدار، وأنا ألاحق صوت فيروز، الذي يتلاشى فلا يتمكن صوتي القليل من القبض عليه. على حافة كلام وجدتني، الشيء الذي باغتني مروّعاً، ليس ممكناً أن أترك مساحة كافية لتطأ هبة جحيمي، عليّ أن أضاعف ستري بدل أن أسقط الستار. لا يمكن الملائكة أن تهوي من ارتفاع سبع سماوات بخطيئة واحدة، ألستُ ملاك هبة؟

سارعتُ إلى لملمة شتاتي ناحية الحمام، أريد سيجارة بأيّ ثمن. إنها سيجارة واحدة تنطفىء في حلقي، وتُطفىء معها حاجة ملحة إلى تصريف القذارة مني، على شاكلة حكاية مُنقطعة التفاصيل! سأتقب، إن فعلت، قلب هبة بحموضة خبر بائت، وحتّى بالنسبة إلى شخص يُخطىء كثيراً، ما كان خطإي ليُغتفَر، ثم إنني أجازف أن لا يضمّني سقف ولا تريحني مخدة، أصير مطرودة من حياض الله ومن عالم هبة أيضاً.

لا بأس، أنا لا أختنق الآن، سأتنفس بعمق، بعمق، بعمق.. ستضمر الحاجة في دمي، إنها ليلة بلا سجائر لن ينتهي العالم، والنيكوتين اللعين سيكف عن الطرق على رأسي. أنا بخير، أنا بخير، أنا بخير.. أشعر بالغثيان، ليست مشكلة أن يستمر غثياني لليلة الثانية عشرة بعد ضي، جسدي يطرد الأوساخ منه، وعيني القذى، قريباً سأبصر.

ليست السجائر بأسوأ ما خلفته عليّ ضي. عرضت عليّ واحدة

لتخفف شدّة احتقاني منها، وقبلت. كنتُ جالسة على جانب المغطس في حمام غرفتها، محاولة قدر جهدي أن أكتم غيظي منها، بدلاً من أن أقلب بقية ساعات لقائنا لمشاجرة سخيفة ومضاربات كلامية. لستُ مقتنعة بعد أن أمنحها أكثر من بضعة سنتمترات حسرتُ عنها قميصي، وكانت تريد أكثر، دائماً أرادت أكثر.

تركتُ لها الغرفة وانحبستُ في الحمام. جاءت، مرّرت أصابعها في شعري، فأبعدتها، تعرف كم تزعجني لمساتها حين أكون غاضبة لكنها لا تكفّ. مدّت سيجارتها ناحيتي، ليست هذه أول سيجارة أجربها، سوى أنها في بضع ثوانٍ، استطاعت برغم السعال والاختناق، وضبابية الرؤية، أن تُهدِّي دمي، كانت بالقليل من النيكوتين ترشو إشاراتي العصبية كيما تنتظم وتستكين. مرّة أخرى، وجدتُ في السجائر وفي الجانب نفسه من مغطس الحمام مكاناً آمناً لا تبلغني فيه ضي، ولا يكون لأذاها يد عليّ.

ولأني لا أستسيغ طعم سجائر فيصل، فمن الصعوبة أصلاً أن أسرقه، مدخن الغفلة هذا، الذي يدخن سيجارتين في الأسبوع، كنتُ في البدء آخذ كفايتي من عند ضي، ثم تمكنت أن أقنع سلام، سائقنا، أن يجلب لي السجائر بالإضافة إلى البيرة خلسةً، كانت البيرة في عرف أمي حراماً، وشربها في منزلنا شبيهاً بشرب قنينة من الخمرة، لا فرق!

إدماني، حسبما أزعم، ليس طعم السجائر، أو ترويضها لدمي، بل الشعور الذي يباغتني كلّما قذفت بعقب السيجارة في المرحاض وسحبتُ من ورائها طارد الفضلات، كنتُ أُغرق معها دماغي كله، أتعطل فجأة عن إدراك أيّ شيء آخر، وألاحق استدارة الماء الجارف للسيجارة

ولضيقي معها، ولفضلات أفكاري المعتمة، ولطيوري الليليّة التي تأكل من رأسي حاجتها إلى القلق والخوف والريبة.

كنتُ في الحمام، مصابة بالغثيان وبلا سيجارة، ولم يتطلب الأمر أكثر من إصبعين محشورتين في فمي. إذا كانت عاداتنا النفسية موروثة، فقد ورثت حالة الغثيان كلما ساء الوضع مع أمي، وتفوقت عليها في عادة التقيؤ المُتعمد. تفوق موروثاتي: الشيء الوحيد العادل، على ما يبدو، الذي حصل تهجينه في حمضي النووي، من بين تشابك موروثات بعضها يسلبني حق أكل الفول، وبعضها الآخر يجعلني عرضة لنوبات التشنج في أيّ لحظة، لأصير مثل فرخ بط ابتلّ للتو، في جو بارد، لا يستطيع أن يدفع رعشاته المتوالية. كانا كريمين معي على كلّ حال، لا أنكر ولم يمنحاني كريات دم ملتوية، أو بنكرياس معطلاً!

خرجتُ منهكة، برؤية مشوّشة ورأس يدور. أمسكتُ بيد هبة، وابتسمتُ بتهكّم:

ـ هوبا، أخبرتُكِ أني رسبت؟

نسيت فمها مفتوحاً لفرط الإنكار. أن يكون رسوبي الأول على بعد عام واحد من نهاية سنواتي الدراسيّة، مُنهياً عهداً حافلاً بشهادات التفوق ونسبة الأربعة وتسعين في المئة في الثالث ثانوي! أعرف كم خبري هذا صاعق على هبة التي تلاحقني باستمرار لأركز على دروسي. تهاتفني ما بعد منتصف الليل أثناء امتحاناتي لتتأكد أني ما زلت ساهرة، وتسألني بإلحاح: «إلى أي صفحة وصلتِ؟». كان مخزون أمومتها قد انهمر عليّ دفعة واحدة، أنا البنت التي تصغرها بعام واحد، وتكبرها

بخمس سنوات دراسية. أتشبث بهذه الأمومة كحصن أخير لم يمسّه أحد بعد.

مُذ دخلتُ الكلية، وتحققتُ من نجاحي في السنة الأولى، اعتدتُ أن أتسلّم إشعارات نتائجي متأخّرة، نتائج كلّ فصل في الفصل الذي يعقبه، وكانت نظرات المسؤولة عن قسمي في مكتب شؤون الطالبات ترصدني بغرابة: أيّ برود هذا الذي يجعلني أقترف كلّ هذا الوقت بلا علم بشأن نجاحي أو عدمه! وفوق ذلك، كنتُ أحتفظُ بظروف النتيجة مغلقاً حتّى يجيء وقتٌ أكون بحاجة فيه إلى خبر مبهج أرتفع به فوق كآبتي، ولم تخني ضربة الحظ إلا هذه المرّة، جاءت نتيجتي مخيبة حقّاً.

أردفتُ:

ـ وستضحكين عليّ إذا ما أخبرتك أنها أتفه مادة يمكنني أن أرسب فيها. كان خياري غبياً، أن أترك كلّ مواد تخصصي الذي سيكون فشلي فيها مشرِّفاً وأرسب في مادة عامة.

كلتانا كانت فاقدة القدرة على النوم ليلتذاك. كلتانا لم تتقلب في منامها حتّى لا تفطن الأخرى إلى أنها مستيقظة. كلتانا كانت تزجي العتمة بعدّ خراف النوم أو خراف القلق.

(٥)

أخرجت الدفتر الأسود من زاوية شحيحة الضوء في صدري، وسجلتُ عليه نقطة إضافية، مثلما سجلتُ عليه، من قبل ذنوبي الأولى: أول أغنية سمعتُ، أول صلاة تركتها، أول غسل أجلته، أول شهوة عشتُ بها، أول يوم صيام فطرت فيه، أول قبلة... والآن، أول انكشاف تام لجسدي. ثبّتها جميعاً بتواريخها، وتفاصيلها.

إذا كان يمكن التواريخ أن تكون ساخرة، مفرطة السادية، ومنتقاة بعناية خارقة، فذلك بالضبط ما كانت عليه تواريخي مع ضي، قبلتنا الأولى: حلوى «القرقيعان» وحبات الفول السوداني في منتصف شعبان، ثم صلاة الجسد: ليلة قدري في بدايات الثلث الأخير من رمضان. لا أدري هل كانت متنبّهة حين فعلتْ، لكنها بطريقة محكمة ضمّتْ بين إبهامها وسبابتها أعوامي الفارطة وفركتهما فصارت هباءً لم يوجد قط، ثم جلستْ ساقاً على ساق، ملكة متوجة وراضية.

عشتُ خلال أعوامي الأخيرة حياة مزدوجة، أهيئ دروساً صيفية مكثّفة في الفقه والتوحيد والأخلاق وعلم المنطق، أعمل عملاً تطوعياً، أكتب في مجلة تُعنى بتثقيف الناشئة، أخوض معارك فاشلة ومحبطة كي يكون لصوتي مكان ولخطواتي أرصفة، أتسترّ في نصف إجاباتي وأحاول

تعتيم نصفها الآخر، كي لا يطّلع أحد على ما كنتُ أحدثه في حياتي البعيدة عن عيون الآخرين، أو على أفكاري التي بلا شك ستوصم بالحماقة أو الضلال.

من بضع حكايات ودسائس عرفت أن حياتي، وحياة كلّ منا، أعني المؤطرين في خانة: العاملين لله. حياتي كانت موضوعة تحت مجهر أخطائي وفشلي وسقطاتي ليست مسائل خاصة معنية بها وحدي، إنها ملكٌ للجمهور، للعيون المترصّدة جيداً أي زلل. كنا بقدر ما نمسك الميكرفون، ونترك توقيعاً واضحاً في ذيل مقال من أجل تداول أسمائنا، بالقدر نفسه كانت محاكماتنا في حكايات آخر السهرة تجري بفظاعة وحِدّة.

لسنا قديسين ولا محفوظين باسم الله، ما كنّا غير رعاع وعاملين من الدرجة الثالثة، الشيء الذي يجعلنا قشرة سهلة الثقب وسائغة. كنّا نُحاسَبُ باعتبارنا الثغرة المفتوحة في طابور طويل من الحماية، إن أحداً لايكاد يجرؤ على الاساءة إلى أيّ ممن يتخطانا في أولوية الطابور، لذا كانت تستمر الركلات على مؤخراتنا بتلذذ، وتتحوّل نزواتنا الصغيرة وأخطاؤنا وعيوبنا قضايا بالغة الجديّة لا يُسكتُ عليها في أي حال.

هكذا، نحن ملزمون، بلا قانون مكتوب، أن نكون لوحة صماء، متقنة التفاصيل، بلا خدش واحد، مشرِّفة وبراقة، وخارقين كأنبياء، وبيضاً كملائكة، بحيث لا يتمكن أحدٌ من هدم البناء ذي الطبقات الألف والمتصل بالسماء، والذي نمثّل فيه أكثر اللبنات هشاشة. الثابت أننا لم نحصد شيئاً باستثناء القليل من المجد الزائف، والمجاملات الرديئة، وربما

بعض الرضى، في حين كنّا، هناك، خلف الكواليس والأبواب الموصدة نُضرَب تحت أحزمتنا، بعلمنا أو من دون أن نعلم.

على ذلك، كنتُ أعي تماماً أن حياتي السريّة الأخرى هي مقامرة خطرة جداً وشديدة الضرر، وهذا بعض ما جعلها لذيذة. كنتُ أقامر بنزاهة خالصة وأدركُ مقدار نكوصي. في مقابل كثافة أدرينالييني خضتُ رعباً حقيقياً من الله، والشعور بعقدة الذنب، والجحيم، والآخرين واحتمال فضح ستري. بحثتُ عن خلاصي قدر استطاعتي، وكنتُ كلما حاولتُ أكثر أغرق في عالميّ الإثنين بقدر متساوٍ.

لم أغادر. برغم سقمي من كلّ شيء لم أغادر. ظللتُ أرقب حسن وأحسبه يراقبني من ضفته الأخرى، ولم أشأ أن يبصر ردة فعلي العاجلة فور رحيله. لو علمتُ أنه سيتركني ويرحل، لما فاوضتُ، منذ البدء، على ثانيتين أبددهما في ذاك الخراب. كنتُ قد بدأتُ مدفوعة بهرمونات صبية في السادسة عشرة تحتاج إلى أن ترى نفسها تكبر في عيون الآخرين. كان حسن ينفخُ فيّ لأزهو بنفسي وأفرد جناحيّ تحت الشمس، وكلما ربتَ عليّ أطير، صرت نورساً بحرياً لا يكف عن معانقة السماء. حسن عيني التي تبصرني ومراياي كلّها، العين التي انطفأت وأودعتني ليلاً أعمى لا أحد يراني فيه أو يتحسس وجودي.

من حيث أنا، كنتُ قد قطعت شوطاً لا يمكنني، أن أتراجع وأعود القهقرى: علمتُ بلون أحمر صارخ اسم «ضي»، أدرجتُ بجواره التاريخ الجديد لجسدي، وأغلقتُ الدفتر. قررتُ أن شيئاً سيحدث لن يكون أشد سوءاً مما حدث فعلاً. فمن فرط مرورها عليّ سأفقد تدريجاً

حاجة جسدي إليها، ومعه سأتفادى رغبتي في أن أحبّها، بل قد أكرهها إذا ما أبصرتُ ما ترتكبه فيّ من تشويه فاضح. سأنزلق معها إلى أدنى ما يمكنها أن تنزلني إليه وإذ ذاك سأجرؤ على تركها، إذ ليس بمقدورها أن تفعل بي أكثر.

من دون حاجتي الى مزيد من المبررات عدتُ إلى ضي، كفتني إشارة منها، اتصال من خمس دقائق. اشتياقي وحده، المختلط باشتهائي، كان كفيلاً أن يجعلني رهناً لمشيئتها. وإذا كانت قد تعللت بعيد ميلادي الوشيك لنلتقي، كنتُ أنا لا أنتظر أيّ تحريض أو مناسبة لأمزّق أوراق الروزنامة على عجل في انتظار يوم الأربعاء المبطىء مجيئه نكاية بي.

(٦)

مهمتي الآتية: أن أقنع أمي بانتقالي إلى غرفة محمد السابقة. مرّ عام على زواجه، ومثله على استقرار فيصل في سكنه الجامعي، فلا يبيت في المنزل إلا يومي العطلة الأسبوعيّة. إذا كان منزلنا قد ضمر بعد رحيل حسن، فإن تلك الضربة المزدوجة تركته لسكونه الرهيب والقاتل، وجعلت أمي تحدق إلى بطن مريم، زوجة أخي، كي ينتفخ، لتجيئنا بطفل يعيد إلى البيت صخبه الذي كان أو بعض حيويته، إذ لم تكتفِ بأولاد فاطمة الثلاثة، فاطمة الأخت التي تكبرني بثمان سنوات، والمتزوجة بحسبما يبدو لي منذ الأزل، والتي لا تتوقف أمي عن لومها على قطيعتها. بيتنا الخاوي، غالب الوقت، ترك أمي تردد بأسى ظاهر: «لم يبقَ لهذا البيت إلا الخادمة!».

نصف خلافاتي مع أمي كانت بشأن عزلتي المفرطة، اعتكافي الطويل في غرفتي، فلا أغادرها إلا لأخرج من البيت، أو لآخذ طعامي من المطبخ عائدة به لأتناوله في الغرفة، بالإضافة إلى استخدام الحمام. أمي لا تتوقف عن لومي أنا أيضاً على بابي المُغلق على الدوام، وصوتُ الأغاني الصاخب من خلف جدراني:

كانت غرفة محمد شبه معزولة عن بقية الغرف، ومرفقة بحمامها الخاص، هذا بالضبط ما يجعل موافقة أمي على انتقالي إليها أمراً بالغ

الصعوبة. ومع أني أملك عدداً من أساليب الأبواب الخلفية يمكنني من إنزال أمي عند رغبتي، فإني لا أستخدمها مطلقاً، يكفيها ما تكابد بسببي من متاعب وقلق لا ينضب.

أخيراً، كنتُ مضطرة إلى الرضوخ لطلبها: «تتغدين معي أيام العطلات»، «لا تقفلي الباب أوقاتاً طويلة، أريد أن أطمئن عليك، خصوصاً إذا استحممت.. تتركينه مفتوحاً»، «كفي عن السهر حتّى ساعات الليل المتأخرة قبالة الكمبيوتر.. التلفاز كذلك، شاهديه والنور مُضاء، تجهدين عينيكِ من أجل لا شيء».

ـ هل هناك أوامر أخرى؟

ـ إنتبهي لنفسكِ ماما.

قالت جملتها الأخيرة وهي تداعب خدي، نبرتها الملغمة هذه أعرفها مذ غاب حسن، وأخافها بقدر رغبتي في أن أجيبها: «ماما، أنا أفتقده أيضاً، أنا أيضاً!».

لم أبكِ حسن. ظللت أصرخ: حسن لا يتركني. حسن لا يموت. المسوه، إنه بردان وليس بارداً. إنه يسخر منّا. صدقوني، هذه دعابة سخيفة. سيفتح عينيه بعد قليل ويقول: بووو. ولن يضحك أحد. سأقتلكم جميعاً إنْ ضحكتم. ما من أحدٍ يضحك على الدعابات السخيفة. إنه تحت اللحاف الآن يغالب ضحكه كي لا ينكشف. ليرفع أحدٌ عنه هذا البياض. سترون. صدقوني. لا، لا يرفع أحدٌ عنه غطاءه. قال لي البارحة إنه بردان، وهذا الشتاء حقير لا يعرف أن حسن بردان. كفّوا عن البكاء. إنكم تفلتون يده. إنكم تتركونه يبتعد. كفّوا جميعاً.

حسن لا يتركني. قال لي أيضاً إنه بطل. إنه سيشفى. كثيراً ما ردد أن المستشفيات تكذب وتنتفع من مرضه، قال لي ذلك أيضاً وهو ينظر في عيني، إنه سيعطيني «عيدية» كبيرة، ستنفجر محفظتي من كثرة النقود، سنذهب إلى البحر معاً، والى مدينة الألعاب، سنركب قطار الموت، وقلتُ له إني أخاف، وقال إنه سيمسك بي جيداً وسيضحك عليّ كثيراً وأنا أصرخ خوفاً، قلتُ إن فرصة كهذه لن تسنح له أبداً. آه، أبداً لن تسنح. أبداً لن تسنح. أبداً لن تسنح!

صرختُ طويلاً، ولم يغادر صراخي رأسي. كنتُ أمسحُ دموعي التي تطفر من عينيّ عنوة، أمسحها بقرف بالغ. يجب ألاّ أبكي. إذا بكيت أقررت بموت حسن، وإذا أقررت بذلك يكون قد مات، وحسن لا يموت. حسن لا يخلف بوعده. يمكنني أن أعطيه دمي. آه، حسن.. إن دمي غير نظيف كفاية، لكن كرياته أكثر أناقة من دمك، كرياتي مدورة، أطعمها منذ ثمانية عشر عاماً السكر وأسقيها الكولا، ما الذي تسكبه في دمك ليكون مثقوباً، ويحمل بكل بطش منجل كرياته ويحصد أحلامك يا حبيبي! تعال. قل لي بسخرية إني لستُ أنيقة. قل إن لدمي طعم السكاكر التالفة. قل إنك خفت على مكافآتك الشهريّة وهربت كي لا تنقدني في العيد شيئاً. هل تظنني سأتساهل معك؟ طبعاً، لا. تعال فقط، حسابك عسير معي. أنت لا تتوهم أنك بهذه السهولة ستنفذ ما في رأسك وتمضي بمخططك المكشوف! تعال فقط، تعال أو.. آه، لن أتناول أدويتي حتّى تتراجع. سأمرض. أنت تعرف أني عنيدة. سأمرض بشدة وتحمِّلك أمي اللوم. أمي أيضاً ستقاطعك. إنها لا تحبّ أن ترعبها هكذا!! إنها تبكي،

تقول: لا تطفئوا شمعة حسن. تقول إنه ليس هيّناً عليها أن تراك ممدداً في البياض، بقامتك الطويلة التي لن تأوي بعد اليوم إلى غير التراب. قل لها إنها مخطئة. مخطئة تماماً يا أمي.

لكن حسن لم يقل. الموتى لا يقولون. كلمتهم الأخيرة: موتهم. الموتى لا يقولون. إنهم يمددون خطوتهم ناحية عوالم ما ولجناها من قبل ولا يعودون، يبالغون في الصمت، تاركين لنا مساحة معلنة للحديث والشكوى والصراخ والبكاء والتجديف على الله وكلّ أشكال الرفض غير المجدي. إنهم يحدقون إلى الفراغ، في المدى المطلق محكمين قبضتهم على كلّ ما لا نعرفه بعد، غير متواطئين معنا ليسربوا لنا من هناك بصيص ضوء أو حل أحجية واحدة. إنهم يوصدون الباب بصلف، يصفعونه بكلّ طاقة حياتهم عوضاً من أن يمتصها ملاك الموت، فلا يتسنى لنا ثقب مفتاح أو فرجة تحتية لنستكشف السرّ الكبير الذي لا يريد أحدٌ أن يشاركنا في تفاصيله.

توجعني تفاصيله المنيعة على النسيان. أذكر بوضوح تام نبرة صوته، وحركة حدقتيه حين يتكلم، تلويحة يده وإشارات أصابعه، الطريقة التي يمشي بها، ويقف بها، وكيف يمسكُ السبحة أو مفاتيح سيارته، كيف يعبث بشعره إذا نسي شيئاً، كيف يصفق الباب حين يستاء، كيف يحمل الملعقة بأصابعه الخمس ويأكل مثل طفل، أذكر حبّة الخال في منبت شعره، أقرب إلى صدغه الأيسر، وكيف ينبض صدغه حين يُصاب بالصداع وحين يغضب. وبرغم أنه يغضب إلا لماماً، أذكره يقول: «خذ لك!» حين يسدّ أحدهم الطريق عليه، أذكره يصلي هادئاً وخالياً من أيّ همّ، أذكره

عندما يمرض ويستحيل بياض عينيه إلى اصفرار، أذكره يصطاد لي «الحراسين» من السدّ المجاور لأربّيها في معلبات الدهن الذهبيّة «أبو كرسي» وتموت» خائفة أن أبكي ويسيل وجهه من عينيّ، خائفة أن يغادرني وجهه وتفاصيله الصغيرة ويتركني في وحشتي وحيدة!

ما زلتُ أعالجُ غياب حسن بالكتابة، وأعالج الكتابة بغيابي الخاص، وأعالج غيابي أنا بحضور هشّ لا يشبهني في شيء، حضور يشبه أيّ كائن بلا ملامح محددة أو سمة واضحة، ومن دون حتّى أناه، في العالم الذي فتحتُ منه نافذة، ووجلته، عالم أستطيع تعبئة ملامحي فيه بغبار الكلمات، واصطياد ضحكاتي وبكائي بأيقونات منجزة.

ما أطلقه من مسافات في اتجاهاتي السابقة: دراستي، اشتغالي التطوعي القليل، الكتابة، أصدقائي وأمي، هذه كلها ليست غير محاولة طويلة النفَس لأستبقي نفسي مثبتة في الصورة التي تركني عليها حسن. مدقوقة في الحائط بمسمار ومكتوب في أسفلها: حيثُ كان حسن. بقيتُ مرتعبة من فكرة أن يعود على شكل بَرَد أو نورس أبيض فلا يجد فيّ غير بنت تلاشى جلّ ما فيها في غيابه. أن يطل عليّ من عالمه الآخر فيروعه أن يراني وحيدة، متروكة وهزيلة. كنتُ في الداخل تلك البنت، فأسرفتُ عليّ من المساحيق والضحكات المقلوبة ما جعل أحداً لا يلتفت لانحساري. ذويتُ على مدى ثلاث سنوات، وها أنذا آخذة في التداعي.

لو أن الأمر بيدي، لانتقلت إلى غرفة حسن. أتنفس وجوده في سريره، أحلامه في مخدته، وفي لحافه أثير الدفء الذي يتحرك بين الناس على قدمين. لو فعلت، لما كنتُ أجرؤ على الإتيان بشيء من

حماقاتي. لما استطعت أن أضلل بوصلته بالقول: نعم، صليت قبل قليل، أو إنني وضي مندمجتان تماماً بالفيلم الدائر على الشاشة وما تنبهنا لطرق الباب. وجهه كفيل أن يعيد الله إلى قلبي، وبوصلته الشمالية كانت تنفرط اتجاهاتها إذا ما اكتشفت كذباتي.

ما إن أعطتني أمي إشارة قبولها الخضراء، حتّى انتقلتُ رأساً إلى غرفة محمد. كنتُ قد أعددت فوضى أشيائي قبلها، متأكدة أن أمي ستلين في الأخير وتوافق. لم آخذ شيئاً من أثاثي باستثناء التلفاز والحاسوب وطاولتيهما، بالإضافة إلى بضعة براويز جميعها تحيط بوجه حسن. أعجزني عدد الكتب في مكتبتي عن تمكني من نقلها دفعة واحدة، فاهتديت إلى فكرة هي أن من الممتع حقاً أن يكون لدي غرفتان منفصلتان تماماً، بأثاثين مختلفين، وإمكانات متغايرة، سأقرأ في غرفة وأشاهد التلفاز في الأخرى، وربما أنام ليلة في هذه وأخرى في تلك.

غرفة محمد بطابعها الجدي والعملي تناسبني جداً، وأثاثها القليل يترك براح الغرفة لطلعات مزاجي، أن أنام بضع ليالٍ على الأرض، أن أتمدد قبالة التلفاز تاركة رجلي مرفوعتين على حافة الطاولة، أن أقضي مهاتفاتي رائحة غادية في فضاء الغرفة، أن أذاكر دروسي في أماكن نائية منها، حيثُ لا يجاورني غير الجدران وزواياها، أن أركن جسدي خلف الباب وأعبر أطوار كآبتي، أن أرمي مخداتي الكثيرة وأتركها تتناثر محيلة أرض الغرفة مكاناً لا يصلح للوطء.

الأكثر توافقاً معي: الحمام، كنتُ آخر الليل أترك لمبته مضاءة وأجلس على عتبة بابه أفكر، أخطط، أكتب، أنجز فروضي الدراسية، ولولا وقع

الصدى لجلبت الهاتف وأفنيت الليل ثرثرة مع عُمَر أو هبة. وحين فرغتُ جلستُ مسندة ظهري إلى باب الحمام المغلق من الداخل ودخنتُ سيجارتي اليوميّة، الليليّة بالأحرى، لذة النيكوتين الفظيعة التي تسري في دمي مختلطة بحميمية انحباسي، وستر الليل، وسكون منزلنا المطبق، هذه جميعها تُطلق فيَّ نوعاً كثيفاً من الخدر.

أنتقل إلى عالم أعلى، أغيب وأتتبع دهاليز وبوابات وممَرات سريّة لا توجد إلا في عقلي أتتبع تفاصيلها ومنعطفاتها محاولة أن ألتصق بها أن أفرك عليها أصابعي فأجلو حقيقتها. ما امتلكتُ مخيلة جامحة ولا حتّى في سني حياتي الأولى. الأرض والملموسات فحسب تتمكن من لدغ فضولي لأقترب. لكن، هنا في رأسي فقط، أشعر كما لو أني أعيد بنائي لبنة لبنة. أتحكم بما سأسمح له بالتسرب إليّ وما سأمنعه من دخولي. غيابي: أن ألجم رغبتي في ابتلاع العالم، مقنعة أياي أني سأغصّ به عاجلاً، العالم صعب، وعليّ أن أتعلم كيف أتركه يمرّ من جواري، لا أن يدخلني بصلف. والآخرون، الآخرون على الدوام، حذري الأول وسبب مخاوفي، لا أريد لأحد أن يلمسني، لا أحد، ولا شيء كذلك.

العزلة مطمئنة، إنها تعطيني مساحة كافية لأقترب ما شئت، وأبتعد ما شئت. أن تختار عزلتك، لا يعني أن تكفّ عن الحضور في قلب العالم، إنها في أبسط أشكالها، تعني أن تحضر باختيارك، وأن تباشر حضورك ضمن حدودك الخاصة بحيث لا يسع أحداً أن يسرقك من ذاتك على غفلة، أو يشكل وجهك وفق ما يريد، أو يؤذيك أو يلوي عنق بوصلتك.

إذا كانت غرفتي، سابقاً، هي عزلتي الصارمة ضد كلّ ما هو خارجيّ،

فإن الحمام بات لي الملاذ الأخير، حيث لا يتمكن أحدٌ من خدشي، ولا يتمكن أيضاً من رؤية خدوشي المبتورة التفاصيل أو المكتملة. يكفي أن أغلق الباب لأتيقن أن أحداً لن يراني. الباب حارسي الأمين، وثقبي للولوج لعالمي الخاص غير المعنيّ بأحد. حيثُ دماغي: سبورتي. أفكاري: طباشير من الأبيض الخالص. أنزع إلى تلوين العالم بضوء الله، وعالمي ليس مستثنى.

(٧)

جاء الأربعاء، وجاءت ضي برفقته. وحين التقى عقربا الساعة في الرقم أربعة كانت تقبّلني، وتقفل بشفتيها آخر لحظات عامي الأول كشخص راشد، ثم تأخذني من يدي إلى عامي الجديد. إنني منذ عام أرفع ساقاً وأقفز إلى خانة جديدة، لا أعرف كيف من المفترض أن أتعامل معها، ولا ما المطلوب مني حيالها. لسنوات بقي في ذهني سن الثامنة عشرة قنديلاً مُضاءً، متحفزة أن أعبر في موازاته ليضيء وجهي، بالطبع، لم تكن المغريات سوى تجاوزي سن المراهقة ودخولي الجامعة، الشيء الذي يضمن لي أن أنتفخ مثل طاووس وأرفع سبابتي في وجه العالم: كفّ عن معاملتي كطفلة صغيرة ستلوي كاحلها إذا ما لعبت بالكُرة، أو تتوه عن المنزل إذا خرجت وحيدة إلى الدكان.

تجاوزتُ الثامنة عشرة ومراهقتي وأولى سنوات دراستي الجامعية ولم يحدث فرقاً كبيراً. بقيتُ آخذ المصروف، وأحتاج إلى إذن للخروج من المنزل، وإلى فرمان عسكري يقضي بقبول أو رفض كلّ صديقة جديدة في حياتي. علقتُ قنديلي الثاني، الواحد والعشرين، بجانبه نجمة حمراء كبيرة ومكتوب بجوارها: «سأؤخذُ أخيراً على محمل الجد»، ولم أؤخذ، بقيت في نظر هداية التي تمثل عندي سطوة الكبار، تلك البنت التي لم تستوعب بعدُ ما يكفي من الحياة.

لكن شيئاً بين القنديلين قد تغيّر، شيئاً لا أستطيع أن أحدد نقطة بدئه أو ملامح خطواته الأولية، لا شيء، بل أشياء كثيرة صار لها من الألوان والأشكال والميزات ما يجعلني عاجزة عن ملاحقته.

أضع المكياج، أنزع شعري الزائد، أخرجُ مكتفية بترك خبر عند أمي، من باب العلم بالشيء لا أكثر، أو لا أترك في حال خروجها، إذ إني بنتٌ عاقلة ومقيدة خطواتي بالسائق، أهاتف في أوقات متأخرة، اقتنيتُ هاتفاً نقالاً، وانسحبتُ في دوامة فادحة الدهشة اسمها: النت، بإمكاني عبرها أن أخاطب أياً كان بـ«يا عزيزي» وأنا ابنة مكان تُعدّ مخاطبة أيّ واحدٍ يقع تحت جنس المذكر السالم، ضرباً من المستحيل أو نوعاً من التعهر، اللهم إلا إذا كان ببغاء ذكراً. صف صديقاتي لا تعرف أمي إلا أسماءهن الأولى، ونصف النصف كانت ترفض صحبتي وإياهن.

تنزعُ أمي إلى إطلاق أحكام فورية ومباغتة ولا سبيل للتخفف منها. كانت ترفض أحياناً علاقتي مع صديقة ما بسبب عدم ارتياحها إليها، ولا تتركُ لي آنذاك سوى براح المدرسة مكاناً لتكبر فيه علاقاتي محل رفضها وتؤتي أكلها.

لا أعلمُ حقاً، هل انسلخ العالم من جلده القديم، وتجاوز هو الآخر، سنوات صارمة وراح إلى فسحة لم يطرقها من قبل؟ أم أن أمي كبرت فجأة، وصارت متابعة خطوات أبنائها أمراً مُتعباً؟ أو أن ذلك من أعطيات عمر الثامنة عشرة، والتي لا تأتي رأساً مع عيد الميلاد وهداياه؟

بادرت ضي إلى إغلاق مفاتيح الضوء من تلقاء نفسها. سألتها هل هذا جزء من هديتي، وهي التي تضطرني إلى مذكرة استعطاف من ألف سطر

كي نطفئه، فأجابتني بابتسامة ناقصة. أعرف مزاج ضي هذا، سماؤها غائمة من شيء ما، ولن تخبرني عنه مهما تحايلتُ عليها. لكنها، بعكس ظنّي، جاءت، وأدارت وجهي للحائط، ونامت ملصقةً جبينها بظهري العاري، أخذت ترسم خطوطاً عشوائية بطرف إصبعها فوق جلدي ثم انخرطت في البكاء. ارتبكتُ للحظات. إنه بكاؤها الأول أمامي، جربتُ أن أستدير لكنها منعتني وأبقتْ يدها مشدودة على خاصرتي. سألتْ بانفعال شخص اعتراه خوف كثيف:

ـ لماذا تركتني كلّ الوقت الفائت؟

ـ كنتُ مشوّشة. احتجتُ إلى بعض الوقت.

ـ بعض الوقت! هل تعرفين كم يوماً مضى؟

ـ آسفة، لم أقصد. ها إنني معكِ الآن.

ـ ستتركينني. لا شيء يبقيك. ستتركينني حتّى بلقيس فعلت.

استعرضتُ قائمة الأسماء المشتركة بيننا، أيام دراستنا الثانوية والجامعة، والحسينية لأعرف خيطاً رفيعاً عن مقصدها، فلم أفهم شيئاً يتعلق بهذا الاسم. لاحقاً، في واحدة من أكثر لحظاتنا حميمية ستخبرني عن بلقيس، البنت التي حوّلتها إلى هذا المسخ بحسب تعبيرها. مع جملتها الأخيرة، بدأت ترتجف وبكاؤها يعلن توجعها بوضوح، ومكنتني أن أستدير وأحتضنها قلتُ:

ـ أنا معك. سأبقى معكِ. لن أتركك.

هه!

تعبيرها هذا يقف في مكان حائر بين السخرية والتشكيك. كمن تلوح

لي قائلة: رجاءً، تستطيعين أن تمنحيني طلقة «لن أبقى» بدلاً من سم طويل التأثير وقاتل «لن أتركك». رجاءً لا تمنحيني أملاً حاد الأطراف كهذا!

قامت من السرير، مطلقةً دعابة فاترة عن بكائها كطفلة ضربها أحد أولاد الحارة وسرق مشترياتها، وفتحت النور. عادت، وامتطت جسدي، وأخذت تغرقني في قبلات محمومة. اعتدتُ تقلباتها غير المتوقعة، والتي من النادر أن أجد لها تفسيراً معقولاً. تصرفاتها مثلها تماماً مزدوجة وتقبل أكثر من وجه للأخذ بها. في لحظة ضعيفة ومستكينة وفي ثانية تستعيد جبروتها وحدتها. أحياناً تجيء رهيفة كصباح ربيعي، وأحياناً تحطم عظامي كزوبعة. منذ البدء آمنتُ أنها فوق قدرتي على الفهم، ومستغلقة أكثر من طاقة استيعابي، لذا كففت عن شغل عقلي بفك أحجيتها. هكذا، ضي أجمل. سرّ لن أشي به يوماً لأني لن أدرك كنهه.

ما إن استغرقتُ في جسد ضي حتى عندما طُرق الباب فجأة، فتضاعف معدل نبضاتي كانت الأفكار تتضارب في رأسي، والخوف يركض في سباق مارثوني في شراييني. قمتُ في ظرف ثانية واستلزمني إغلاق أزرار قميصي بطريقة صحيحة محاولتين فاشلتين، ثم ثالثة بيد ضي، في الوقت الذي قامت هي بكل هدوء، وارتدت ملابسها بلا عجل، من دون أن يتغير على وجهها تعبير واحد.

فتحتُ الباب ورأيت أمامي خادمتنا. أطلقتُ سلاطة لساني وأنا أشير إلى علامة خطأ باللون الأحمر المعلقة على بابي، والتي تعني أنني لا أريد أن يزعجني أحد، لأيّ شأن كان، مهما بلغت جديته، أنا نائمة، أو أستحم أو ذهبتُ إلى جهنم. المهم ألاّ أحد يطرق بابي! تلعثمتْ إدنا بدورها وهي

تحاول أن تشرح لي شيئاً بخصوص الهاتف وهبة. أعرف هبة، إذا ما وضعت في رأسها شيئاً لا تتراجع عنه لأي سبب، لا بد أنها فتحت سماعتها على هاتفنا ولم يطِب لها خاطرٌ حتّى أصرّت على إذنا لتطرق عليّ الباب. شكرتُها بنبرة معتذرة وعدتُ إلى غرفتي محكمة إغلاق الباب ثانيةً.

اكتسى وجه ضي علامات بالغة السخرية. لم تعلق، لم تسأل حتّى. وجهها وحده يكفي لملء قاموس من القهقهات والنكات. حدقت إليّ كما تفعل مع مهرج لم يحسن تلوين وجهه، ونسي أنفه الأحمر في غرفة الزينة، وحين كان الجميع يضحكون على ظرافته كما يحسب، كانوا في الحقيقة يضحكون على غباوته.

تعاملني ضي معاملة طفلة في الخامسة، لا تفهم شيئاً بعد، وإذ أقبّلها تتراخى في ضحكة قصيرة وهازئة، ثم تأخذ مني القبلة أخذ عزيز مقتدر. لم تلبث أن أدخلتني المدرسة، واستكتبتني وظائف منزلية لخمسة أو ستة مناهج، وألزمتني بعقوبات نتيجة كلّ خطأ مهما بلغت ضآلته، وفي آخر العام أعطتني شهادة تخرجي موقعة بأستاذيتها. كانت شهادة تخرجي جملة كتبتها بالأسود السائل فوق جسدي «أنتِ ملكٌ لي وحدي». قالت إنه من الصعوبة أن أفهم مغزى هذا التوقيع لو أني لم أشعر بشيء تجاهه. وفي الحقيقة، كان يدهمني حينذاك شعوران متناقضان: واحدٌ يريدني أن أطلق جسدي خارج ضي، والآخر يتشهى سطوتها عليه.

هاتفتُ هبة، لأن شياطينها لن تستكين إذا لم أفعل ذلك في أسرع وقتٍ وكانت بالفعل تقرص أزرار الهاتف طالبة رقم منزلنا، فتلقفتني بمحاكمة

من عشرة قضاة لإغلاقي الباب وهاتفي الجوّال أيضاً ثم ترويعي الخادمة. قالت: «سأصير نصيرة المظلومين بفضلك»، وسألتها بلهجة لا تخفي تعجلي ما تريده، وكانت تريد مني النوم عندها. دبيب قلق طفيف حركته في داخلي مهاتفة هبة برغم الحماسة البادية في صوتها، ليس من المعتاد أن تهاتفني في وقت متأخر من مساء الأربعاء طالبة أن أنام معها ليلتذاك، بل إنه من النادر أن أنام خارج المنزل إذا كان الوقت ليس عطلة صيفية أو إحدى ليالي رمضان المُختلفة في روزنامة المواقيت. أعملتُ أوسطي في جبيني وابتسمتُ بعينين مشتتين ناحية ضي، توقفت بدورها عن تقليب قنوات التلفاز وباغتتني بالسؤال:

ـ ما رأيكِ في سندس؟

قبل سنوات عدة حين شرعتُ في حضور الدروس الصيفية الدينية، كانت سندس هي الوجه المشترك والمألوف، عاماً بعد آخر، ابتساماتنا الخجولة صارت تحيّات عن بُعد ثم مصافحات فصحبة طيبة وأخيراً عرضت عليّ الكتابة معها في مجلة «الفجر». وبتشجيع حسن وافقتُ بعد تردد، كانت همزة الوصل بيني وبين عقيل، أخيها وأحد القائمين على المجلة.

بعد ذلك بعام كنا قد تجاوزنا سنة الرعب الحقيقية: ثالث ثانوي، قُبلنا معاً في كلية العلوم في الدمام. جاء دوري لأردّ مبادرتها فدعوتها للانخراط معنا في الحسينية، أنا أيضاً كنتُ جديدة على المكان والوضع برمته غريب عليّ، فرأيت في سندس درع حماية وخطوة آمنة لقدمي المرتابتين، بالطبع حين قدمتُ العرض نفسه لهبة باعتبارها أقرب

الصديقات كانت النتيجة قهقهة عاليةً، هداية التي كانت الحسينية وقفاً من عائلتها، وبحكم قرابتها من أمي، كانت تعاملني مثل البنت المدللة خصوصاً أني كنتُ أصغرهن سناً فلم ترفض انضمام سندس، بل استقبلتها بحفاوة، ربما بحكم السمعة التي سبقتها للمكان ككاتبة في مجلة دينية.

ظللنا نحنُ الإثنتين في شرنقة واحدة، بقدر اختلاطنا بالأخريات بقدر ما كنا منكفئتين عنهن، لعل منشأ ذلك فرق العمر البارز بيننا وبينهن، باستثناء ضي التي تماثلنا عمراً إلا أننا لم نجد منها آنذاك أيّ مبادرة ودية. وبرغم أن علاقتي أنا وسندس لم تأخذ أيّ طابع حميمي لكنني استشففتُ فيها إنساناً من أولئك الذين يخجلونك لفرط ما تجده فيهم من إنسانية.

كانت أفكارنا متشابهة. لم أكن مضطرة إلى شرح نفسي مرتين لتفهمني سندس، وإن كانت طريقتانا في التعبير عنها متغايرتين. سندس ترى أن الأمور يجب أن تؤخذ بروية وطول بال، إنك لا تسعى لأهدافك وتضع لذلك وقتاً محدوداً، هذا النوع من الأمور التي نشتغل عليها تتطلب وقتاً لتُبنى في حين كنتُ أنا أجد أن المسّ الهين هذا لا يجدي نفعاً، إنه من الأولى بنا أن نكون واضحين وصارمين في معالجة صديدنا بدلاً من ترك دمنا يتعفن.

استغربتُ الطريقة المفاجئة وغير المبررة لطرح سؤال كهذا، خصوصاً أن ضي لا تبدي أيّ لطف تجاه سندس، وأجبت بسيماء مشككة:

ـ سندس بنتٌ رائعة حقاً!

ـ وجميلة، أليس كذلك؟

ـ جميلة، جميلة كثيراً!

ـ فقط؟

ـ لا أفهمكِ!

ـ ألم يسبق أن...

قبل أن تنهي ضي سؤالها، فهمتُ من حاجبها المرفوع المغزى التي تشير إليه، قاطعتها باستنكار بالغ:

ـ سندس لا تفعل هذا.

ـ أما نحنُ فنفعل.

وقهقهت...

مرّة ثانية، كانت قد أمسكت بي ملطخة بمساحيق رخيصة، وناسية أنفي الأحمر في غرفة الزينة. ملامحها جميعها تنطق بكلمة واحدة: «كشفتك!». شعرتُ بأني أتضاءل، وهي تزهو منتفخة. قبضت عليّ في أكثر حالاتي تناقضاً. لم تحتَج حتى إلى أن ترفع غطاءً عني، كنتُ عارية تماماً.

ـ تعرفين أني سأقتلك إنْ خنتني؟

ضحكتُ بسخرية، محاولة أن أخلّف انطباعاً لديها بأني غير آبهة بلهجة التهديد هذه التي تستخدمها معي، وأضفت:

ـ وتشربين من دمي، أعرف.

نهضت عن السرير. أردتُ أن أغلق الباب الذي بدا أنه سيدخل عليّ روائح لا أستسيغها لجهات لا تشرق عليها شمس. أمسكت بي من ذراعي، حاولتُ أن أتخلص من قبضتها لولا أنها دفعتني إلى السرير،

وبثانية صعدت فوقي، وفي عينيها نظرة لا يأتي بها غير الشيطان. سألتني:

ـ هل سبقني إلى جسدك أحد؟

ـ ....

ـ أجيبيني؟

ـ توقّفي.

ـ أجيبي أولاً.

ـ كفي عن حركات الأطفال هذه!

أكرهها حين تحركني كدمية، دمية لن تُعطب مهما لوّحت بها من أطرافها في الهواء. أدرتُ وجهي عنها، أمسكت بفكي وأعادت توجيه وجهي ناحيتها فأبقيت عينيّ تحدقان إلى الناحية الأخرى. ظلّت تردد وهي متوترة «أجيبيني»، ولم أفعل. وضعت يسراها على عنقي وبيمينها شدّت شعري في الوقت الذي تخنقني بقبلات دبقة وضاغطة، هي أقرب إلى العضّ منها إلى القُبل.

أعرفُ أني إذا واصلتُ رفضي فستواصل هي جنونها، الرفض يعطيها حافزاً مضاعفاً لتتغلب عليّ وتثبّت رايتها فوق أرض بكر أسقطتها مني. برغم نحافتها الظاهرة والنعومة الأنثوية البادية في تكوينها، تفوقني ضي في قوتها الجسديّة بمسافات ضوئيّة، الشيء الذي يوفر عليها دائماً أيّ جهد كبير لتخضعني حين أقاومها.

انسحبتُ، أظهرتُ الجانب المعاكس تماماً، صرتُ باردة تحتها كثلاجة حفظ الموتى. تصرفي هذا تصويب في مركز مقتلها، إنه يعطيها كل الرايات لتثبتها أينما شاءت، لكنها رايات وضيعة غرزتها في أرض لم

تقاتل من أجلها لتستحقها.

أعتقتني أخيراً، فعلتْ ذلك مدفوعة بيأسها من أيّ بادرة تغيير في موقفي، وعندما تأكدت أني صقيع لا تستطيع حرارتها إذابته. جلستْ عند حافة السرير غاضبة واستبد في فضاء الغرفة صمتٌ ثقيل، سرعان ما صار صمتاً موحشاً، ومن الكثافة بحيث أن إحدانا لم تعد ترى الأخرى.

السؤال الذي يمرجح سكون الغرفة ويعبث في رأسينا: من ستسبق الثانية هذه المرّة وتتراجع؟ واخترتُ أن أفعل. قلتُ لنفسي: «كوني عاقلة، كبري عقلك. هذا الصمت لن يذهب بكما إلى مكان». عندئذٍ رحتُ أحاول أن أفتح في صمتنا العقيم باباً أو نافذة. كان وجهها مثقوباً ونظراتها آفلة كمن اكتشف حقيقة متأخرة. وضعتُ يدي على كتفها فدفعتْها عنها. بصوت حمّلته رجاء كبيراً سألتها:

ـ ماذا فعلت؟

ـ أنتِ دائماً هكذا! تغضبينني من أجل لا شيء. تستمتعين برؤيتي أشحذكِ!

احتضنتها، مطوقة بيدي خصرها وأنا أقول:

ـ لم يكن هناك سواكِ، رضيتِ؟

واختارت هي أن تُسمع إجابتها قائمة السرير وملاءاته، وكالمعتاد، في حالة عراك كبيرة لا تشبه في شيء «ممارسة الحب» التي يتحدثون عنها بإثارة في الأفلام!

لم أجتز بعد الطريق الصعب لكوني بنتاً ناضجة، اللطخات الزرق والمتعددة على جسدي وانسحاقي تحت عجلة قطار بحمولة مليون طن،

اسمه ضي، ما زال مبكراً لأدرك أيّ مدى تأخذه وحشيتها عليّ، هل أنقاد لها بدافع الحبّ أو الشهوة أو العبودية المطلقة؟ بقدر ما أطفأت من شموع، بقدر ما ابتلعتُ من دموع ساخنة وهي فوقي تشتعل وتحترق وتترمد مثل نيزك يمضي إلى حتفه الأخير. كنتُ أدفع خبز جسدي قرباناً لمراضاتها، وكانت تمتص جذوتي فلا تبقي في قعري أثراً.

(٨)

ـ تقدّم فاضل لخطبتي.

بعينين باهرتين جداً ووجه يصلي قالت جملتها الأخيرة وأردفتْ:

ـ لم أخبر أهلي بعد برَدّي، لكن أعتقد أني موافقة.

من دواعي الأسف حقّاً أنها لا تمزح. لا ملامحها التي تبدو كملامح امرأة ملكت العالم على حين غرّة، ولا الارتعاشات الخجولة في صوتها، تشي بدعابة ما. وشيء يربتُ على قلبي برهافة، يقول: «لا تبتئسي.. لعلك لن تفقديها أيضاً»، وصوت آخر، خادش وعملاق يقهقه بلا توقف: «هل ترين ما طلبتك لأجله! تودعكِ بأناقة، البنت التي عثرت أخيراً على رجل!».

لا أتذكر شيئاً مما قلته لها، لا بد أني تكلّفت بهجة ما وهنأتها، لربما احتضنتُها بذراعين دافئتين وقبلتها قبلة جيدة، لا بد أني قلتُ كلاماً كثيراً ورسمتُ معها عشّاً وعصفورين: هذه هبة، هذا فاضل! لكن، أين أنا؟ العش ضيق يا صديقة! ولن تتسعي لي بعد اليوم! ستتركينني أركض بفردة حذاء واحدة في خلاء وحدتي، وتكفين عن كونكِ خطوتي أو الطريق.

نحنُ النساء نرتكب الغلطة نفسها منذ الأزل، نختزل حياتنا كلّها في الرجل الذي ختم علينا اسمه، نُخلِف أهلنا وصداقاتنا وشهادات دراستنا

وأحلامنا وأشياءنا الصغيرة والتافهة ونتعبد في محراب رجل، الرجل بدوره لا يفعل الكثير، يحافظ على حراك دوائره وزخمها فتتسع، وتتسع وتتسع، ونظل نحنُ مجرد نقطة داخل الزحام. سذاجة مفرطة فعلاً.

وأنا أتلمس وجه هبة، وجهها البعيد والفائض في الوقت نفسه، وضعتُ نصب عيني قائمة أشيائي التي ستُسرق مني، مهاتفات الليل المتأخر، منامات العطلات الصيفية، مشاريعنا الطازجة، رصيفنا البحري وأحذيتنا الرياضيّة، وقلبها! يا الله، لا شيء سيبقى لي! لم تكفِ أصابعي المحترقة لتعداد خساراتي، ولا شكّ أنها على الجانب الآخر من وجهي، تضع قائمة بأشياء شبيهة، مع اختلاف البطولة، وحده فاضل سيّد شباك تذاكرها الآن، وعليّ أنا أن أبقى في الطابور كأيّ واحدٍ من الرعاع والحثالة، من الشعب والطبقة الكادحة، في انتظار دوري، وقد لا يأتي.

فاضل، الطعم الحارق للغيرة في حلقي منذ سنوات طفولتنا الأولى، كانت هبة تعبده صغيرة وها هي تتركني وتتزوجه كبيرة. ابن خالتها ذو العينين الخضراوين والشعر الأشقر. إنني لم أكره ولداً حينذاك مثلما كرهته وهو يغيظني بإجادته ركوب الدراجة، الذي لم أحسنه يوماً. ليس هناك ولد في العالم من حقّه أن يتفوق عليّ أنا البنت المدللة والمتصابية كذلك، فكيف بولد بمثل غروره وعنجهيته، وكنتُ بسبب ذلك أثير حنقه بشتيمة: «يا أمريكي!». بالنسبة إلى أطفال يستيقظون وينامون على نشيد «الموت لأمريكا» على إذاعة إيران كلّ نهار، كانت شتيمتي تلك عاراً غير مقبول مطلقاً، لكنها لفاضل عار لا يستطيع دحضه، دلائله فاضحة لا تُستر.

حتماً سوف تسافر معه إلى الخارج في بعثة من عمله، وتقود السيارة، وتنجب أربعة أطفال، وتلف بلاد الله الواسعة، وتصيّف في باريس، وتحدق إلى ابتسامة الموناليزا، وتكور الثلج وتصنع منه رجلاً بقبعة وأنف أحمر... وماذا أيضاً يا هبة؟ وتتذكر صديقة قديمة، أو ابنة العم لا غير، فتنزع عنها الغبار وترسل إليها بطاقة بريدية من آخر عاصمة مرّت بها.

يوجعني وجهها الهلامي، يوجعني سكوتها هي التي قلما تسكتُ. ليتها تقول شيئاً! أيّ شيء! كيف يغيرها فاضل إلى هذه الدرجة وهو لم يقربها ولا انكشف عليها ولا شغل وجودها بعد، حتّى أنه لم يُلبسها خاتم الخطبة بعد! وكيف تكبر فجأة فتصير لها أسرارها وخصوصياتها وأشياؤها التي لا يحق لي فضّ أختامها، وهي التي بالأمس كانت تترك أدراج صدرها لعبثي! لماذا لم تعلمني اللصوصية منذ البدء، لأعرف فيمَ تفكر الآن، لمَ هي ساكنة مثل جدار وسريّة مثل خلوة! وأنا الغريبة في هذه الغرفة ألعن حضوري عندها. هاتفنا كان يكفي ليشعرني أني حيّة.

قولي شيئاً يا هبة! أيّ شيء! وليتها لم تقل!

أرخت رأسها على كتفي، فلم أعد ألتقط منها غير همهمة شفتين تريدان أن تقولا شيئاً وتتعثرا، أحطتها بذراعي، وأصختُ لرفسٍ هائل يدك مكاناً بعيداً خلف أضلاعها، أمسكتْ بكفي، أمسكتها جيداً وقالت:

أريد أن أهاتفه... نحتاج إلى أن نتفق على بعض الأشياء. وأريد أن... أفعل ذلك من دون معرفة أهلي. لا أريد أن أتسبب له بالإحراج حين لا نتفق. هل تساعدينني؟ أتسمحين لي باستخدام هاتفك النقال؟

أيضاً، ظلّي معي، أعني، ونحن نتحدث.. لا أريد أن أشعر بأني أرتكب جريمة ما... آآ...

أنصاف دقائق وأرباعها تمرّ بين واحدة من جملها والأخرى، ثقيل هو الوقت على جسدي، وخليط من المرارة والأسى يلسعني، أندفع للشعور بالأسف، أسف لا أفهمه إطلاقاً كذلك الذي تخلّفه خيانة مبيتة. أبعدتها عني مسافة كافية لأحدق إلى عينيها، شرحتُ لها أني لا أستطيع أن أكون ثالثة في لحظة حميمية كهذه. تركتُ عندها هاتفي، قالت: «أعدك، لن أتلصص على لائحة أرقامكِ أو أردّ على أيٍّ من مكالماتك أو أعبث بصندوق رسائلك»، وقلتُ: «it's not a big deal». أضافت أن أرسل إليها في الغد سلام، وسوف تعطيه الهاتف مع بعض الأغراض للتمويه، وغادرتُ.

(٩)

لستُ كائناً رطباً، البكاء ليس في عداد ميزاتي. وليس بيننا أيّ علاقة حميمية يعول عليها، صحيح أني بنتُ الماء، ولقدمي طعم الرمل المالح، أشبه ما أكون بصَدفة تمشي على الأرض وتخبىء في راحتها صوت الخليج. وإذا ما نبشت ذاكرتي فلن ترى سوى الزرقة الهائلة والمراكب وطرطشة المدّ والجزر. وصحيح أني ورثتُ إرثاً باهظاً من البكاء، يعود لعهد سحيق في قدمه. منذ كربلاء ونحنُ نبكي، ودموعنا لا تنضب. ومنذ كربلاء تعلمنا كيف يكون بكاؤنا فعلاً يومياً مستمراً، لا موسمياً يبيعنا بضاعته ويرحل. وأنا لدي بكاء كثيف، ودمع يرهقني كلّ ليلة لكنني لا أبكي.

تعودتُ منذ أن كنتُ نصف صبي، أو طفلاً بلا جنس، الظن دوماً أن الأطفال لا يكتسبون جنسهم إلا بعد الزواج، إذ تنجب البنات أطفالاً ويذهب الأولاد للعمل، تعودت بسبب فائض شقاوتي، واحتكاكي المتواصل بحفنة صبيان أبالسة أن لا أبكي. البكاء مدعاة للسخرية وجالب للنصيب الأشد وجعاً من النكات الطازجة وأذى القلب، وأنا لست بحاجة إلى وصمة عار تلزمني مثل حشرة طنانة. وحين كبرت قليلاً قلتُ إنه من الأفضل أن أواصل تقشفي، قليل من الدمع الأبيض للأيام السود، وما رأيتُ حتى ذاك الحين يوماً أسود. حسن وحده غيّر عادات بكائي،

ترك لي خريطة مغسولة المعالم وبوصلة معطوبة وقال: واصلي!

استيقظتُ وأنا معتكرة المزاج جداً، ما كنتُ سأبكي بكاءً يتكوّم داخلي مزاجات فَظة وحساسية زائدة، بالإضافة الى أبواب عدّة مغلقة: فمي وهاتفي وكذلك باب غرفتي. إنه يوم السبت، وعلى وجهي سؤال كبير: من أين آتي بجَلَد كافٍ حتّى ينتهي يوم آخر وأعود للنوم؟

شعور فادح بافتقاد هبة يغطيني أكثر مما يفعل لحافي، وقلبي بارد. ليلة ما قبل البارحة، كانت نصلاً طويلاً امتدّ في خاصرتي. ما توقفتُ عن تعنيف نفسي على أنانيتها، لماذا لا أكون أسعد بنت في العالم لأنها الأسعد؟ ألم تكن أحاسيسنا مشتركة دوماً؟ لكني، لم أتزوج ذلك الأمريكي فاضل. ولا استدار حول بنصري الأيمن خاتم خطبة. ولا زغرد أحدٌ من أجلي! أوه، لستُ حانقة عليه البتة ولا عليها، إنني فقط أشعر بالوحدة للمرّة الأولى. هبة مشغولة عني حتى أنها لن تنتبه أبداً لذلك! بات لديها من يملأها كاملة فما حاجتها إليّ؟ مشكلتي ليست في خطبة هبة، إنما في استبدالها الرخيص لي بواحدٍ آخر، حتّى أنها لم تعطف عليّ فتمنحني فترة هجران كافية، لأعتاد غيابها أو أدّعي تناسيها أو أطوع نفسي على خسارتي إياها! السرعة التي حدث بها الأمر، والغفلة التي كنتُ عليها، والتي لم يتسنَ لي بسببها التفكير مسبقاً في احتمال كهذا، جعلت شعوري بالخسارة مضاعفاً.

ردّدتُ على نفسي أنه يوم صعب آخر وسينتهي حتماً. اضطررت إلى الاستحمام تحت الماء البارد. كان ماء السخّانة نافداً، وليس باستطاعتي أن أنفض عن جسدي خدره ورائحته البائتة من دون استحمام، ثم إني لم

أجد قميصاً مكوياً ولا جوارب نظيفة وإدنا نائمة، وتسببتُ بتعطيل سائق السيارة التي تقلني للكلية خمس دقائق كاملة. مع ذلك لم تكن صعوبته قد بدأت بعد.

مع مطر الأول من فبراير وسماء رمادية وشوارع مغلقة بالماء كان الوصول متعسراً، ومشوار النصف ساعة استغرق ضعفي ذلك، وصلتُ متأخّرة، الثامنة ودقيقتين وبوابة الدخول لمستخدمات السيارات الخاصة توشك على الإغلاق. دقيقة أخرى وكنتُ سأضطر للدخول عبر مسؤولات الأمن بعد إبراز بطاقتي الجامعية، بطاقتي التي لم يحدث أن حملتها في محفظتي إلا لدى المشاركة في الامتحانات النهائية، ليس للأمر علاقة بالإهمال، بقدر ما كانت خديعة تناقلناها من اللواتي سبقننا. من المفترض ألا نحمل بطاقاتنا، فإذا أمسكت بنا المراقبات، لأي تجاوز خارج المدرجات، نحتج بنسيان بطاقاتنا، ومن ثم نستطيع الزج بأي اسم اخترعناه للفرار من عقاب خصم الخمسين ريالاً من مكافآتنا.

خديعة لم أُدفع لاستخدامها حيثُ كانت القوانين لدينا، نحن في تخصصات العلوم، أريحية بخلاف تشدد قوانين تخصصات الآداب وصرامتها، باستثناء بدايات محرم إذ تغلق مداخل المباني وتقام نقاط أشبه بنقاط حواجز التفتيش على الطرق، حينذاك تصبح المخالفة الرئيسية ارتداء القمصان السود والتي يشكل لبسها في ذلك الوقت من العام، بالإضافة إلى أيام متفرقة أخرى، عرفاً قائماً لدينا، نحنُ الشيعة. كنا بدورنا نصر على ارتدائها، فيما يبدو رفضاً صامتاً لمحاولة فعّالة لنفي اختلافنا، ولو كان اختلافاً لونيّاً.

لم نولِ الأمر أكثر مما يستحقه. كنا نتجاوزه بقليل من التفكّه وكثير من التجاهل، من دون أن ندع فكرة التضييق تسيطر علينا، وبقدر ما كان المجهر يتضخم، كنا نتسرب من تحته ببساطة من دون أن نفتعل مواجهة زائدة. نرتدي قمصاناً نظامية فوق قمصاننا السوداء للتمويه، أو نسجل أسماءنا كمخالفات ونمضي لمحاضراتنا، داعيات للمراقبات بالمعونة، إذا ما فكرنا أن عليهن إحصاء ما يقارب ثلث عدد طالبات الكلية، وأكثر، كمخالفات وكتابة أسمائهن. التجاهل سياسة ناجحة باقتدار، ليس استخفافاً بخصمك، إنما تحييداً لخصومته، كنّا أقرب للترفع عن الخصومة، لو أعطينا حلولاً بديلة.

بمدّنا البشري وعلامة اختلافنا نبرز فجأة، لم يعد أمر تمييزنا متروكاً لتشكيلة ملامحنا، ولا لنوعية الأسماء التي نحملها، وليس لانكفائنا بعضنا على بعض فيما يشبه تكتلات داخل جسد أكبر مختلف وغير متوائم معنا تماماً. تميّزنا الآن صارخ في قميص أسود نرتديه بإصرار عجيب، متنازلات بطيب خاطر عن مكافآت شهر محرم الذاهبة الى الخصوم، وعن السلام الذي كان بإمكاننا حصده لو يسّرنا الأمر ورضخنا، نصبح في مجموعنا سؤالاً كبيراً جداً يتدحرج، ومثل كرة الثلج يزداد تضخماً: ماذا يكون هؤلاء؟ وأين يكمن اختلافهم؟

ما المخيف أصلاً في أن نختلف؟ ألأننا نشكّل عاصفة من علامات استفهام، تتحرك في فضاء خامل، لم يسبق أن عرف ماهية التساؤل أو كينونة الاختلاف؟ ألأننا نطلق كثافة من الحضور ليس معترفاً بها على

خريطة الأرض أو بين أفخاذ قبيلة؟ ألأننا نخترق قانوناً غير معلن، يقتضي التعتيم على مغايرتنا عن النسق الأعم والوحيد الذي يعرفه الآخر، وعن كلّ ما هو حقيقيّ وصائب؟

وصولي المتأخر كان ابتسامة طفيفة من الحظ الحسن، فلم أضطر إلى المرور بجانب من الساحة حيث تجمُّع ما سمّيناه «بنات البلد» بين مبنيي العلوم: ع ١ وع ٢، ومن ثم لم أستنزف طاقتي القليلة في لقاءات وتحيّات مطولة وأسئلة تترى بعد انقطاع يومي الإجازة، تحديداً تلك الخاصة بحفل خطبة هبة. كن بضع زميلات، وقد حجزن لي كرسياً، فلم أتكلف البحث عن واحد أو جرّه خلفي من قاعة ثانية، كذلك لم تكن محاضِرتنا قد وصلت بعد، إنها على كلّ حال لا تكترث لاقتطاع نصف ساعة من المحاضرة لأجل ثرثرة فارغة، أو لدخول الطالبات من باب القاعة الخلفي متأخرات بإذن أو بدونه.

استغللتُ الوقت، نزلتُ إلى الكافتيريا واشتريتُ قهوة، رفعت البائعة حاجبيها من خلف الحاجز الزجاجي وأنا أطلب ملعقتي قهوة وثلاث ملاعق سكر، لم أفهم سرّ تعجبها: تركيز القهوة أم حلاوة السكر! لم يكن بحوزتي ولا عند البائعة فراطة، فأكملتُ مشترياتي بكرواسون جبن ولوح شوكولا ونقدتها عشرة ريالات.

جلستُ إلى الطاولة الرخامية البيضاء، سحبتُ جوالي من الحقيبة وتركتُ مكالمة فائتة عند ضي، إذا كانت متفرغة فستعاود بلا شك مهاتفتي، أحتاج لصوتها، رخاوة صوتها تشبه الهلام وكثافته قريبة من العسل. حين تضحك ضي، أشعر أن الأثير حولها تخلخلت مفاصله

جذرياً. أشعر حقاً أنها تشفيني!

عاودتْ مهاتفتي بالفعل، كلماتها: راحتان دافئتان تفككان مواضع الوجع في عنقي وتطلقان آهة خافتة من اللذة، ضحكتْ برهافة وأنا أخبرها أني اشتريت الكرواسون من أجلها، وقالت: «يا نصابة!». كنتُ لا أحتاج إلى غير دقيقة إضافية لأتخلى عن شعوري الكريه تجاه سبتي هذا، وكنتُ لأغني معها: «السبت سبمبوت، والأحد ران ران، والإثنين..»، كانت أمي تغنيها لي دوماً حين أكتئب مساءات الجمعة بسبب انتهاء الإجازة والعودة للاستيقاظ الصباحي والسبت الثقيل.

أوشكتُ أن أثبّت ابتسامة طويلة على وجهي حين انقطع هاتفها فجأة، ربما سوء الطقس عطّل الشبكة، أو نفدت بطارية هاتفها، أو لا بأس، ليست بمشكلة البتة. انتظرتها دقيقة أخرى، ولما لم تتصل لحقتُ بمحاضرتي.

رنين هاتفي المفاجىء، أقرب إلى نقرتين خافتتين منه إلى رنين متواصل، قطع استغراق الدكتورة في الشرح، وجعل الأنظار جميعها تلتفت إلى الوراء حيثُ أجلس. لم أبدِ ارتباكاً بيّنا حتّى لا أشير إلى أن الصوت صدر من حقيبتي. طقطقت الدكتورة بالطبشور على السبورة لتستعيد انتباه الطالبات، وابتسمتْ قليلاً بطريقة تخرسني خجلاً، لم يسبق أن نسيت تحويل الرنين في جوالي إلى الصامت، لا أجازف إطلاقاً مخافة طردي من المحاضرة، بالطريقة المهينة المعتادة للواتي يرتكبن تجاوزاً كهذا.

رفعتُ حقيبتي إلى حجري، وتناولت جوالي، كانت رسالة من ضي:

«سوري قفلت في وجهك من شوي. مروا عليّ مالك ورضوان وخفت يسحبوا جوالي».

تحججتُ بمللي من المحاضرة، وعدم أهميتها، ثم إن الزاوية التي أجلس فيها تحول دون أن تراني الدكتورة فرددتُ عليها:

«هه يا ثقافتكم يا آداب! شوفي الأسامي المحترمة عدنا: شنقل ومنقل».

ثقافة المفاضلة بيننا، فتيات علوم وآداب لطالما كانت شائعة ومتداولة بتكرار مثير للتساؤل. ليس عندي أيّ فكرة عمن بدأها أول مرّة ولا ممن أنا أخذتها. وجدتني، مثلما تسلمتُ بطاقتي الجامعية، تسلمتُ فكرة المفاضلة تلك، وبدوري عززتها. فتيات علوم يقلن عن فتيات الآداب إنهن سطحيات، طريقة تفكيرهن خائبة، ومتفرغات لطلاء أظفارهن ودبغ جلودهن بالأوشام التي تذهب بالغسل، حتّى إننا نستطيع تمييز البنت من مظهرها، من شكل قميصها ومن اعتنائها الواضح بمكياجها، قبل أن نكتشف ذلك من تنورتها السوداء بخلاف التنورة الكحلية الرسمية التي يرتدينها بنات علوم. هن كذلك يقلن عنا أشياء شبيهة، سخيفات، متباهيات، فاقدات لمعايير أنوثتهن، تستطيع تمييز الواحدة فيهن من بالطو المعمل المتسخ الذي لا يفارقها ونظارتها الثقيلة.

وفيما يشبه التسلية واللعب في الوقت بدل الضائع، كنا نتقاذف الكرة بيننا، في مرمى علوم ترجح كفة الجدية والتفكير العملي، وعند آداب تعلو كفة استمتع وعش حياتك بطولها وعرضها. بالطبع، لم يكن الواقع الفعلي صورة مطابقة لأفكارنا المسبقة، لكن فرقاً واضحاً يتجلى للعيان.

إنني لا يمكن أن أقارن بين دماغين، واحد يفكر في ضغط باول والآخر في انتصارات صلاح الدين الأيوبي، ولا بين نسبية آينشتاين ونحو الفراهيدي. وصحيح أن اختلافنا لن يصلّ إلى حدّ أن نستخدم معادلة على شاكلة $\alpha+\beta=\gamma$ في مقابل أنا +أنت=حبّ، التي يستخدمونها. إلا أني انتبهتُ بعناية لطالبات تخصص الجغرافيا، اللواتي في سنتهن الدراسية الأولى، كن بصعوبة يستطعن تمرير الحسابات المطلوبة في دراستهن، ويعزين ذلك إلى أن الحسابات شأن مختص بالرياضيات، برغم أنهن بالكاد انقطعن عن دراستها لعامين لا أكثر.

«قال شنقل قال! منهم لله عاملين لنا رعب وين ما نروح».

شنقل ومنقل: ليسا بطلي أحد برامج الرسوم المتحركة على قناة Space Toon بل هما مسؤولتا الأمن داخل الكلية. جاءتا قبل عام، بملابس رسمية خضراء تشبه ملابس العساكر. كان وجودهما مستحدثاً وجعل الأقاويل والشائعات تتقاذف من فم إلى فم. قيل إن الأمر بخصوص شبكة توزيع مخدرات. وقيل بسبب العلاقات «النص كم»، مع غمزة موحية، كنّا نفهم ماذا تعني «نص كم». وقيل إن لذلك علاقة بالاشتباك الذي حدث في العام الماضي إثر خلاف عقائدي بين طالبتين وتسبب بطرد إحداهن.

بالفعل حدثت مشادة بسبب اختلاف عقائدي وأدت إلى تغيير واضح في سياسة المنع داخل الكلية، حيث صار التفتيش أمراً وارداً في أيّ لحظة. لم يعد بإمكاننا تمرير كتب دينية، وإنْ كانت كتب أدعية لتعقيبات الصلاة، أو استخدام سبحة طين للسجود عليها. شخصياً، لم أعد قادرة

على ترويج المجلة، فأصبحت أجازف بتوزيع نسخ محدودة منها بأقراص مرنة، أوزعها في باص العودة حتّى لا تؤخذ أيّ بنت بذنبي، فرصة اكتشاف أمري شبه معدومة بحكم دراستنا للحاسوب الآلي في سنتنا الدراسية الثانية، وذلك ما عولت عليه. كلّ هذا صحيح لكن ارتباطه بطرد الطالبات ومجيء مسؤولتيَ الأمن ليس أكيداً، حتّى إعلان الطرد المعلّق على حائط الإعلانات أمام مكتب شؤون الطالبات، كان يتحدث إمّا عن مخالفات غش في امتحانات نهائية، وإمّا عن مخالفات أخلاقية خارج الكلية في ساحة انتظار الطالبات لمواصلاتهن الخاصة.

كانت مسؤولتا الأمن لطيفتين بعض الشيء ومتعاونتين. حالما أنهينا فترة التربّص الأولى والحذر، ولم نعرف لهما غاية محددة. حاولت الطالبات كثيراً أن «يتمحكن» بمالك ورضوان، كما سمتهما ضي، لكن لم يخرجن منهما بشيء، كانتا تجيبان بأنهما لا تعرفان سبب استدعائهما لهذه المهمة، وأن كلّ المطلوب منهما هو التجوال داخل الكلية والتنبه لكل ما هو مريب، أو خرق واضح للقوانين العامة في الكلية. وفي الحقيقة لم يكن هنالك سوى قانون واحد: منع الجوال، عليه لم يكن شيء بمستبعد، أن تسأل الواحدة منا عن سبب إحضار قالب حلوى، أو مبرر وجود بنتين في مكان بعيد عن الأنظار، مع أنهما قلما انتظرتا إجابات، تكتفيان بأمر واضح بالابتعاد أو خلافه، ذلك ما استخلصته من احتكاكي الضئيل بهما.

بدا أمر ركل المحاضرة جانباً وبعث الرسائل ممتعاً، وفهمت، أنا المنضبطة غالب الوقت، لماذا تقضي بعض الطالبات وقت المحاضرة بصحبة هواتفهن، فأكملت:

«ما عندك محاضرة؟».

«لا، فاضية بقية النهار: تجي نلتقي؟»

«فكرة حلواااه: عندي محاضرة١١ ـ ١٢ أطنشها وأشوفك».

«ما عندك غياب فيها؟».

«أبداً. لي ١٣ ساعة حد أقصى للغياب ما أخذت منهم غير ٢».

«عجل أمرك. مو هناك محاضرتك؟».

«لا، خليني أمرك عند مكتبة آداب. تمشين معي تحت المطر وتشترين لي باسكن».

«المهم لا تنسي كرواسوني».

انتهت المحاضرة أخيراً، من دون أن أصغي لعشر كلمات منها، وبدأت بالتبرّم. اختياري للمقاعد الأخيرة يزج بي دوماً في هذه اللحظة: سأوقّع حضوري في دفتر الكشف بعد أن يمرّ على قرابة المئة طالبة، والانتظار متعب، ورأسي كلّه عند ضي. لوّحتُ لسلمى الجالسة في الصف الأول، وحدثتها إيماءً: هل وقّعتِ عني؟ فردّتْ عليّ بإشارة معتادة: إن الأخريات سرقن الكشف منها قبل أن تتمكن من ذلك. مضتْ خمس دقائق وأنا مركونة على الجدار قبل أن أوقع.

كراهية عنيفة في داخلي لمثل هذه الأدوار. هنا في الكلية، وقبلها في المدرسة. أراها، وربما من دون وجه حقّ، نوعاً من الحذلقة في المدرسة، كانت هذه النوعية من الطالبات اللواتي يُدرِجن أنفسهن برسم الخدمة، ذوات حظوة خاصة، ولأني لا أستسيغ تمرير كلّ شيء من بوابة النيّة الحسنة، كنتُ لا أتوانى عن التبصّر فيهن بدقة، لعلّي لن أحسن التمييز

لكني أقلّها لن أبتلع حامضهن وحلوهن.

الحادية عشرة وعشر دقائق وقد تمكنتُ من اللحاق بموعدي مع ضي. جهزتُ لها اعتذاراً جيداً. لأقل: اعتذار صاخب، عديم التهذيب، شوارعيّ تماماً كما كانت تحبّني أن أكون! بقيتُ رواحاً وغدواً بجانب درجات المسرح اللصيق بمكتبة قسم الآداب. اخترتُ المكان بعناية وقد كان موعدنا الأول في مكان مكشوف. وتُعرّف ضي بها «زميلة» ولذا كان من الصعوبة أن أبرر أمام أيّ واحدة من صديقاتي سبب تغيبي عن المحاضرة، وتمضيتي وقتاً منفرداً مع ضي، الزميلة فحسب. بالطبع، يمكنني استدعاء كذبة ما في وقتٍ قياسي، وكذبة متقنة أيضاً، لكني لم أحبّ لفت انتباه ضي لفكرة أن علاقتنا امتدت بسريتها، ومن الأفضل أن تبقى كذلك، وأنني شديدة الحرص على ذلك إلى حد الكذب. والمكان هنا، بجوار مكتبة قسم الآداب يوفر لي أرضاً بعيدة عن الجميع.

كليتنا، إذا ما التُقطتْ لها صورة فضائية، تبدو أشبه بمستعمرتين شديدتي الالتصاق، لكن اشتراكهما ضئيل. مستعمرتان بكافتيرين ومكتبتين دراسيتين وأخريين تجاريتين، حتّى أكشاك الطباعة كانت محظورة لتلك التابعة لعلوم وممنوع أن تطبع أوراقاً خاصة بمناهج قسم الآداب، والعكس صحيح. في هذا القسم كثافة التنانير الزرق وفي الأخرى التنانير السود، برغم أنهما يقعان تحت سقف ساحة داخلية مشتركة لجميع المباني بعلومها وآدابها. بالطبع، ليس بالمستحيل أن ترى اختلاطاً في مكان ما، لكنه أمرٌ يبقى في حدود التوقع، وخاضع للإحصاء: ما نسبة أن ألتقي واحدة من عشرين بنتاً أعرفهن جيداً ضمن

نحو أربعة آلاف بنت؟ نسبة غير محتسبة بلا شكّ.

فكرة المستعمرتين أيضاً تنسحب على نوع آخر من المركزية: أنتَ منتمٍ إلى أية فئة؟ إلى أي مذهب؟ إلى أي طائفة؟ وإلى أي منطقة؟ في المدرجات، إذا ما تسنى لأحدٍ بعين فاحصة أن ينظر، يرى القسم الأيمن من المدرج لجماعتنا، والآخر للجماعة الأخرى أو بالعكس. بالطبع، جماعتنا والجماعة الأخرى، رمزان أكثر لطفاً من صفات «شناكل وسنافر»: شيعة وسُنَّة!

من النادر أن فرصة الوجود في مكان مشترك، لأربع سنوات دراسية، استثمرها أحد لعلاقة بمعايير فئوية أقل، بحدود أقل، وبفواصل أقل: كان الحال هكذا حين جئنا، ومن الصعوبة بمكان أن نجرب تغييره. التغيير فعل مخيف وقد يستجلب، في مكانٍ رسمي كهذا، ردّ فعلٍ مؤذياً وآثاراً مستقبلية عكسية كلياً. لطالما كان ثمة شعور خفي وسريّ جداً بأن وجودنا واستمراريته قائمان على بضعة شروط غير معلنة، ومنها أن نخرس تماماً، لأن وشاية واحدة عن إحدانا باشتراكها في لغط مذهبي كافية لرمي ملف قبولها في وجهها وطردها من دون عودة. بالأصل، قبولنا وحده يعده البعض عطاءً إلى غير مستحقة، ويداً طولى على من هو أدنى من الضالين والمغضوب عليهم.

ولأننا الأقلية، في الحقيقة لم نكن أقلية يوماً على صعيد الكلية، إنما على صعيد الوطن، كانت إمكانية دخول آخر مختلف على أيّ تكتل مهما صغر من تكتلاتنا، أمراً غريباً ويؤخذ بريبة تامة، كنا بطبيعة الخوف الذي تشربناه وبدفع الأفكار المسبقة والجاهزة التي حُقِنّا بها جميعاً، نحن

والآخرون نميل للتحفظ وحماية أنفسنا، باعتبار أن الدخول، في واحد من احتمالاته، ربما يكون محاولة اختراق غير طيبة إطلاقاً. وعند الآخرين، كانت فرصة دخولنا أكبر، محمية بكونهم كثرة، وأن إحدانا العنصر الأضعف في المقارنة، كان يتم بسلاسة ويسر، لكني، وهذا عامي الرابع، لم أشهد تجربة فاعلة، لأن ذلك كثيراً ما يحدث بعد عزل العنصر الداخل من اختلافه، وضمّه كواحد من طوابع البريد العديدة والمتشابهة بإفراغه من محتواه فضلاً عن تقشير قالبه. إذاً، لم يكن ثمّة تعايش حقيقي، ولا اندماج يعول عليه، ولا حتّى تقبّل مبدئي وبدائي أيضاً من واحدنا للآخر، لطبيعة الاختلاف، ولمعطياتنا المغايرة.

مضتْ عشر دقائق أخرى وما أتت بعدُ ضي، بررتُ تأخرها بأنه عقابٌ فوري لتأخّري أنا. طلبتُ هاتفها على الرقم خمسة من أرقام الاتصال السريع في جوالي فصدمتني الرسالة المُسجلة: (إن الهاتف المطلوب لا يمكن الاتصال به الآن..)، مررتُ على الجانب الذي اعتادت أن تترك كيس عباءتها فيه، وما وجدتها ولا وجدت أياً من الوجوه المألوفة التي أشاهدها بصحبتها عادةً. تركتُ في كيسها الكرواسون إياه دلالة على مروري، وأخذتُ أقلق. أنا بالأصل لا أحتاج أسباباً ضخمة ومقنعة لأقلق. القلق فعل وجودي لي، سمة حقيقية لأناي، فعل حادّ وشرس لا أتمكن معه من تطبيق شيء من تعليمات كتاب: «دع القلق وابدأ الحياة»، أو أنه لا فعل، بل مجرد ردّ فعل في ظلّ خيارات محدودة ومحجمة.

قلقي تحول نوعاً خاصاً من التوتّر والشعور الحاد بالانزعاج. ذلك الانزعاج الذي لا يُمكنّك من التورط مع أحد في أيّ شيء. لا تبادل

الكلام ولا السؤال العارض عن الوقت، حين تضايقك حتّى الأشياء التي لا تعنيك مطلقاً، والتي هي بالأساس، لا تضايقك في وقت آخر: بنت تدير يدها على خصر ثانية، واحدة تضع عدستين رماديتين في عينيها، صوت قهقهة وقح، آلة بيع الشوكولاته التي تقف قريباً منها والمعطلة، بحيث كلّما جاءت واحدة وأدخلت نقودها في الآلة ألقت عليك سؤالاً: لا تعمل، صح؟ وتجيبها بطريقة تافهة تماماً: وما شأني أنا يا آنسة، عملتْ أم لم تعمل؟ هل اختفت أربعة آلاف طالبة في هذا المكان لتَخصّيني أنا بالسؤال؟ ثم إن ابتساماتك المتوددة هذه تغيظني، احتفظي بها لنفسكِ!

وأربعين دقيقة مرّت على الموعد المفترض، من دون نتيجة. الانتظار الفارغ وحده يتربص بي في ساحة بدا الحضور فيها يتزايد، ليس بداعي فسحة الصلاة فحسب، بل كذلك بسبب المطر الذي لم يكفّ منذ البارحة عن غسل الأمكنة. سحبتُ خطوتي إلى صندوقي، ولما رأيتُ ورقةً مدسوسة بعناية بين باب الصندوق وجداره ابتهجتُ، كأن لم تكن ثمّة أسباب منطقية أو معقولة ليسقط موعدنا من أجندة ضي بالخطأ أو قسراً، والورقة وحدها وما فتحتها بعد، اختصرت جميع الأسباب.

سحبتها من الحيز الضيق حيث كانت واشتممتُ فيها رائحة ضي، رائحة عميقة، ترابية، عجينة طين وسكر. كيف يمكنك أن تصف رائحة إنسان؟ أن تعتقها؟ أن تحتفظ بها في خزانة آمنة في الذاكرة؟ أن تخبئها بعيداً من التلف والنسيان والتشبع بالآخرين؟ رائحة ضي وحدها حكاية. دوماً حرصتُ وأنا أقبّلها على أن اشتمّ نحرها، المكان الذي أتحسس أن خلاصة رائحتها تتموضع فيه، متغلغلة ونقية، لم تمسها أيّ أخلاط أخرى.

الهواء نفسه غير قادر على تغيير رائحة ضي، إنه يشتمّها مثلي ويثمل.

فضضت رسالتها بأصابع مرتعشة. يرتعش قلبي دائماً، دائماً أمام الأشياء الأولى، أمام طزاجتها واستيلائها على حيز مُستحَق من الذاكرة، فلا تنزاح مراتب ثانية، فضلاً عن إدراجها في النسيان. أحبّ الشعور بالتكوّن، بأن ما حولي يأخذ أطواره الجنينية وينمو. يتملّكني حبّ أمومي لأشيائي هذه، فلا يهمني أن تأتي خديجة أو مكتملة الأشراط. وفي علاقتي بضي، أتربّص جيداً بعينين محملقتين وباستعداد فيّاض لأنبهر ببساطة ما يحدث وصغره، بالمشاهد في تشكّلها الأولي، ومن ثم تطبعها بمزيج مراوح التركيب بين ثنائيّ العلاقة، لتمكينهما على اختلافهما من الالتفاف أحدهما على الآخر.

بعجلة مررتُ على الكلمات من دون احتواء معانيها لأول وهلة. سرقني الخط المنحني، بتلافيفه العديدة. النقاط بين كلماتها دوائر مكتملة وناضجة، وحواف الكلمات ملساء جداً، بلا أيّ تكسرات، انعطافات تليها انعطافات، وتشكيلها لكلماتٍ بعينها من دون أخرى، كأنها تقول: «التفتي إليّ». بصعوبة سرقتُ عيني من كلمتها البادئة وأكملت القراءة:

(حبيبتي...

تقرئين رسالتي هذه لأني لم أستطع الحضور. أكتبُ بسرعة. آسفة، تركتك تنتظرين. خِفتُ أن أتراجع. من الصعب أن أطالع وَجْهَكِ وأخبرك بما أريد. إنسيني. كأن شيئاً لمْ يَحدُثْ. أنا لا أستحق. سامحيني. آسفة كثيراً..

وداعاً ضَيّكِ).

بعض الأحيان، الآن مثلاً، أحتاج إلى أحد يشرح لي المطلوب مني.
كإنسان، ما المفترض بي أن أشعر؟ أيّ ردّة فعل أطلق علاماتها على وجهي؟ أبكي؟ أضحك؟ أمزق الورقة؟ ألعن ضي؟ ليرشدني أحدٌ وسأتكفل وحدي باصطناع بقية الملامح.

أبقيتُ الرسالة في قبضتي، شددتُ عليها من دون وعي، ولم ينبهني لذلك إلا الألم القليل الذي خلفه انغراز أظفاري في راحتي، وخرجتُ.
أحتاج إلى أن أتنفس، وأن لا أتقيأ. دورات المياه في هذا الوقت مزدحمة. وأمامي نصف ساعة في الباص. تبللتُ كثيراً، بلا أيّ اندفاع لأغني "It's Raining Man Hallelujah" أو «أمطر، أمطر يا مطر.. بيننا كلّه من صخر». كان بيتي العراء ورجالي شياطين ماء آسن. لم يكن مطراً رحيماً، ولا محبّاً، ولا طويل القامة، هادىء القسمات، كان مجرد مطر، مطر مجرد، ليس حيادياً، بل فاقد أهليّة المشاركة، لم يكن مطر القطيف. هل زرعنا أسلاك حدودنا في سمائك، يا الله!

وصلتُ الباص متأخرةً، ولم أعثر على مقعد. مجموعة من اللواتي غصّ الباص بهن، وقفن أمام الباب بانتظار مسؤول الحركة بغية أن يوفر لهن باصاً آخر، وأنا في غنى تام عن المرور بالسلسلة المعتادة: «جربن باص كذا، لا.. باص كذا، إذاً، باص كذا..»، لزمتُ مكاني عند الدرجة الأولى من سلّم الباص وجلست. ظلّ المطر يجلد بعنف باب الباص، كان صاخباً حتى أنه لا ينزلق على الواجهة الزجاجية، بل يرتد من فوره. كأنه يمعن في تذكيري بحضوره، مغتاظاً من قدرتي على عدم ملاحظته.
حالما فرغ الباص من بعض الطالبات عند أول محطة، أخذتُ مكان

إحداهن على الكرسي الأول بجوار الباب. أمسكتُ العمود الحديدي وأرخيت رأسي على يدي، ومع اهتزاز الباص كانت روحي تهتز طلوعاً ونزولاً، وكنتُ أنا أبتلعها مع الهواء ولا أزفر.
مبتلة كلّي والماء ما زال ينزل من شعري وثيابي، والبرد لاسع، ويدٌ، لا أدري من أيّ جحيم أتت أو من أيّ جنة، تركت دفئها فوق يدي وانسحبت بعد دقيقة كاملة، أظنها دقيقة، من دون أن أحسّ بشيء، لا شيء! ليس الفضول ناحية اليد ما أجبرني على رفع رأسي والنظر عبر النافذة للخارج، إنما كوني لم أحصِ عدد المرات التي توقف فيها الباص، ومن ثم لا أعرف في أيّ مكان أنا، وكم من محطة بقي كي يحين موعد نزولي. كانت تلك المحطة التي تنزل عندها ضي، ورأيتها فاردة كيس عباءتها الأزرق الفاتح فوق رأسها، متخذة إياه مظلّة.

(١٠)

عن «الواد التقيل» تغني سعاد حسني: «الرجل الغامض بسلامته، متخفي بنظارة». هذا بالضبط ما يفعله الموتى، يتخفّون بغيابهم ويستحيلون ظلاً خفياً ومباشر الانعكاس على كل التفاتات حياتنا. في أيام العزاء الأولى كانت النسوة وهن يعزين أمي يقلن لها: «تصبّري، الشوق طويل!»، أفهم الآن ماذا عنَين، حسبتُ أن الوقت يرمم تصدعاتنا، ليس النسيان وإنما استعادة حيواتنا لحراكها الأول وتخطيها انكسار الغياب، وتكفلت الأيام بإثبات العكس. حسن حاضرٌ بمثل حضور غيابه، أليست معادلة محيرة الحلّ فعلاً؟

حسن يستتر بغيابه ليكون حضوره أمضى في حياتي. ها هو يشاركني في كلّ مشكلاتي واختياراتي، وهواجسي اليوميّة ومنجزاتي الضئيلة وسقطاتي الموجعة. كثيراً ما رأيته يتحدث مع نفسه، للمرآة، لدرابزين الدرج، لمفتاح سيارته، للجريدة، ولما أمازحه بهذا الشأن، يقول: «ثمّة من يسمع!». هل كان حسن يتحدث مع غائبيه، مثلما هو الآن غائبي وأتحدث معه؟ أناقشه، وأجادله، وأماريه، وأشحذ فلسفتي الخائبة، وأمرر تفاهات ومشاهد متكررة، أحكي له آخر الأخبار، أجرب أن أخفي عنه ما يوجع القلب وأفشل، وأطلعه على أسرار شائنة يجب ألا يسربها لأمي،

وأحتاج أحياناً إلى أن أخبره نكتة جديدة، سرعان ما أفطن أنه كان هو صاحب هذا الدور، وأن غيابه لا يعطيني الحقّ بسرقة أدواره منه.

حدث ذلك قبل زمن طويل، أيام كنتُ وأنا واقفة على أصابع قدمي لا أوازي كتفه، أخذتُ من مكتبته كتاباً عنوانه «فلسفتنا» للشهيد الصدر، غلافه أزرق، شبه جلدي، ملامسته الباردة في عزّ الصيف وحدها دفعت أصابعي لسحبه من المكتبة وأخذه. لم يقل إني لن أفهمه، ربما أحتاجُ إلى سنتين أو ثلاث، وعشرة سنتيمترات إضافية، إن ثمّة كتباً أخرى تصلح لعقلي الصغير، ابتسم قليلاً وقال: «تناقشيني في ما قرأتِ غداً، تفهمين؟» أجبته بابتسامة أكبر: «إيه». كنتُ أتأتىء بعض الكلمات لغربتها عن قاموسي، وأقف عند جملٍ يوماً كاملاً لأستوعب معناها. احتجتُ سبعة أشهر لأنهي الكتاب، وساعتين من كل أسبوع يشرح لي فيها ما استغلق عليّ، وبعض الحنق عليّ لأني زججتُ بنفسي في سباقٍ أرعن لا أحتاج إليه. ثم أتيته بالكتاب، بنظرة نصر أكيدة، وسؤال شائك: «هل تراني؟ أنا أكبُر!». داعب خدي قليلاً. هو وأمي يتشابهان في مداعبة خدي، بأصابعهما النحيلة والطويلة، وقال: «تخوّفين!»، أجبته بآخر ما علمني إياه في اللغة الإنكليزية: "sort of"، مع أني لم أكن متأكدة من صحة هذه العبارة.

وأنا لم أعشْ يوماً على نتاج الثقافة المصريّة. في صغري، لم أتابع مسلسلات المساء على قناة مصر، ولا فوازير نيلي وشريهان، ولا بوجي وطمطم، ولا أرهقتني وسامة عمر الشريف أو أُغرمتُ بالرومانسية الحالمة في صوت عبد الحليم، ولا أفسدتني «مدرسة المشاغبين» و«العيال

كبرت»، لا أعرف ماذا يكون مقهى الفيشاوي ولا أين تقع الحلمية، ما قرأتُ الشيء الكثير من السباعي ويوسف إدريس ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم، ولم أسمع إلاّ في وقت متأخر بالقوميّة العربية والسادات وعبد الناصر وهيكل وسيد قطب والإخوان المسلمين، ومشروع الوحدة العربية وإتفاقية كامب ديفيد.

هذه ثقافة نظرت إليها دوماً نظرة متشككة، كونها ثقافة جيل سبقني، جيل كان ينخرط في أدوار أبويّة معي، ويوجهني بطريقة فوقيّة. جيل علّق في السادسة عشرة من عمره صور السندريلا على جدران غرفته وأبواب دواليبه، وعاش حكايات حبّه الأول على صوت عبد الحليم، وشارك في أحداث محرم ١٤٠٠، وعاين عن كثب تحول القطيف من طفولتها الريفية وردائها الأزرق إلى نصف مدينة يأكلون خصرها المائي، إلى أرصفة ملونة حدودها بالأصفر والأسود، وشوارع إسفلتية، وبيوت مسلّحة، وعيون ينضب فيها الماء.

ما رسم طفولتي وشغب فتوتي، كان قناة الظهران التابعة لشركة أرامكو. تم نحتي وتشكيل مدارات انتباهي بقناة اسمها «الظهران»؛ دوري كرة السلة الأميركية، ومتابعات الغولف البطيئة والمملة، ومباريات التنس، يااه، التنس! وبطولة الويمبلدون، والأشقر الوسيم بوريس بيكر والغامض المتكتم بيت سامبراس، مباريات العشب الأخضر والأخرى على الملعب الرملي الأحمر المرهقة جداً، وفاكهة الموز. لم أفهم حينذاك لمَ الموز على وجه التحديد؟ الأفلام حكاية أخرى، «رجل المطر» المتوحد دستن هوفمان بقدراته الرياضيّة الفذة، «يد المقص» جوني ديب اللعين،

بأصابعه المقصات ومعدنها الفضي، آلة قادرة على أن تحبّ، «عطر امرأة» وآل باتشينو فاضح الفتنة يصرخ: "I am in the dark"، هذا زمن لن يحسن لسوانا عيشه، أبداً! وبدافع تقنين النفقات، هكذا قيل، حصل إسقاط القناة من رصيدي، كانت خسارة فادحة لم تعوضها قناة ٥٥ البحرينيّة، ولا ٣٣ الإماراتية.

ولذا من قبيل المصادفة لا غير، أن تكون سندريلا الشاشة واحدة من لازمات حسن في ذاكرتي. كانت هبة تعشقها، تدرجها الأولى في قائمة المفضلات لديها، تحفظ أغانيها، وأفلامها مسجلة على أشرطة الفيديو، وأشعار صلاح جاهين التي كانت هبة تلقيها مقلِدةً طريقة سعاد حسني في الكلام ومخارج أحرفها ونبرة صوتها وارتعاشاته والبكاء الطفيف الذي يحمله. سمعتها تغنّيها وحفظتها منها وصودف أن اقتنى حسن نظارة شمسيّة جديدة، وبدأ بالتباهي مثل شاب مترف ومدلل. كعادته دوماً حين يشتري شيئاً يعجبه، وبدأت أغني له: «أكلمو بحرارة، يردّ بالقطارة. الرجل الغامض بسلامته، متخفي بنظارة. ويحيي إزاي؟ أهو كده كده هوه، وينادي إزاي؟ أهو كده كده هوه، ويعادي إزاي؟ كده هوه، ويوقف ويقول أنا هوه، أنا هوه، أطول واحد في الحارة».

غابت هبة، بالأصح غيّبتُها باختياري. من المجدي أحياناً أن تكون فاعلاً في ترتيب ألمك وتقليم أظافره، بدلاً من كونك متلقياً سلبياً للآلام التي يسببها لكَ الآخرون. كانت هبة ستغيب وكل ما فعلته أن عجلتُ موعد غيابها. موعد سعاد، انتحرت، أو قتلها المرض أو الشهرة أو

صديقتها أو رحيل جاهين أو المخابرات المصريّة أو البريطانيّة؛ ماتت سعاد، وذاكرة حسن لا تموت!

رحيل حسن ذروة ما يمكنني المرور به، سقف الألم الذي يتساوى تحته كلّ شيء. الوجع، والخسارة، والفقد، والفجيعة، والإنكار، والانهيارات الداخلية، وتفسّخ الروح، وتداعي الجسد، وسطوة الغياب، ولعنة الخوف، ووحشية الموت الذي يكابده فاقد يجعل كلّ ما عداه تفاهة يوميّة ويجعلني أنظر للحياة بخفة، محيلة نصف أسئلتي إجابةً واحدة: وماذا يعني؟ وماذا يعني أن تغيب هبة؟ وماذا يعني أن تودعني ضي؟ وماذا يعني أن أُخطىء؟ وماذا يعني أن أرسب؟ وماذا يعني أن الشتاء بارد؟ وماذا يعني أن هاتف عُمَر مغلق؟ وماذا يعني؟ لا يعني شيئاً، لا شيء على الإطلاق. هي ذاتها لا شيئية اقتناعاتي، لا شيئية مواقفي، ولا شيئية وجودي، لا شيئية الآخرين، كلّ شيء في حقيقته عدم لكائن تلاشى، وبقيته التي يحس بها هو أو الآخرون مجرد أثر لحرارة قديمة أصيبت روحها بقضمة صقيع.

نافذة ثالثة يوصدها في وجهي هاتف عُمَر، وأنا بحاجة ماسة إلى أن أشحن بطاريتي الفارغة بوجوده. مثل هذه اللحظات تعيدني إلى الفكرة القديمة: كم هو فعل الحبّ مرهق حقّاً! في أيّ صورة جاء، وتحت أيّ تصنيف أُدرج. كم هي العلاقات الإنسانية معامل لإنتاج الطاقة، أو أسباب لاستهلاكها. تستنزفني الحاجة وأنا أكره أن أذعن لحاجاتي، لدي تلك العقدة: إنني إذا روضتُ حاجاتي، وقننتها، وتحكمتُ بأرزاقها ومداخيلها، فسأتمكن من العيش من دون أحد، منفردة ومكتفية.

رغبتي في الاستقلال تأصلتْ منذ أولى محاولاتي لارتداء جواربي بنفسي، وربط خيوط أحذيتي، ونومي من دون هدهدة أمي، وتلطيخ وجهي بدلاً من الأكل بمساعدتها، ولسع عيني بالشامبو أثناء الاستحمام بعيداً عن إشرافها. كنتُ على أهبة استعدادي لبذل المزيد من الجهود وإعادة المحاولة مرات ومرات ولا تمد لي يداً أو ترشدني لطريقة. مرضي أيضاً عزز خوفي من السقوط، من العودة العكسيّة لأدراج الطفولة، من أن يرزح جسدي تحت سلطة أحد. الشيخوخة تخيفني كذلك، أخاف أن أصاب بالشلل أو أخرف مثلاً، بحيث يصير قضاء حوائجي والعناية بجسدي مهمة شخص سواي، أصلي لله على الدوام أن أموت قبل أن أرى فزعي هذا حقيقة.

فات الوقت لأتراجع، فات أيضاً ليردني عُمَر. كنتُ قد جهزتُ شريطاً سجلتُ عليه أغنية «أخافُ أن تمطر الدنيا ولستِ معي» لكاظم، كتبتُ عليه: «هل فقدتك حقّاً؟» ودسستُه في كيس عباءة ضي. محاولة وحيدة لا تضير، أقنعتُ نفسي. لم أعرف أيّ أغنية يمكنني أن أختار، أنا «سنة أولى فيروز» كما كانت ضي تسخر مني، وضي تحبّ كاظم. غير أننا نسمع الأغاني الأجنبية حتّى بتلك اللغات التي لا نفهم منها كلمة واحدة. ذائقتنا متفقة فقط في كراهية أغاني الـ rock & roll حتى لو كانت لفريق الـU2. أنا أُفضل أغاني الـ pop وهي تحبّ الـ rap وتسمع طوال الوقت Eminem وتضحكُ عندما نناقش حركاته القذرة.

جلستْ قربي في باص العودة. جاءت بعدي، ورفعت غطاء وجهها

وأخذت تحدق في الجميع، حتّى اهتدت إليّ، اقتربت وسألتني: «محجوز الكرسي؟»، رفعتُ عنه حقيبتي وأجبتُ: «لا، تفضلي»، ولم ننطق بكلمة واحدة طوال الطريق.

هل قلتُ: فعل الحبّ مرهق؟ ماذا عن فعل الشوق! عينٌ على النافذة، وعينٌ على ضي وأنا منقسمة بين نقيضين: أن يبتلعنا الباص إلى ما لا نهاية، بلا احتمال وصول ولو متأخراً، أو أن يقذفني رأساً على باب منزلنا. تشهّيتُ أن نتلامس، أن ينقر طرف إصبعها كفي، بمحض المصادفة أو بافتعال، كانت أعصابي ستنهار تماماً وتتسارع سيالاتي العصبية بتخبط لو أن احتكاكاً بسيطاً كهذا يحدث.

توقف الباص عند محطة نزولها، فشدّتني من يدي وهي موشكةٌ على الوقوف، قائلة:

ـ إنزلي معي؟

ـ لكن...

ـ يالله، عشاني؟

ـ وأمي؟

ـ هاتفيها لاحقاً. أسرعي، سينهرني السائق وتفوتنا المحطة.

لا أدري من منا أكثر جنوناً من الثانية. شعرتُ بالحرج حالما دخلتُ منزلها ورحبت بي أمها باحتفاء باهر. ادعيتُ كذباً وأنا أغمز لضي خفيةً كي لا تفضحني، أني صائمة، حتّى لا أزاحمهم بالنزول إلى المائدة، لأن الأمر غير معد له مسبقاً، ولم تجهز كفاية لضيف قادم، وبكرمنا المعتاد، الضيف يأخذ نصف المائدة وبقية العائلة تشبع بالفُرجة وبنصف طبق.

عقبتْ: «لولا أن أذان الظهر قد أقيم لفطّرتكِ رغماً» فأجبتُ باستحياء: «خيرها بغيرها».

هاتفتُ أمي لأخبرها، من دون أن أحمل كبير هَم، مع أنها مُصابة بالريبة تجاه ضي. من عادتها ألاّ تطالبني بأيّ إيضاحات ما دمت خارج البيت وما دامت مهاتفتي على الغالب تتم بمعية أحد. لدى أمي تلك اللطافة التي تتحسس بها حدود أبنائها، فلا تطأها، بدافع رغبتها المعتدّة بحفظ صورهم في عيون رفاقهم، أو ليقينها بفرط الكبرياء التي غرستها في دمهم.

هل أقول قلوب الأمهات شواهد؟ محط تنزيل ووحي؟ صوت الله في واحدة من أجلى صوره على الأرض؟ فسّرتُ لها التصاعد المتسارع الذي أخذتُه علاقتي بضي على أنه قدر طيّب شاءه الله لي، أليس رائعاً أن أجد صديقة أذوب في روحها بسلاسة ويسر، كأني خيوط ماء وكأن كلّ أراضيها دلتا، صديقة تكمم مخاوفي، وتقف معي على أرض صلبة؟

مجرد محاولة توضيح علاقتنا المتناقضة جداً والصعبة شأنٌ لا أستطيع القيام به، كيف للأمان أن يجيء ممن تدرك قدرته على إيذائك؟ ألأنك تدرك ذلك، تعدّ نفسك له جيداً؟ يكون الأذى متوقعاً وأنت متأهب له مسبقاً فيأتي عندئذٍ غير صادم؟ أن تجعل نفسك على هذه المقربة من مصدر أذاك وتُبقي اطمئنانك، فأنت على الأقل تعرف الجهة التي ستشرّع لها خاصرة أوجاعك؟

لو أننا نولد ويجيء معنا دليل مصورّ، نفتحه فنقرأ فيه: كيف يمكن تشغيلنا؟ وإطفاؤنا؟ وإعادة شحننا؟ وطرق تحسين أدائنا وأفضل أساليب

حفظنا؟ لو أن ذلك ممكن لأمسكتُ الآن بدليل تشغيلي وقارنته بدليل تشغيل ضي، وفهمتُ الثغرة التي ملأتها فيّ لتفتح تماماً دارة الخوف، بحيث أوقفت الطنين المزعج الذي كان ينحفر في أذني حالما أصافح أحداً، فينبّه قلقي إلى أني في وضع غير آمن، ويدفع بي للانسحاب، للانسحاب بعيداً مقرفصة داخل قلبي، ومغلقة أبوابي عليّ. ما الذي فعلته ضي، وكان إعجازياً واستثنائياً بحيث أركنُ لها وأخمد شارة المسّ في دمي ومحفزات الفزع؟

توهمتُ أننا شطبنا التسعة أيام الماضية، وتلويحة ضي: وداعاً، وقفزنا فوقهما من دون أن تقع إحدانا. صلينا، وجلبتْ صحناً ملآن، وأكلنا بملعقة واحدة، واستمعنا لأغنية كاظم، وقالت إني ذوّاقة، وثرثرنا عن الكلية ونتفنا ريش الدكاترة، وتأففنا من الامتحانات التي حالما تفتح عليها باباً لا يُغلق حتّى نهاية العام، وتعجلنا إجازة الأضحى القريبة، وناقشتُ معها نتف أفكار من دفتر ملاحظاتها بخصوص الحسينية، وقرأتُ الصورة الأولية للمقالة التي تعكف على كتابتها.

صدقتُ حقّاً أن هوّة من البعد لم تقم بيننا، إلى أن دخلنا السرير، وخلعتْ ملابسها وملابسي، وانزلقت فوقي ببضع قُبل، ثم تراجعت قليلاً، وطالعتني بأسى، وأنا ألمس بأصابعي غمازتي خديها، رأيت الهوّة بسعتها التامة في عيني ضي، أعطتني ظهرها، الشيء الذي مكّنني من تتبع آثار دكناء عليه، أكاد لوضوح بعضها أحدد ما جاءت، وليس يمكنني تصور بأيّ جنون وُزعتّ بهذه العشوائية، في حين تجعلني أخرى أعجز عن فهم كيف لآدمي أن ينجز تشويهاً كهذا. صار الأسى من نصيبي

وحدي، راودتني نفسي أن أعيد رسم الآثار بقُبلي، احتجتُ أن أعكف عليها بلطفٍ وأناة لكنني تراجعت، متى كان دوري الوطء على آثار سواي؟

لمْ أُدهش من رؤية الآثار التي تلطخها. في أحايين كثيرة، كانت ضي تجرب أن تثير حنقي عليها أو غيرتي، لا فرق، باستعراض مشاهد مختزلة للقاءات جسديّة صاخبة بينها وبين رفيقاتها، مختزلة بحيث تترك لي أسئلة مشرعة وتخيّلات فاضحة جداً. وأنا متيقنة من أنها تخلط بعض الكذب ببعض الصدق، لكني لمستُ بوضوح حقيقة تعدد علاقاتها. إنها المرّة الأولى التي أرى تلك الآثار جلية عليها بهذا الشكل، ومن دون أيّ محاولة منها لإخفائها. كأنها تقول: «هه! انظري كم أجيد العبث».

وضعتُ قبلة صغيرة على بقعة زرقاء أخرى في أعلى زندها، صغيرة جداً وبرفق خوف أن أؤذيها، ورفعتُ شفتي حالما سمعتها تتأوه، من دون أن أعرف من صوت آهتها ما إذا كان قربي منها هو الذي يوجعها، أم المكان الذي حلّت به القبلة. سألتها:

ـ كوني لي. أعني... لي وحدي!

ردّتْ بعد وقت طويل، طويل حتى أني شككتُ في أنها سمعت ما قلته أو تنوي الإجابة عنه:

ـ ولكني لا أستطيع.

آذاني الشعور بأني أقع في آخر طابور خياراتها. لديها حصيلة تغطي عدد أصابع يدها، فما يجبرها على الاكتفاء بواحدة! واحدة مثلي أنا، بسذاجتي، وارتباكي على جسدها! آذاني كذلك شعوري المُلح بأن

خياراتها الأخرى أحسن ميزات وأكثر ثراءً وأفضل سعة، أليست علاقات فراشٍ صرف؟

أوليتها ظهري، وانغمستْ كل منّا في بحر أفكارها. تراخى علينا ظل صمت فاحش. بردتُ من الداخل، فقدتُ قدرتي على الاهتمام أو طرح الأسئلة أو تجريب مسارات أخرى. كنتُ مثل الذي وضع كلّ ما لديه من بيض في سلة واحدة، واكتفت ضي بركل سلتي إلى الحائط وتهشيم كل احتمالاتي، من دون طرح بدائل أو الوصول إلى حلول وسطى. حمق حقيقي أن أسألها التخلي عن الأخريات وهي التي قبل بضعة أيام قالت: «وداعاً» وإلى الآن لم أسألها السبب.

تخيُّل عرينا ونحنُ مستلقيتان متعاكستين أثار فيّ ضحكاً ساذجاً. أحياناً، يكون الضحك نافذة لتمرير أشياء لا علاقة لها بالمرح والدعابات: الألم، والصدمة، والحرج، والدهشة، والانبهار، والسخرية السوداء، والحقائق التي تأتي متأخرة على الدوام.

جلستُ، ولدي رغبة في أن أقوم وأرتدي ملابسي، لكنني في تلك اللحظة اكتشفتُ أني لا أملك طاقة كافية. إن فعلاً هيناً مثل هذا يستلزمني جهداً فائقاً لا أستطيعه، فبقيت كما لو نسيت ما الذي كنتُ بصدده. جلستْ بدورها، وأحنتْ رأسها على ظهري، خمنتُ أنها مغمضة العينين إذ رمشها لم يكن يتحرك على جلدي، وتحسستُ تعبها من طريقة تنفسها، شيء كالعطف أو الشفقة تحرك فيّ تجاهها، وددتُ أن أغمرها، أمرر يدي على موطن وجعها، وأفتح طاقة الجحيم التي تختبىء في حرارة أنفاسها، ولم أقوَ.

ـ أخافُ عليك مني! أنتِ غضّة، هشّة ورهيفة إلى درجة أخاف معها

أن أضع يدي عليك فأكسركِ.. لا أريد أذيتكِ، لكن هذا ما يحدث، إذا اقتربتُ منك فسأشوهك وأجعلك مثلي. أنا مسخ، ألا ترين؟ صعب أن أشرح! صعب أن تفهمي!

ـ لا بأس.

ليس ثمّة ما يُقال وأردتها أن تصمت، فنطقتُ بتلك الـ «لا بأس» مثل نقطة ضخمة تسدّ منافذ الكلام. كان حلقي ملآن بلعابٍ لاذع، ليس بكاءً، لا يشبه البكاء، فقط حالة خرس موقّتة. لم يصبني فضول تجاه ما قالته، أو بثّ في رغبة تفهمه. لطالما قالت أشياء كهذه، مبهمة، عائمة في الفراغ، وبلا جدوى، كأنها تلصق جميع أسباب عثراتنا على حائط سرّي، وتترك لي مشقة تقديرها. لا أرغب في لعب هذه اللعبة بعد، لعبة الفرضيات عما يمكن أن يكون هذا الشيء العسير على الشرح والمتجاوز لفهمي، ولا أرغب في مفاوضتها على حقائقها السرّية تلك.

غادرت السرير وارتديت ملابسي، أعطيتها ملابسها أيضاً في إشارة لأن تفعل بالمثل. وحالما فرغتْ فتحتُ الستارة، وجلستُ على زاوية السرير أحدق إلى ما خلف النافذة. وجود بيت ضي على حواف البلد، في المنطقة الزراعية التي لم تصب بوباء الإسفلت بعد، يجعل التطلع من نافذتها متعة مذهلة، سماوات زرقاء تشتعل فيها الشمس، وخضرة هائلة على مدى الأفق، كما لو أن الله منح هذه الأرض استثناء فلم تفقد بكارتها.

اقتربتْ مني تبحثُ عن قبلة فأومأتُ لها: لا. برغم أن نوافذ غرفتها عاكسة، فإنَّ تمكّني من رؤية الشارع والمارة والأطفال على دراجاتهم وفي بيوت الجيران يُخلِّف لديّ شعوراً بتمكنهم هم كذلك من رؤيتي، وهذا

ما يجعلني متوجسة، كأني أقترف قبلة على مرأى من الجميع. ابتسمت ضي، من الجيد أنها لم تفهم امتناعي عن القبلة رفضاً لها، سألتني:

ـ لماذا؟

ـ لا أدري!

ابتسمتْ لي بعفوية، وشعرتُ بفضول عينيها يفضحني، قالتْ:

ـ اعتبري الأمر قفزاً بالمظلة، إذا تجاوزت اللحظة الأولى يمكنكِ تجاوز كلّ ما عداها.

ـ ولكن...

ـ تعالي.

سرقتني بقبلة مطولة، همهمتُ لها بلاءات عدة، وكانت بصوت أعلى ترد عليّ بهمهمات رافضة. في البدء حاولت الخلاص منها، ثم تراخيت وأخيراً استجبتُ لوطء القبلة. حالما ابتعدتْ، سألتني:

ـ هاه؟

لم أجب. كان قلبي يضرب، وأنفاسي مرهقة تماماً. غمزتني ملمحةً: «إذاً، لنفعل ذلك والستائر مفتوحة»، وانطلقنا ضاحكتين، برغم شكّي في أن تكون هذه دعابة، وأجبتها أنها جُنّتْ فعلاً.

عاودتْها نظرة الأسى، وأنا ألامس بسبابتي أرنبة أنفها. يبدو أن ثمّة علة في أصابعي تحقنها بالأسى، ربما عليّ أن أدهنها بتعويذة حظّ جيّد، أو أعيد تركيب كيميائها. سألتها بسخطٍ مُفتعل، أو بصبرٍ نافد، لستُ أكيدة:

ـ وبعدين؟

ـ غاضبة مني، أليس كذلك؟

ـ أبداً.

ـ قولي الحقّ؟

ـ أخبرتُكِ: أبداً.

ـ لن تكرهيني، صح؟ مهما حدث؟

بدأت أضيق من المنحنى المتكرر الذي يأخذنا الحديث إليه. أنقذتني من ذلك بتول، وهي تركلُ الباب ويختلط كلامها بشهقات بكائها:

ـ ماما، تعالي ليهم.. مو راضيين يلعبوني. بتروحوا النار.

فتحتْ لها ضي الباب وحملتها، كان وجهها محتقناً بخدين مورّدين وعينين تسكبان دمعاً غزيراً. أتت بها إلى السرير، جواري، ولمّتها في حجرها، بجسدها الضئيل، عصفورة بالكاد نبت جناحاها، وهي تكفكف دموعها وتمسح أنفها بالمنديل:

ـ يالله، بعد وحدة.. إدفعي بقوة.

مددتْ ضي حرف الواو في كلمتها الأخيرة، ثم استدعت صوتاً يشبه التمخّط، وكانت الصغيرة تستجيب طلبها بطاعة تامة، وتُحدِث الصوت نفسه.

ـ بآكسر لك راسهم. خلاص حبيبتي.. خلاص. لا تصيحي.

نظرت ناحيتي وهي تقول:

ـ موال كلّ يوم.

فتحتْ درج الكومدينة وأخرجت لوح سنيكرز، أمسكته بتول بيديها الصغيرتين، قبضتْ عليه بإحكام وتراخى جفناها، وضي تهدهدها.

ـ لماذا تسمّيكِ ماما؟

ـ تستطيعين القول إني تكفلتُ جميع مستحقات تربيتها.

ـ ووالدتك؟

ـ مشغولة.

تواطأنا على الابتسامة في اللحظة نفسها، أنا بدافع طرحي سؤالاً غبياً وفضولياً كهذا، وهي لتخبرني أننا تجاوزنا مرحلة التردد في طرح الأسئلة والالتزام المسبق بحدود حمراء في تخطي الخصوصيات.

ـ هل تتخيلين نفسكِ مُدرّسة؟

ـ تعنين أتخيل نفسي مثل أمي؟

لم تترك لي مجالاً لنفي الطريقة التي فهمتْ بها سؤالي، وأكملتْ:

ـ مستحيل!

ـ وشهادتكِ؟

ـ تعرفين أن تخصص الإنكليزي يتيح لي خيارات متعددة، شركة أرامكو أو مصرفاً أو مستشفى.

بلا مقدمات وعلى غير عادة كتمانها، اندفعت تتحدث عن والدتها، ماذا يعنيه العيش تحت وطأة الشكّ في محبّة أمهاتنا لنا. كانت من التوتر والعناد بحيث لم تعد الأدوار بينهما أماً وطفلتها، بل صغيرة تضرب الأرض برأسها كلّما أصيبت بالحنق وأم تختار حبسها وضربها ضرباً مبرّحاً بسبب سوء تصرفاتها. وحين كبرت صارت هذه الهادئة، الواعية جداً، والأكبر مما يفترض بها أن تكون عليه، بدأتْ جدتها تحثها على أن تسلك طريقها، الطريق الذي سلكته من قبل أمها وخالاتها، وأصبحن قارئات حسينيات، تضيء أصواتهن في العزاء ويُبكين النسوة في السواد، ويُعِدن الحسين

ظامئاً ووحيداً كلّ عاشوراء، وكانت تنفر. ثُمّ اندفعت بطيش صبية وزهوها بنفسها لتجرب موهبتها في الكتابة. كانت قد استنسخت صورة مصغرة عن روايات «خولة القزويني» أكثر الكاتبات حظّاً آنذاك في مجتمعنا المتحفظ إزاء الكتابة، خارج الموالاة والحسّ الإسلامي. كانت روايتها قد انتقلت بين أيادي الصديقات ورأت احتفاء المحيطين بها، ولم ترَ غير النظرة الباردة في عيني أمها والتهكم الصريح: «لا تضيعي وقتك في التفاهات، ركزي على دراستك». حينذاك مدّت هداية يديها، هداية التي تحاول تأميم إبداع الموهوبات في البلد، حسب تعبير ضي. بالنسبة إلى ضي كانت فرصة لتسديد ضربة موفقة في جانب أمها، وبالنسبة إلى الأم كانت فرصة لتمدّ فروع شجرتها بعيداً، الشجرة التي بدا أن السلوك السابق لضي يقطعها. ولذا كثيراً ما كنتُ مع ضي أصل إلى الحديث عن هداية وأكفّ عن الكلام، فلستُ أقوى أبداً على الدخول في معترك دفاع تبدأه ضي ولا تنهيه، ويكون السبب هداية!

قالتْ: «ولو أحبّني العالم كلّه، كلّه. لبقيتُ متيقنة من أن أحداً لم يحبّني». مع جملتها هذه حملتْ بتول لتضعها في سريرها الخاص، تمنيتُ لو أمسك بيدها وأقول: «لا، ظلّي هكذا، كإلهة خرافيّة، المرأة في تام أمومتها». لو أني مصوّر فوتوغرافي أو رسام تشكيلي لما تبدد هذا المشهد من تفكيري قبل إعادة خلقه كاملاً: حِجر تقولب ليحوي الجسد الصغير، ويدان تحيطان بهشاشته ويخرج منها طيف مضيء ودافىء. هذه ليس ضي التي أعرف، ليست الأنيقة الاجتماعية في الكلية، ولا الخلاّقة الحذقة في الحسينية، ولا الشرسة الموجعة في الفراش، هذه ضي أخرى، لم أعرفها

قبلاً، ولم أشمّ فيها رائحة الجنة كما الآن، يا الله! هل هذا ما تفعله بنا الأمومة؟

حالما غطت بتول استفاقت ورفضت العودة إلى النوم، فتحتْ لها غلاف لوح الشوكولاته وقضمت قطعة منه وهي تردد: «يمي، يمي» ثم خرجت معها وسمعتُها تعنف إخوتها بسبب لعبة البلايستيشن وتهددهم بالحرمان من التلفاز. ومع الصدى الذي كان يتكرر لحداثة منزلها، فهمتُ أنها تصرخ من على الدرج، ثم عادت بعد حين:

لا يسعك تخيّل مدى الجنون والفوضى اللذين يتسبب بهما هؤلاء الأشقياء! بالفعل، أعجز عن التخيل وأنا التي عشتُ دوماً في بيتٍ خالٍ تقريباً من الأطفال. وبسخرية أضافت:

ـ أربعة عفاريت على قطعة الحلوى، بتول، وربي حرام!

ضحكتْ، وضحكتُ معها، أحبّ مزاجها الطيّب هذا، وتذهلني التقلبات التي كثيراً ما أجدها تترجّح بينها، وفي أحايين كهذه، تروقني.

أشرتُ إلى شفتي وأنا أرفع حاجبي باتجاهها لتفهم أن ثمة لطخة شوكولاته على شفتيها، هزّت رأسها وعلّقت:

ـ متى ستذاكرين دروسكِ جيداً وتبدئين بتطبيقها؟

ـ همّت بتقبيلي لكنها من ظفر إبهامي، الذي أقضمه بأسناني، خمّنت أن ثمّة ما يشغلني، فسألت:

ـ ماذا؟ فيمَ تفكرين؟

ـ تجي نطلع نتمشى؟

(١١)

كان يوماً عادياً تماماً. لا شيء في بوادره وإشراقاته الصباحيّة منحني انطباعاً باختلافه، أو لفتَ نظرٍ ناحية ثغرة فيه أو سوء تقدير. أنهيتُ مراجعة امتحاني في وقتٍ مبكر، ارتديت ملابسي، انتظرت السيارة، ركبتها، ووصلتُ في الوقت المعتاد، قبيل الثامنة إلا عشر دقائق، وكان المكان كخلية نحل، عادة الامتحانات لا تتغير. أديتُ امتحاني على نحو معقول وخرجتُ قبيل انتصاف وقته، إنني أصلاً لا أضع في حسباني توقعات مرتفعة، ولا أتكهن الأسوأ. خرجتُ وبحثتُ عن سندس بلا نتيجة، فعولتُ على معرفتي قاعة محاضرتها الأخيرة من يوم الأربعاء، القاعة ٧ من ع٣، مقصلة شعبة الرياضيات كما تسميها سندس. حتماً سأجدها في آخر الدوام.

سبق أن أمهلني عقيل يومين لأنهي مقالي وأسلمه إليه، أو أنه سيضطر إلى تحرير المجلة من دون ظهور مقالتي على الصفحة ما قبل الأخيرة، الأمر الذي لم يحدث من قبل، ولا اختار حدوثه. كرهتُ هذه الترقية، على حدّ زعم عقيل، بنزعي من قائمة الاستطلاعات، وإدراج اسمي في قائمة كتّاب مقالات المجلة، حنقتُ عليه مطولاً آنذاك وقال إنه أدرى بمصلحتي، هذا المتسلط! حتّى إنني تمهلتُ لدى تسمية زاويتي فسمّاها

بالنيابة عني: «إنني أسمعك!» ولأنني آخر من فهم المقصد من التسمية شأني شأن أيّ قارىء، شرح لي الأمر بطريقة أفلاطونيّة، إن كتاباتي في مجملها تصرّ على فكرة: لنسمع بعضنا بعضاً بدلاً من الصراخ في محاولة بائسة وعديمة الجدوى ليسمعنا الآخرون، الأكبر والأنضج والأكثر خبرة والأبعد رؤية. كنتُ قد أنهيتُ مقالي بالأمس، وحين فتحتُ جهاز الكمبيوتر لأنسخه وأرسله، كان في طور السكوت، مصاباً بنوبة إجهاد على ما يبدو، ولذا فرصتي الوحيدة هي تسليمه إلى سندس.

جازفتُ بدخول الكافتيريا لأسكت جوعي، وركلني الزحام الفظيع إلى الخارج بسرعة. عدتُ إلى حيثُ تتجمع بنات البلد، كنتُ قد كتبت مقالي على عجلٍ وبدون تبييض، وبدا حروفاً هيروغليفية لا يفكّ شفرتها سواي، فعكفتُ على إعادة كتابته بخط مقروء وإلا فإن عقيل بلسانه اللاذع، سيحيل رداءة خطي نكتته الجديدة ويجعلها مدعاة للتندر، لكن مقاطعة البنات له سائلات عن الامتحان، واضطراري لتبادل الحلول وطريقة فهم الأسئلة مع بعض زميلاتي في المُدرَج، هذا كله جعل وقت الفسحة يمضي ولما أكمل ثلاثة أسطر بعد. لا بأس. في أي حال، ان المحاضرتين التاليتين سيلقيهما دكتوران عبر الشاشة، لذا يمكنني إنهاء ما بدأت به أثناء المحاضرة.

مضى ثلث ساعة من المحاضرة، وإلى هنا لا شيء حقّاً يستحق المتابعة. وبعد وقت وجيز شعرتُ بمرارة في فمي وبخدر في لساني، دبيب نمل رهيف الأقدام يتحرك من طرف لساني إلى عمقه. تنفستُ بعمق كي لا أصاب بالفزع وأتصرف بطريقة مرتبكة. كانت هذه بوادر

نوبتي المعتادة، وأعرفُ أن أمامي مهلة تراوح بين ثانيتين ودقيقة قبل أن تدهمني النوبة وتبدأ تشنجاتي. وبالفعل، حالما وقفتُ مستأذنةً المراقبة للسماح لي بالذهاب إلى دورة المياه، شعرتُ بأن لساني ثقيل والكلمات تخرج من بين شفتي وكأني ألثغ. من ستر الله أن محاضرتي كانت في القاعة ٢٤ المقابلة تماماً لدورة المياه، وتمكنتُ من دخول الحمام وإغلاق الباب قبل أن تجتاحني النوبة. كانت نوبة بسيطة وانتهت سريعاً. وقفتُ قبالة المرآة التي تعلو المغسلة، عيناي محمرتان بشرايين دم متشعبة ودمع غزير يجعل الرؤية ضبابية، غسلتُ جهي وتنفستُ طويلاً ثم عدتُ إلى القاعة.

ليس بسبب النوبة التي استمرت أقل من دقيقة، شعرتُ بالإنهاك، إنما بدافع الخوف. حدث لمرّة واحدة أن أصابتني النوبة علناً. مرّ وقت طويل على ذلك حتى أني نسيتُ. كان ذلك يوم زواج ابن عمي، وفاجأتني النوبة وأنا بجوار أمي، احتضنتني وخبأت بكائيْ تحت «مِشْمَرها»، لكن حين سألتها إحدى قريباتنا: «ما بها؟»، بإخلاص لم أفهمه شرعت تشرح لها وضعي الصحي وطبيعة مرضي. كرهتُ أمي يومذاك كثيراً، كرهتُ شعوري بأنها تعرّيني ببساطة ورخص، وبأن السرّ الذي أصرّت أن أتحفظ عنه، بل، أن نتحفظ عنه جميعاً، كانت أول من يفشيه.

كلّ ليلة، كان دعائي الأخير قبل أن أغمض عيني أن لا يُفتضح أمري، أن لا أُمرر تحت مقصلة الشفقة، أن لا تزج بي نوبتي في متاهة العطف المرهق، وكان الله كريماً معي، كريماً حتى أن صلواتي لم تكفِ لشكره.

والآن، بعد تسع سنوات تتعثر دعوتي في السماوات ولا ترقى لله فلا يستجيبها، لماذا؟ لمَ يتخلَّ الله عني الآن بعدما تيقنت على مدى تسع سنوات أنه لن يفعل؟ فلمَ يتركني على مقربة من نوبة أخرى ولما تمضِ خمس دقائق على الفائتة؟ وإذا كانت أمي تفسّر موت حسن بأنه رحمة، فلمَ لا يكون الموت رحيماً معي إذاً ويأخذني معه إلى حيث حسن؟

ضاقتْ عيناي نتيجة النوبة، ولأن نوبتي من ذلك النوع الذي أبقى فيه واعية تماماً خارج الغيبوبة، بحيث يسعني رؤية المحيطين بي، واستشفاف ردود أفعالهم، فقد كان فزعي أنا كما فزع بقية البنات المنكبات عليّ في محاولة يائسة لتخفيف نوبتي، فزع جحيمي بالفعل! هذه ليست نوبة، هذه أكثر كوابيسي رعباً. كنتُ أجاهد تحت تأثير رغبتي في نضوب تشنجاتي عاجلاً برغم يقيني من عدم جدوى ذلك، وكانت نوبتي تقوى وتشنجاتي تزداد. أردتُ فقط إغماض عيني، أو أن يمنحني الله يديّ تلك البنت النصف أرضية والنصف مرّيخية في المسلسل الأجنبي، حين تقفل سبابتيها فيتوقف العالم، أو أن يغشاني والجميع عمًى موقّت فلا نرى.

اعتدتُ نوبتي أمام «الوجيه إلي ما عنها غطا» كما يقول عُمَر، حين قالها في البدء رددتُ عليه ب«آها» عملاقة، ثم تراجعت وسألته: «يعني شو؟». من الغرابة أني لم أستوعب الجملة برغم معناها البديهي وسياقها المفهوم في حديثنا. كنتُ أخبره عن اعتيادي النوبة أمام أمي. من يستطيع اعتياد سقوطه اليوميّ في هاوية معتمة؟ الآن، أفتقد يدها بشدّة تمسك بكفي اليمنى، وصوتها وهو يناديني أثناء النوبة، كأنها تحاول

إعادتي من المكان النائي والمعزول حيث تأخذني نوبتي. وربما بسبب يدها، كنتُ أستطيع التحكم بنصف جسدي الأيمن والشعور بحركاته أثناء التشنجات أضعاف ما يمكنني مع نصفي الأيسر.

وجهي كلّه مثل طلقة هائمة في الفراغ المقفر، ووجوههن مثل انعكاسات لعبة «روليت» بدأت مزاحاً وانتهت بحائط من الدم. وجوهٌ كثيرة تنزل عليّ، غالبيتها مرتعبة وأخرى مسكونة بالوجوم، حتّى الأمراض غير المعدية تسبب الخوف في قلوب البشر، إنها تريهم عرضاً مصوراً حيّاً، لما يمكن أن يحدث لهم في وضع مماثل، وتريهم مقدار الضعف الذي تقوم عليه بشريتنا. مع ذلك، لا أشكّ واحداً في المئة في أن حجم ما تراه من أثر المرض وظلاله ليس بشيء إزاء حقيقة التشويه الذي يخلفه المرض في جسد الانسان وفي روحه وعقله.

لم يسبق أن شعرتُ بالخجل من نوبتي. كان مرضي نقصاً فادحاً في مقابل اكتمالي الجسدي، لكنه نقص بشريّ محتمل، والآن، يخجلني دفق اللعاب على جانب شفتي وانحدار بعضه إلى ياقة قميصي؛ مسحتُ فمي بقرف، في حين أن يدي الأخرى تغطي جبيني وتظلل وجهي المحني، كي لا يُرى الدمع القليل الفائض من عيني، وانخطاف أنفاسي. لا أفهم كيف تكون تفاصيل نوبتي عاراً شخصيّاً، مثلما لا تفهم أيّ امرأة سبب الخجل الذي تحسّه حين تتلوث ملابسها الداخلية أو شراشف سريرها بدم دورتها الشهريّة، ربما أتمكن من شرح الأمر إلى عُمَر بسؤاله عما يشعر به لدى استيقاظه مبتلاً عقب حلم، ولعله يجيب: «قليل من الغبطة!» أو «كثير من اللاكتراث!».

بصعوبة استطعت الانصراف حين أومأت لي المراقبة أن بإمكاني الخروج. دهمتني في الحمام رغبة بكاء ملعونة، ذلك النوع من البكاء الطوفانيّ، الذي يجتاح معه كلّ شيء ويهشّمه. وليس باستطاعتي أن أفرج عنها، هنا، والآن، سأزيد رصيدي من الفضائح المجانيّة. لفرط اختلاط مشاعري عليّ وفوضاها أصبحت رجلاي متعبتين وعاجزتين عن حملي، وكان قلبي مضطرباً، طنين جبار في رأسي وصداع، برغم أنه لا يصيبني عادةً إلا بعد نوبتي الثقيلة الثالثة على الأقل. وكما في كلّ نوبة لفمي تلك الرائحة التي أكرهها، شيء مثل كيمياء غير مفهومة التركيب، أو زجاجة دواء معبأة بكبسولات عطنة لا تُطاق.

تذكرت الصغير Cole في فيلم The Six Sense حين استيقظ ولديه رغبة شديدة في دخول الحمام، كان واقفاً عند المرحاض وباغته واحد من الموتى الذين يلاحقونه فاختبأ في خيمته وتمتم بصوت ترتعش فيه الظلال: «إن هذا لا يحدث، إن هذا لا يحدث.. إن هذا لا يحدث» شعر بالوقع الثقيل على كتفه عندما حطّتْ يدُ الشبح، وحين استدار رأى الميت خلفه تماماً، ففزع إلى الخارج وهو يصرخ. في مشهد آخر كان يحرك دُماه على هيئة جنود وعساكر ويرتل تعويذة باللاتينية، شيء مثل: «إمنحني الخلاص، يا الله».

متشبثة بوجه أمي وطمأنينته رددتُ مثلها آن نوبتي: «كهيعص.. كهيعص.. كهيعص» حتّى هدأتُ تماماً، واستعدت سكينتي. غسلتُ وجهي، ثم خرجت، ليس بوسعي أن أطيل أكثر كي لا يأتي أحدٌ في أثري ليطمئن.

ابتسمتْ لي المراقبة، وتقدّمت ناحيتي، همست:

- هل تريدين الذهاب إلى العيادة؟

- لا.

تحلّقت حولي بضع زميلات في محاولة جادة لتقديم أيّ مساعدة مطلوبة: العيادة، مناديل، ماء، حتّى إذن الخروج من الكلية قبل الثانية عشرة، موعد فتح البوابات، وكنتُ أجيب الجميع بـ«لا» صارمة وبابتسامة مجامِلة. دقّت المراقبة الباب، وأمرت الطالبات أن ينتبهن للمحاضرة، فعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً، فبدأت عروضهن تخفت حتّى تلاشت تماماً، وحملتُ في قلبي شكراً غزيراً لها وهي تزيح عني الثقل الباهظ للشفقة.

عندما لعلعت صفارة الإنذار الأولى أيام حرب الخليج الثانية، وهي صفّارة تدريبية، محاولة لتعليم الناس كيف يخلون الشوارع والسطوح المفتوحة بأسرع وقتٍ ويختبئون مثل جرذان في غرف مغلقة، مسدودة الفتحات، وعلى نوافذها علامات X، أليست هذه الإشارة التي يضعها بطلا مسلسل X-files إشارة من أحدهما للآخر بأن دخول المبنى محظور عليه؟

تلك المرّة، وقد كانت الأولى، فرّ الناس مرتعبين من وقع الصوت المدوي، متأبطين أطفالهم، وقد أقنعتهم، وبكوا، وصلوا، واستعدوا لتعب طويل، كما لو أن الحرب خلعت الأبواب والنوافذ ودخلت مارداً شبحيّاً نشعر بأنفاسه ونحس بوطء قدميه ولا نراه. كانت حقيقيّة جداً لأنها الأولى، ومفزعة لأنها الأولى ووحشية لأنها الأولى. هكذا تماماً

تبدو لي نوبتي هذه. رعب يقف لأعوام وليس لأشهر فحسب خلف الباب، والآن، بركلة واحدة زال وجه الجدار وحلّ بداري غير مرضيٍّ عليه.

تدربتُ بجديّة صارمة للحظة كهذه، في خيالي فتحت صفوفاً تمهيدية، وأشعلتُ في عيني صوراً فظيعة لمشهد مماثل، نظمتُ سلسلة من الاحتمالات وغيّرت على مدى أعوام تراتبيتها، والتزمتُ حيالها باستدعاء ردّات فعل مُثلى، لكنها حين أتت كانت ساحقة، حتى أني لم أتذكر شيئاً من المنهج. طبيعتي المتحفظة وحدها حمتني من تدخلات ذات الأثر السيئ لنيّات الآخرين الطيبة، النيّات الطيبة التي تدوس كرامتي ولا تدري، وأقابلها أنا بلا قصد بدروع من الرفض الواضح والاعتداد، محاولة أن أضفي على ملامحي ثقة زائدة، أو زائفة لا فرق، أخبيء وراءها جسداً تصدع، وروحاً تُهزم وأماناً فقدته بغتةً.

مضت ساعة ونصف الساعة وتبدل الدكتور، وما زال هناك نصف ساعة أخرى قبل انقضاء دوامي، والبكاء يتحرش بأطراف جفني، ويتراكم، يتراكم، وأنا أدفعه للخلف ويستعيد ارتفاع منسوبه للمقدمة. ماذا أفعل؟ ماذا يفعل شخص يجد نفسه مثقوباً ومشرعاً على ريح باردة، ووحيداً في أكثر لحظات وحدته شراسة؟ ماذا أفعل وأنا لا أستطيع تخبئة وجهي عن الفضول، وعيني عن الذلّ غير المقصود، والتفاتاتي عن الترقب؟ كيف أقول لستين بنتاً يشاركنني في القاعة: أنا بخير، إرفعن عني عيونكن؟ لست محط فُرجة، أو موكب غجر وسيرك مهرجين! ألا تفهمن أن لنظراتكن لزوجة سأنزلق فيها وتنكسر رقبة كبريائي؟ إن

لاهتمامكن المبالغ رائحة غير طيبة لا أحمدها؟ وإن لتحلقكن عليَّ شكل الشرانق الخانقة؟ إنني أعيشُ نوباتٍ تخرب روحي، وتعيث في جسدي وهناً وإعياءً، لكني لا أستطيع عبور شفقتكن ولا العيش تحت رحمة سقفها الواطيء؟

حسبتُ أن تداول الكلام وانتشاره سريعاً صفتان لا تمتلكهما سوى الأمكنة الريفية في مقاهي الضحى واجتماعات الأماسي. حسبتُ أيضاً أن كليّتنا مصغر مجتمع مدني، متحضر وفوق شبهة الثرثرة الفارغة وتسريب الحكايات. لا تبدو محاولتي لفلسفة الأشياء منطقية اليوم أو واقعية! خرجتُ من المحاضرة فوراً إلى صندوقي، وتذكرتُ أمر المقالة وسندس، فمررتُ أولاً بمدرج محاضرتها ولم أجدها، ثم بالبنات لأسألهن هل رآها أحدٌ أم لا؟ شعرتُ بشيء مريب، شيء ما يحدث لم تستطع لواقط استشعاري المفرطة الحساسية أن تعطيني قراءات صائبة وكانت النظرات المتبعة لي والأسئلة الغريبة عما إذا كنتُ بخير أكثر من معدلها، وكذلك العروض المتهافتة لحجز كرسي ليّ في الباص.

كنتُ أجيد تغليف وجهي بقناع حيادي ومبهم، بحيث لا يستطيع أحدٌ أن يستشف كنهه إلا بمشيئتي. في واحد من مشاهد فيلم The Man in the Iron Mask وبعدما نُزع القناع الحديدي عن وجه Leo، في الليل وحالما نام الجميع، استخرج قناعه وارتداه، كان قد ألِف رؤية العالم من خلاله، القناع هو مكانه الآمن ومنفاه، مثلما أضع أنا قناعاً هلامياً وأشرع في الانسحاب من بين الآخرين بلا تعابير محددة. إذاً، لم يكن وجهي مذياعاً صغيراً سرّب خبري إليهن. خمنتُ أن ثمّة من تكفلت

نقل الخبر، وشعرتُ برغبة هائلة في الضحك. مضحك أني لتسعة أعوام حافظتُ جيداً على سرّي حتى عن أقرب الصديقات إليّ، وأكثرهن التصاقاً بي، وأن نوبة واحدة جعلت جهدي يذهب هباءً منثوراً.

دوماً كان مرضي سرّاً، ولفترات طويلة كان مجرد الحديث عنه فعلاً شائناً يستوجب الزجر في منزلنا. كأن المرض ذنبٌ بلا مغفرة، عيب يجب إخفاؤه، فضيحة صغيرة بحقّ العائلة يجب ألاّ تخرج عن نطاق الأقربين. إنني أفهم المنطق الذي يقول إن المرض سمعة سيئة، لا يبادر أحدٌ إلى حملها في جيبه أو استجلابها لشجرته الطيبة الذكر، وأشكرُ السرّية التي منحتني حياة لم تكدرها شفقة أو شابها عطف، لكن أسئلتي تذبحني، ما الذي سيتغير الآن؟ ما الذي تغيّر بالفعل؟ ما الذي سيحدث؟ أنا خائفة، أسئلتي كثيرة، ولا إجابات سهلة.

قبل أن تقترب من أذني وتهمس «أحضنكِ؟» كنتُ قد عرفتها من وقع كعب حذائها على البلاط، لها تلك الطبيعة المميزة في تحديد خطواتها واحدة تلو أخرى، نقرة وثانية، ثُمّ تأكد لي ذلك من نفاذ عطرها إلى أنفي وهي تنحني عليّ. أمسكتُ يدها التي نزلت على كتفي، وأدرتُها ناحيتي، حالما واجهتني أبصرتُ سيماء القلق في وجهها بسبب شحوبي، والبكاء الفائض الذي تخبئه عيناي، والذي اخترتُ لضي وحدها أن تقرأ تفاصيله بكلّ وضوح.

جلست عند ركبتي مقرفصة، وأخذت تفرك كفي الباردة، ثم وضعت يدها على جبيني:

ـ ما بكِ؟

ـ لا شيء.

ـ متأكدة؟

ـ أكيد.

سألتها لتغيير مجرى الكلام، وإزاحة قلقها:

ـ أخبريني، كيف امتحانكِ؟

ـ جيد.. I guess.

ـ شكلك والله خبصتي!

ـ وأنتِ؟

ـ جيد جداً.

قلتها بابتسامة واسعة لتطمئن. حملتُ حقيبتي وأخذتُ ضي من يدها للخارج، بعدما مررتُ بماكينة بيع المشروبات الباردة، أدخلتُ ريالين وأخرجتْ لي علبتي بيبسي، ألصقت إحداهما بخدي لتخفيف حمرته وحرارته ووضعت الأخرى في حقيبة ضي، خرجنا، وجلسنا على واحدٍ من الكراسي الحجرية البيض، أمام الحائط الزجاجي الذي يكشف نصف الساحة الداخلية، سلمت إليها مقالتي وأعطيتها ورقة وقلماً لتعيد كتابتها. حدثتها عن فرصة الصباح التي أضعتها في بحثي عن سندس، قلتُ: «لا أدري أين تختفي هذه البنت حين أبحثُ عنها!» وقالتْ: «أكره سندس!». ألقت جملتها هذه بطريقة طفولية، ثم تطلعت إلى خطي وبدأتْ بالضحك، من حقها أن تضحك والمقال يبدو كخربشات طفلٍ إذ كتبته في الباص ظهر أمس، وكان القلم ينزلق على الورقة إثر كلّ ارتجاج. شهقتْ في تعجب تقريباً، وقالت: «يا قوة الله! واحد، إثنان...

آ.. سبع كلمات مشطوبة فقط!!». بدأتُ أُملي عليها وهي تكتب، في الوقت الذي أظلل على عينيها بيدي لتستطيع أن ترى كتابتها على الورقة، كانت بين حين وآخر تستوقفني لتبدي رأيها، أعرف ما الذي يمكن أن تقول: «لو كتبت كذا بدلاً من كذا، لو استطردتُ في هذه الفكرة، لو فتحت باباً على تلك»، أعرفُ ضي، وأعرفُ رغبتها في جعل كلّ شيء في هذا العالم مثاليّاً جداً، مثاليّاً في ظاهره، وإن كان مقالاً من ألف كلمة.

خفنا أن لا نجد كرسيين فارغين متجاورين، أكثر مما خفنا من مشقة الجلوس على عتبة الباب أو في وسط الممر. لم أكن أميّز هيئة سندس أو طريقة جلوسها عن بعد، ولذا اختصرتُ عليَّ الجهد وأخذتُ أناديها، رفعت يدها من آخر الباص: «هنا، هنا... تعالي»، أنبتها قليلاً لأنها دوختني في البحث عنها بلا نتيجة، وبررت الأمر بأنها قضت كلّ أوقاتها خارج المحاضرات في المكتبة، تبحث عن مصادر لبحث التخرّج سلّمت المقال إليها، قرأت بدايته ثم أدخلته باهتمام في حقيبتها وقالت: «يحتاج إلى تركيز»، في وضع آخر كنّا ثرثرنا قليلاً عن عقيل، وشددنا أذنه بقسوة نتيجة فرعنته علينا، لكن، في الباص، حيثُ يكون الهمس مسموعاً، نحن مضطرتان الى أن نضع حدوداً ونلبس تعقلاً مفتعلاً، من سيفهم هنا أيّ سبب يدفع بنتين للحديث بتفكه عن أخ إحداهما، من دون تجريم الأمر في محاكمات مغلقة أو تفسيره بطريقة مُعيبة!

دعتنا إلى الجلوس معها، لم يكن لائقاً بالطبع أن نرفض، قرصت ضي ذراعي قهراً، وأخذتُ بالضحك تنكيلاً بها. مضت قرابة الأربعين دقيقة

قبل أن تنزل سندس، تحدثنا عن بحوث تخرجنا ومتطلبات الدكاترة، وخيارات المواضيع المحدودة، وقلة المصادر والخوف الشبحي من يوم المناقشة. علّقت ضي على الأمر بسخريّة.

أنا إللي بآخاف من الأرنب، يطلع لي أسد!

من حُسن حظ ضي أن سندس كانت مدعوة إلى الغداء في بيت إحدى أخواتها، وإلا لكانت الفتاة الأخيرة التي تنزل من الباص. اندستْ فيّ، تركت رأسها على كتفي، وقالت بكآبة:

ـ أكرهكِ!

(١٢)

ـ ما الذي يحدث لي إذا خفت؟

ـ ببساطة، يكبر في دمي ألفُ أرنب مذعور، وأهرب.

إنني كمن سقط دفعة واحدة من سمائه السابعة على أرض من رخام فتفتت. منذ نوبتي الأخيرة وأنا أشعر برعب يوميّ قبل ذهابي إلى الكلية، أتلكأ نصف ساعة في الفراش، بعضي يتشبث بلحافي كي لا أقوم، وبعض يحرضني، يصفق يديه ويقول: تشجعي؛ وتبعاً لسطوة أحدهما على الآخر كنتُ أذهب أو أتغيب.

ولكي يصمت عقلي عن الصراخ، والثرثرة المعتلة كنتُ حالما أفتحُ عيني أشغل الفيديو. بدأت أُعدّ للأمر مسبقاً فأضع شريطاً قبل أن أنام، وأحرص على استقرار الريموت بجانبي. فارس الفتى الشجاع، عدنان ولينا، مولان، أنستازيا، Romeo and Juliet, Sleepers, Sweet November, Seven, American Beauty, Notting Hill, Fight Club, Meet Jo Black...

لم يكن مهماً ماذا أشاهد. المهم أن تتحرك صور وألوان فاقعة في العتمة، فلا أبقى وحيدة مع أفكاري. والمهم أيضاً أن تكون الوجوه مألوفة، والأصوات قريبة. أضعها عادةً عند مشهد بذاته، وأكرره، وأكرره، وأكرره حتّى لا أعود قادرة على الشعور بشيء حياله، يتلاشى معناه

تماماً، حينذاك أنتشي بحدة الانطفاء واللاشعور الذي يباغتني.

أخيراً، أنقذتني إجازة عيد الأضحى، أستطيع أن أعدّ على يدي أربعة عشر يوماً في نصف طمأنينة. أقول: نصف طمأنينة، لأن ترتيبات حفل عيد الغدير يجب أن تنجز خلال الإجازة، وهذا ما يستلزم بضعة اجتماعات في الحسينية، وحريّ بي حضورها.

في المطبوعات، ثمّة جملة معتادة: «الآراء الواردة في هذه المطبوعة لا تعبر إلا عن رأي كاتبها ولا تتحمّل المطبوعة مسؤوليتها»، هذا لا يحمي المطبوعة من محاسبتها قضائياً في حال تجاوزها القوانين، ولا يحميها من تجريم القرّاء لها والتشكيك في سياستها المقترحة، ولا يحميها أيضاً من المنع والمصادرة ووقفها عن الصدور. الأمر شبيه بوضع الحسينية، كانت هداية ملزمة على كلّ حال بأن لا تتجاوز أحداً خوفاً من أن يقاضيها الآخرون، مقاضاة دينية واجتماعية عنيفة، ربما لن تفضي إلى القتل ولا إلى إغلاق المكان، لكنها بطريقة ما تزيحه عن الخريطة. الأذى يأخذ أشكالاً متعددة حينذاك، أحدها أن تؤخذ نيتّك الطيبة مأخذ الريبة، ويزجّ بك في خلافات وصراعات لم تكن يوماً طرفاً من أطرافها. مؤذٍ أن تكون حبة قمح في رحى حرب خفية وقذرة على الغالب. هكذا، أبرر لهداية، مع أني لست بحاجة إلى فهم أسبابها أو الاقتناع بها، إنني فقط أفعل ذلك لأغلق باباً واسعاً في حياتي، وأنهي جملتي الطويلة بنقطة بيّنة.

وأنا أمشي نحو الحُسينيّة، اهتز جوالي في جيب بنطالي، هذه رسالة من عُمَر: «ما طاب خاطرك؟». لسببٍ غبي تشاجرنا قبل يومين، غبي

حتى أني لا أكاد أستطيع القول إنه سبب خلافنا، وانتهى بأن قلتُ له: «تسطفل، لجهنم!»، وقطعت اتصالي بالشبكة. قبل سنوات، كان قاطنو أحلامي جميعاً أناساً بلا رؤوس، أجساداً كاملة وأعناقاً فوقها مصابيح إضاءة، خضراء كالعادة. وكانوا يمشون ويتكلمون ويضحكون ويُبدون انفعالات عديدة، أشعر بها فقط من ذبذبة الضوء داخل المصباح اليوم، أشعر أني واحدٌ من قاطني أحلامي، رأسي مصباح مضيء جداً، بقوة ألف فولت، متوهج وساخن، تفكيري صافٍ جداً ومتشبع بالنور، مثل نهار صحو لا تتراكم السحب في سماواته ويتنفس شمساً شقية. القرار الذي بدا لي هلامياً قبل شهرين، ها أني اليوم أكرسه حقيقة قاطعة.

تحدثتْ هداية قليلاً عن بعض المُشاهَدات: الأطفال وهم يعبدون مشاهيرالكرة والغناء، وبنات الكلية اللاتي يتزيّن بكامل زينتهن أيام حدادنا المعروفة، والأولاد الطائشون الذين يحولون الاحتفالات في مناسباتنا الدينيّة إلى فرصة سانحة لإبراز مهاراتهم في القيادة وتمشيط الشوارع باحتكاك العجلات بالإسفلت. وخلصت إلى اقتراح يصلح لأن يكون موضوع برنامج الحفل: «الهوية الشيعيّة»، ثم سألتْ هل لدى أحد منا اقتراحات بديلة، وكنا معتادات توليتها هذه المهمة.

توليتُ منذ قرابة العام كتابة العرض التمثيلي، الذي يُقام عادة في مثل هذه الاحتفالات. وكنتُ هيأت مسبقاً أفكاراً مختزلة، لآخذ موافقة هداية المبدئية على إحداها ثم أشرع في كتابتها. في الحقيقة لم تكن أفكاراً من ابتكار المخيلة، كانت مجرد سرقة مقننة لواقع معيوش، دوري أن أعرضها بطريقة جيدة وأنتهي من خلال عرضها لفكرة معينة أريدها أن

تصل، وقلما وجدت هداية في عرضي مجتزءاً ما يمكن رفضه، لكن، بالنسبة لأفكاري، كان الأمر شائكاً على الدوام.

وفي واقع الأمر لم تكن هذه الكتابة كتابة مطلقاً. كانت نوعاً من تطويع قدراتك الكتابيّة لشكل كتابي بسيط وعسير في الحين نفسه، أسمّيه أنا «كتابة شعبية»، كتابة يفهمها الجميع. الأهم إخضاع عقلك لنوع محدد من الأفكار. إنها كتابة مدفوعة الأجر، ولو أنه أجرٌ متأخّر وغير متيقن من استحقاقك له، الأجر السماوي الذي لا تدري ما إذا كنت أنجزت خيراً لتُعطاه، والهالة الاجتماعية الخفيفة، والتي تسقط عنك عندما تتداخل كتاباتك مع المحرمات. كيف يقول ذلك المثقفون وذوو المصطلحات؟ ideology؟ كتابة أيديولوجية؟ ربما!

سار الأمر وفق توقعاتي، رفضتْ هداية فكرتين من أصل ثلاث بحجة أنهما تتضمّنان خطوطاً حمراً كثيرة. إننا كمن يمشي في حقل ألغام، ومن الأفضل ألا نَعلَق مع أحد أو مع جهة ما، الثالثة قبلت تناول الحدث الذي تدور حوله وتحفظت عن الخلاصة التي خرجت بها وطريقة تناولي إياه. كانت فكرتي عن حدث جرى في إحدى مدارس المرحلة المتوسطة، حيث كانت مُدرِّسة الدين تخبر الطالبات أنهن بنات زنى، وأن أمهاتهن يشتغلن مومسات في كل يوم عاشر من مُحرم. والحال أن بضعة أشهر مضت قبل أن يتحرك أحد ويرفع الأمر إلى رئاسة المدرسة، وقد قابلت المديرة شكواه بوعود زائفة. ونُقلت المُدرِّسة تلك تأديباً إلى مدرسة أخرى. إلى هنا لم تجد هداية في الموضوع ما يقلق، إلى أن تحوّلت أسئلتي إلى: ما الذي يجعلنا خانعين إلى هذا الحدّ؟ وكيف نسكتُ على

تلويث أفكار بناتنا من دون أن يتحرك أحد؟ وماذا عن كبار البلد ووجهائها دينياً واجتماعياً؟ لمَ لمْ يكن لأيّ منهم دور فاعل منذ بدء المشكلة؟ عند هذا الحدّ كانت هداية قد أخطرتني بوجوب أن نكون حذرات وعقلانيّات لأن أموراً كهذه لا يتم معالجتها بتهور وإلقاء اللوم فيها جزافاً. ابتسمتُ لها بصفاقة وقلتُ: «تستطيعين العمل عليها، أو مناقشتها مع البقية حتّى نصل إلى صورة كاملة إذا أعجبتكِ بالطبع، أو أيّ فكرة أخرى، ليست بمشكلة»، في حين كانت تفيض على وجهها علامات عدم التصديق، إزاء جملتي الأخيرة.

برغم فرديتي وتشبثي شبه المرضيّ بها، لا أنكر الطبيعة المبهرة التي يأخذها العمل الجماعي. في أقل من ساعة، كانت الفكرة قد نضجت، وأخذت صورتها الأكثر جلاءً وكُتب معظم نصها، بقيت اللمسات الأخيرة التي تُنفّذ آن تمثيلها؛ كانت كلّ واحدة تأخذ دوراً معيناً ونتناقش ونحتد ونهدأ ونتمسك بمواقف متباينة، لنخرج في الختام بمشهد تمثيلي مقنع، يثير فوضى الأسئلة ويبعثر بعض الاقتناعات، هكذا آمله على الأقل. بقيتُ ساكنة تماماً، أشاهد من دون تفاعل، وأنظر إلى مدى التشويه الذي يصيب فكرتي ويمسخها، وأبتسم بهوادة. فُضّ التجمع وتشكلت تكتلات من اثنتين أو ثلاث وتأهبّت لأغادر.

ـ أمسكتْ بذراعي سندس، وأخذتني جانباً:

ـ ما بك، عزيزتي؟

ـ لا شيء.

ـ متعبة؟ محمومة؟ موعد دورتك الشهريّة؟

ـ أبداً، لمَ؟

ـ الأخوات يقلن إنك لست على طبيعتك.

ـ ضحكتُ بتهكم.

ـ ما الذي يضحكك؟

ـ سندس، لا تتحدثي هكذا.

ـ هكذا؟

ـ عزيزتي! الأخوات!

كانت هذه أكثر المفردات شيوعاً بيننا، لغة مشتركة، لا أدري في أيّ اجتماع سرّي تم الاتفاق عليها، وكنتُ أكرهها، ليس فقط بسبب محاولتها إلغاء خصوصيتنا الفرديّة، والطابع اللغوي الذي تتحدث به كل منا، إنما أيضاً بسبب ترفعها وفوقيتها، كأنها لغة سماويّة لا يقربها إلا المطهرون.

ـ لا تغيّري الموضوع.

ـ وعمّا قريب ستقولين «نحن» بدلاً من «أنا»!

وهي تصرّ على أسنانها:

ـ سألتك ما بك؟

ـ ما بي!

ـ تهادنين على غير عادتك.

قلتُ مع ابتسامة مستخفِة:

ـ أنا أستسلم.

ـ ماذا تعنين؟

ـ سأبقى حتّى موسم محرم، ثم أتركِ.

طالعتني بانفعال حارق، أعقبته بقليل من الشكّ، كمثل التعبير الذي يأخذه وجه شخص لم يفهم أو لم يسمع، تلاه زمّ شفتيها وهي تهزّ رأسها كأنها تقول: «ليس أنتِ! لا تفعلينها!»، ثم أغمضت عينيها وتنفست، كتمت نَفَسها للحظات ثم زفرته، فتحت عينيها ثانية وابتسمت لي، يا الله كم أحبّ ابتسامتها. درفتا باب الجنة تنفتحان على مهل، وتضيئان وجهي.

ـ لا بد أنكِ غاضبة، تهدئين وتغيّرين كلامك.

ـ هل ترين على وجهي شيئاً من الغضب؟

ـ لن تخذليني! أعرفكِ.

«سأخذلك هذه المرّة» هو الردّ الوحيد الذي أملكه، والردّ الوحيد الذي لا تريد سماعه، فشغلت نفسي عن التعليق بارتداء جواربي.

ـ انتظريني، سأخرج معكِ.

بقيتُ وإياها معظم مسافة الطريق صامتتين، إلاّ من تعليقات قليلة عن الجو، ولافتات المحال، وزهرة «رازقي» التي رأيناها تُخرج رأسها من فوق سور أحد البيوت. مع اقتراب هبوط العتمة والتفاف الضوء على نفسه. كلّ ما حولنا صامتٌ، باستثناء أسراب من العصافير تنزل إلى أعشاشها وتصلي. في الحقيقة، كلّ شيء يصلي.

صرنا قرب المنعطف الذي عليّ أن أتجه نحوه في حين تسلك هي الطريق نفسه، أمسكتُ بكفها وقلت:

ـ لا تتكدري مني، سندس.

ـ اعقلي، ولن تكدريني.

ـ لا تخبري أحداً طيّب؟

ـ طيّب.

ـ أراكِ بخير.

ـ وأنتِ بالخير كلّه.

وما إن أغلقتُ باب غرفتي، حتى كان جوالي يرن واسم ضي يتوهج في شاشته:

ـ سأهاتفكِ على رقم منزلكم، ردّي عليّ.

ـ ok.

أغلقتُ هذا ورفعتُ ذاك.

ـ لا ترتدي قميصكِ اليوم ثانية.

ما زالت اللمبة الخضراء مضيئة في رأسي، لذا لم أندفع في مشاجرة أخرى معها بسبب الموضوع نفسه، قمصاني وضوابطها: هذا يشفّ، هذا يكشف ظهري إذا انحنيت، هذا يبين استدارة خصري، هذا ينزل سنتمتراً عن منابت صدري... هذا، هذا، هذا. وعدتها أن أذهب معها إلى السوق وتختار هي قمصاني وفق شروطها، ولا بد من أننا سنعود من دون أن نشتري قميصاً واحداً، إلا إذا كنّا علّمناه بأن أرتديه لها حصراً.

مررتُ جملتها تلك بخضوع، مع أني لم أجد في قميصي هذا أيّ مشكلة، إذ لا يمكن أن أذهب إلى الحسينية بقميص يفتح عليّ علامات استفهام وتعجب! الموضوع التالي وقوفي منفردة مع سندس، ما سببه؟ صرتُ أعرف خرائط ضي، وأمشي فيها من دون أن أضيع في متاهاتها.

فشرحتُ لها الأمر باقتضاب، علّقت ببساطة:

ـ إذا كان ترك الحسينيّة يريحك أكثر مع نفسكِ لا تبقي ثانية واحدة بعد، اسمعي مني.

ـ ثم سألتْ:

ـ ما رأيكِ في الخروج معي؟

ـ ...

ـ yes.

ـ أين؟

ـ مدعوة إلى مزرعة الخميس بعد العيد مباشرة.

ـ أنتِ المدعوة لا أنا.

ـ لا، كلّ منا ستأتي مع صاحبتها.

ـ آها!

من تلوّن صوتها وهي تقول: «صاحبتها»، فهمتُ نوع الموعد الذي ستأخذني إليه، أغرتني لذّة التجربة وصخب المغامرة، كنتُ كمن يفرك يديه ويتلمظ.

ـ حسناً، موافقة، عليّ فقط أن آخذ إذن ماما.

أخبرتني ببقية المعلومات عن صاحب المزرعة ومكانها، ألحت أن أتدبرّ إقناع أمي بأيّ طريقة، طمأنتها أن لا داعي للقلق. بعد أكثر من ساعة ثرثرة، تذمرتْ مني لأني عطلّتها عن الصلاة، وأنهينا المكالمة على صوت قبلة.

منذ بدء الامتحانات، وأنا أؤخر الردّ على رسائلي، قليل من الكسل وكثير من الانشغال. ولأني رائقة اليوم، عزمت أن ألتزم الردّ عليها

جميعاً ولو سهرت إلى الفجر. ولو أمكنني أن أنسخ بعض ردودي بجعلها في قوالب مختلفة للردّ على رسائل الشكر أو الموافقة والتشجيع، لاحتجت إلى أكثر من ذلك في رسائل الاعتراض أو التوبيخ أو تلك التي أضعها بين قوسين (عذراً، ولكن. لم أفهمك)، هذه كانت الأسوأ في نظري، فليس سهلاً أن تضطر لإعادة شرح نفسك، أن تعود خطوة للخلف وترسم خطوتك من جديد بوضوح، وتحت ضوء أشد كثافة. أحياناً، يكون عدم الوضوح هو خيارك لتفلت من سلطة أو رقابة، فكيف تشرح ما لم ترد شرحه بدءاً، وكيف تقول: «أنا أغمز لك لتفهم إشارتي الخفية!».

إشارة البدء في مسلسل X-files تقول: "The Ttruth is out there".

وأنا لم يسبق أن كنتُ هناك، في الخارج، لأعرف الحقيقة التي يتحدثون عنها، كنتُ دائماً هنا، في الداخل، مستقرة وآمنة، لا يمكنك أن تعرف الحقيقة من الكُتب ولا من برامج التلفاز ولا من النشرات الدوريّة، ولا أن تتلقاها من الذين يكبرونك عمراً، ويعتقدون أن هدفهم حمايتك منها. لذا لم يسبق أن أخافتني الحقيقة أو هزّتني، إذ لم يسبق أن تعرفتُ عليها. وكان النت أول وطء لي على أرض الحقيقة، النت لم يكن يوماً هو الخارج، ولم يكن هو الحقيقة، لكنه البقعة الوحيدة التي أتاحت لي أن أرى أكثر من صورة، وأكثر من جانب، للاطلاع على ما هو حقيقة. وكبرتُ كثيراً منذ دخلت النت، ونضجت، وتغيرت، ولم أعد على يقين، فقدتُ إيماني لولا خيط واهٍ يكاد ينقطع بين تأرجح وآخر.

دخلتُ النت، كانت صفحة البدء عندي هي منتدانا، منذ احتللته أنا وعقيل وسندس ونحنُ نسميه هكذا، ملحقين اسمه ب«نا»، وناسبينه إلى

أنفسنا كأنه ملكٌ شخصي، بوضع اليد أو بالوراثة. دخلتُ وأضفتُ إعلاناً عن بعض الاحتفالات التي ستقيمها حسينيات البلد في عيد الغدير، بمواعيدها وأماكنها، بانتظار أن يأتي أحد القائمين على بعضها ليضيف المزيد من التفاصيل إلى برنامج الحفل الخاص بكل منها، وثبّتّ الإعلان. كان هذا عملاً روتينياً أؤديه في كلّ مناسبة. لما قمتُ به أول مرّة تجمدتُ نصف ساعة قبالة صفحة «إضافة رد» لينزل عليّ وحي أو يواتيني إلهام كاف للكتابة، بدا ذلك عملاً استثنائياً لا أعرف كيف أنجزه. لاحقاً خفتت حدّة الرهبة الأولى وبدت صيغ الإعلان تأخذ طابعاً متشابهاً، رغم اجتهادي ألا تكون كذلك.

ومع عودتي إلى صفحة المنتدى الرئيسية، قفز في وجهي المربّع الحواري الصغير (لديك ١ رسالة جديدة) ضغطت (موافق)، وكانت رسالة من عقيل: «إطلعي لي مسن»، وفعلتُ.

كنتُ أغيّر اسمي في نافذة عقيل مرة كلّ بضع جُمل. بدأت بنونو وانتهيتُ بـ π، وبينهما Requiem for a Dream و(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) و: / و No Doubt و Ma7da وأكرهكم جميعاً لا أستثني منكم أحداً ويباب و darkblue وحياة مجانيّة وتي زد وأصابع مفقودة وأعزل إلا من عزلتي؛ في حين لم يتحول عقيل عن اسمه المُعتاد في غالبية أيام السنة، لولا استثناءات المناسبات الدينية: 3aGel. كنتُ أغيّرها لفرط التوتر وأنا أزمع الحديث عن قراري حتّى أمضي فيه ولا أتراجع، إذ عشتُ هذه الحياة سنوات عدّة ولا أدري كيف سأستبدلها بأخرى، لا أدري أصلاً إن كان ثمّة حياة أخرى. ما كففتُ عن التنقل بين الأسماء إلا حين نبهّني عقيل

بسخريته الطفيفة إلى أني على هذه المقربة من الجنون أو أن حصتي من الأسماء ستنفذ كلها.

شرحتُ له الأمر: «شيء ما يتسرب مني! إنني أفقد الإيمان بجدوى ما أقوم به، بتأثيره، بالحصيلة النهائية التي أخرج بها. صحيح أننا كلّنا مررنا بمثل هذه الفترات. شخصياً عشتها عشرين مرّة من قبل. لكن شيئاً قد تغيّر! قل إنني لم أعد البنت نفسها. أشعر أني أبذر في الأرض الخطأ، أربعة أعوام ولا نتيجة، بل أكاد أقول: الوضع أسوأ.

أنا مثلاً لا أستطيع كتابة أيّ شيء في المنتدى مغاير لما يجب عليّ أن أكتبه، ولماذا؟ لأني محاصرة بالصورة التي عليّ المحافظة عليها، والمكان الذي أمثله، وأنا لا أريد أن أمثل أحداً سوى نفسي، ولا أن أغض النظر عن مواطن الاختلاف لمجرد أني سأقع في ماء آسن وقد أتلوّث. ثُمّ لي الحقّ بأن يكون لي صوتي المنفرد، وبقائي في الحسينية يمنعني حتّى من فرصة إبداء رأيي. أكره أن أكون محسوبة على جهة ما، وأن تُجير تصرفاتي تبعاً لها! إذاً، فإني سأسيء للحسينية بما أعتقده شأناً شخصياً بحتاً!

وليس بإمكاني نشر نصوصي هنا، سيقال إني خليعة، وأكتب نصوصاً عارية أدعو فيها ضمنياً إلى ما لا يليق، وبلا... أنا ببساطة لا أريد أن أؤطر كتاباتي في الكتابة الولائية. الحبّ شيء، وحصر الكتابة في هذا الإطار شيء آخر. لكن كوني عاملة في هذا المجال، يحدّني بالفكرة المسبقة حول كتاباتي، ولذا أحاكم وتحاكم كتاباتي على أنها ضرب من العبث والسخف، إن لم أقل: المجون. ولا أريد الكتابة في أمكنة أخرى،

هذا مكاني. البقعة الصغيرة من العالم حيثُ لي وطن، فلم أُصادَر منها من دون وجه حقّ. وإذا كنتُ سأصادر في عالم افتراضي محض فما بالك على الأرض.

ثمّ إن بقائي وعدمه سيّان. غالبية الأفكار التي قدمتها لهداية طوال هذه السنة إمّا رُفضت رفضاً تاماً، أو شُوّهت، وإمّا نزلت أنا تحت السقف الواطىء المتاح لي وأعدت كتابتها بطريقة ملغمة. الأمر متعب حقّاً! أسوأ ما يمكنني أن أحدثه في عملنا هذا هو أن أفقد حظوتي، وأنا بالفعل أشعر أني استنفدت كثيراً من فرصي بهذا الشأن. إنني على حافة أن أصير وقحة وفظة، لا أقول إن هداية سيئة معي، بالعكس تماماً، إنها امرأة في منتهى الاحترام، لكن السيئ أن أعرف أن ذلك كلّه بلا نتيجة: خروجي الآن قبل تعقيد الأمور في لحظة طائشة أفضل، إذ يتيح لي خط رجعة متأخرة.

فقدتُ قدرتي على رصد الأشياء وتصنيفها في قوائم رفض وأخرى قبول، أو صح وخطأ. لعشرين عاماً كان عقلي مثل أحفورة، حجر أصم، نُقش عليه ما لم أختبره، وما لم أتبينه، وما لم أمسّه. ألا ندرس في مراتب اليقين: عين اليقين، وقلب اليقين، ونور اليقين؟ كيف إذاً أؤمن بحقيقةٍ لم أفتح عيني عليها منذ الأصل وأراها؟ إنني كمن تلقى صفعة قوية غير متوقعة ولم أتأهب لها، ودوّت في أذني طويلاً، جعلتني أعيد النظر في كلّ ما حولي، وأحتاج إلى وقت كثير لأتفحصه، وأقترب منه، وأتلمسه، ثم لأتخذ موقفاً منه. صفعة هائلة من السيد النت: «غيّرتني، كنتُ في قمقم وأخرجني النت إلى عالم باهر الضوء فخدش سطح عيني. ومن

الصعوبة أن أرى الآن قبل أن أعتاد شدّة سطوعه!».

عرض عليّ التطوع في الجمعية الخيرية حيث يعمل متطوعاً، والانضمام إلى اللجنة الثقافية النسائية فيها. قال لي إن العمل في الجمعية يعني الالتزام بجدول ساعات محددة أسبوعياً، وليس متأرجحاً مثل دوام الحسينية، وإنهم في الجمعية لا يعملون حسب مرجعياتهم الدينية أو آرائهم أو أسماء عوائلهم أو جهة قرابتهم كما هي حالي الآن. لكننا لم نتفق إطلاقاً إذا جئنا على ذكر الجمعية، كنتُ ما أزال على ريبتي القديمة من تاريخ السرقات المتكرر فيها، برغم أن مديري الجمعية القدامى قد أزيلوا جميعاً من فوق كراسيهم، وأُبدلوا بطاقم عاملين مختلف بغية البدء من جديد بسجل نظيف. ريبتي ليس فقط من السرقات التي كانت وإنما من دخول عامل المال في العملية التطوعيّة للجمعية وفي كلّ مشاريعها. من هنا تتفوق الحسينية في كونها بلا مداخيل من أموال خلق الله، وهي نتيجة ذلك بلا تبعات مالية. الأموال الوحيدة التي تدخل في حساب الحسينية كانت هبات تُقدم طوعاً وبدون اتفاق مسبق أو تحديد إذا ما استأجرها أحد لحفل زواج أو عزاء، وأحياناً كانت تُقدم على شكل خدمات معينة: إصلاح المكيّفات، تغيير الفرش، تجديد أواني مطبخ الحسينية... وكان عقيل يتحسس عند ذكري هذه النقطة، تحديداً وهو ينوي العمل في اللجنة المالية حالما ينهي دراسته في تخصص «إدارة مالية» نهاية هذا العام. بعد ثرثرة مطولة، كنتُ قد وعدته خيراً، ثم استأذنته بالخروج.

كنتُ أسارع في الزج بحججي واحدة تلو أخرى، كما لو أنني في

معركة كلاميّة أريد الخروج منها بعدد أكبر من النقاط وبفوز أكيد، برغم أن عقيل بالكاد هو عقيل الذي أعرف. عقيل الذي أعرف يترك لي ربح الجولات جميعها، من أجل جولة أخيرة لا يخسرها، وعقيل الذي أعرف، حالما أرفع له رايتي البيضاء، يضحك بنصف خيلاء ويقول:

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

شيء في عقيل قد تغيّر، منذ الضربة الأخيرة التي تلقّاها. ما عاد ينظر إلى الأشياء على قاعدة الجنة والجحيم، القبول والرفض، القاع والقمة. كان يملك قبضة من حجر وعيناً إبليسية، فلا تمرّ الأشياء به بيسر وسهولة، وكان إذا شاء يدير أعناقاً بما تحمله في رؤوسها من أفكار ونظريات ومعارف عن الحقيقة والباطل. لا يكبرني بغير عامين ومع ذلك من دون تقصد أستذة منه، كنتُ أنا أتشرّبه على مهل وأحذو حذوه خطوة خطوة، ربما لأن عجينتي الأولى كانت متخمرة بذرور الرفض والتضاد والمساءلة، كان يقول لي: «وماذا إذا أخطأنا، أيّ صواب سنعرفه من دون خطأ!». وبقدر ما حنقت على غروره وتسلطه، كنتُ بطريقة ما أُجلّه وأحترم رؤيته الخاصة. كان! لكن منذ تلقى الركلة في خاصرته وهو صامتٌ، كأنه أغلق على نفسه بعيداً وأبقى وجهاً منقوعاً في الكبرياء على عتبة بابه، كبرياء تم تلطيخها على نحو لا يليق بشاهقٍ مثله.

كنتُ مثل الجميع أقول إنها مجرد ضربة وتُنسى. لا يعني شيئاً أن تتم مهاجمة الصفحة الإلكترونية للمجلة، ونشر أشياء معيبة من خلالها. تلقينا كلنا بغضب الإساءة إلينا ومحاولة تشويه أسمائنا وتلويث سمعة المجلة، وارتفعت أصواتنا وقلنا نكاية في من فعل سنواصل العمل. وكان

من الصعب معرفة هل كانت المراهنة على سمعة المجلة الطيبة بالقائمين عليها ستصمد إزاء قذارة كهذه، أم سنخسر في مقابل نشوة تناقل الفضيحة واتساعها. سهل جداً أن نُسقَط لأن ثمّة رهاناً على متعة تعريتنا، أو ما ظُنّ أنه تعرية ونشر غسيل وسخ، وسرقة صناديق بريد، وانتهاك خصوصيات. المتعة الوحشية في رجم خطايانا وصلبها على الأعمدة. لكننا صمدنا وتابعنا وأنجزنا العدد خمسين من المجلة وباركناه بأكبر معدل بيع. كانت الفضيحة رغم دناءتها لمصلحتنا في هذا الشأن. أليس مضحكاً أن نبدو لقمة سائغة؟ كنا هذه المرّة لا نُقرأ احتفاءً بإنجازنا خمسين عدداً، ولا لجودة العمل الذي قمنا به، كنا نُقرأ لأن ثمة سؤالاً يصعب ابتلاعه: من هم هؤلاء الذين شهدنا جميعاً فضيحتهم.

بالطبع، فإن المجلة لم تتجاوز كلياً ما حدث. من الصعب تنظيف القذارة التي تم تفخيخ المجلة بها. السيئات تُذكر في حين يُنسى العمل الطيب، والناس تريد أن تصدق الأقاويل وبعضهم يشكك لأنه لا يحسن الظن، وآخرون لأن مصالحهم تحتم عليهم أن لا يكونوا عادلين معنا، وآخرون لأن عداواتهم لا تعرف ماذا يعني أن تكون العداوة مُشرِّفة. خسرت المجلة بعض كتّابها، وخسرت كثيراً من قرائها المداومين، وخسرت سيرتها البيضاء. وكنا جميعاً، أكاد أقول جميعاً بلا ريب، خسرنا الشيء الكثير من رؤيتنا القزحيّة للأشياء من حولنا، للأمكنة، لعملنا، لم نعد نملك الحسّ الطفولي وبراءتنا الأولى، كما خسرنا ثقتنا بصناديق بريدنا الإلكتروني وأصدقائنا الافتراضيين وعالمنا الهلامي.

خسرنا جميعاً، في حرب مع شبح لا نعرف ملامح له أو وجهاً، وحده

عقيل كان يرى وجه أقرب أصدقائه في كلّ لطخة قذارة، وكلّ قول وقح، وكلّ كذبة، وكلّ عبث أرعن. لم أفهم كيف يمكن خلاف رأي أن يدخل في طور المساومة الرخيصة، ثم يتحول عملاً شائناً، وكيف تصبح صداقة الأمس عداوة اليوم وغداً، عداوة ليس مهماً كم ضلع تكسر وعلى كم جسد تدوس ما دامت ستبلغ مقصدها في الختام: تحطيم عقيل.

ربما إيماناً منه بأن مثله لا ينزل لحضيض كهذا، أو حفظاً لخصوصية كان الآخر قد تنازل عنها كلياً، أو احتراماً لصداقة أصيبت بسكتة في منتصف يفاعتها، أو شعوراً بجرحٍ غائر يصعب كشف قيحه وصديده. أو لهذه الأسباب جميعها كان عقيل يرفض دوماً الخوض في ما حدث أو التعريض بأحد أو مدّ أصابع الاتهام نحو شخص بعينه، ومن كلامه القليل فهمتُ أن ما حدث محض لعبة على نسق: «العبوني، أو أخربها»!

كأن قلبه قد شاخ فجأة، وشُدّت الكثير من الحبال على معصميه، إتخذ عقيل درع حماية من صمت، وانحسر وهجه واندفاعاته،حتى أنني أميزها بصعوبة، وبصعوبة أستطيع أن أضع خطاً تحتها، وأشير إليها، لكني على الدوام أشعر بها. شيء في عقيل قد ذوى، ولأني لم يسبق أن عبث أحدٌ بسمعتي بالصورة السافرة التي تمت معه، بالخسة تلك، قد لا أفهم مطلقاً ما الذي تغيّر في عقيل.

وحين أقول: مجلة، فإني لا أعني غير ما يصفه عقيل بكونه hand made، صناعة منزلية وشغلاً يدوياً، تُجمع وتحرر وتطبع وتغلّف وتوزع وتباع بجهود فرديّة بحتة. بالطبع استصدار ترخيص للمجلة أمرٌ غير وارد إطلاقاً، ولم تكن من الأصل عملاً محترفاً بقدر ما كانت محاولات

شخصيّة واجتهادات في إطار التجريب سواء أصابت أهدافها أو أخطأتها. كانت بالمجمل عملاً يضع في مقاييسه أن يكون مفيداً وغير مكلف، تثقيفياً برغم بساطته، ومادة خاماً للقراءة، جادة الطرح في ظلّ نقص فنية عرضها على مستوى الرؤية، النقص الناشيء من كونها غير مدعومة مادياً مطلقاً، بل إنها في بعض الحالات تصل لحدّ المجانية، علماً ان سعر بيعها لا يعادل كلفة طباعتها.

تساهل عقيل معي، قابله حنق سندس عليّ. أفهم أسبابها، أو أدّعي ذلك، إنني كمن صحبها لمحفل ثم تركها وحيدة وخرج. فبرغم تمضيتنا ذلك الوقت كله، كانت سندس تنتمي إليّ أكثر منها إليه.

لم أستطع رفع ثقل عتبها عني، حتّى بعد ساعة من الأخذ والردّ. تركتها أخيراً مع عرضٍ لم أجد لي بدّاً منه: سأبقى لأجلك إن كان ذلك يرضيكِ، لأجلكِ فقط». بالطبع لم أكن جادة، كنتُ أتنصل من مسؤوليتي تجاهها بترك دفّة الأمر في يدها، الخيار بات خيارها، ولأني أعرف سندس، أعرفها جيداً، فقد كانت متيقنة من أنها سترفض، سترفض كلياً، وسأكسب إن جعلتها تشعر بأني اسعى إلى نيل رضاها، بل فوق ذاك تمكينها من التحكم بخياراتي. كانت مناورة لئيمة جداً من جانبي وقد نجحتْ نجاحاً فائقاً.

(١٣)

استيقظتُ على صوت الجوال، وبسبب نومي المتأخّر والرنين المُفزع لطيور أحلامي، لم أستطع تمييز مصدر الصوت. رفعت لحافي، وفتشت سطح الكومدينة وأدراجها، وأنرتُ ضوء الأبجورة. أخيراً، عثرت على جوالي تحت السرير.

ـ دقيقتان وأكون عندك.. افتحي لي الباب.

ـ طيّب.

سحبتُ معي لحافي، ونزلتُ. كانت المرّة الأولى التي تراني فيها ضي بوضع النوم هذا، بثوب نوم قصير وشعر غير ممشط وفم مزموم. وضعتْ قبلة على خدي حالما فتحتُ لها، قبلة كبيرة حتى أني شعرتُ برطوبتها على طراوة خدي، ودفئها على بردي، قبلة من ذلك النوع الذي يقول: يا الله كم أحبّك! من ضي التي لم تقلها يوماً.

أخذتها من يدها ودخلنا المطبخ وسألتها هل تشرب شيئاً. في الحقيقة لم أكن بحاجة إلى هذا السؤال، أعرف أنها تشرب عصير المانغا في المشروبات «السئعة» كما تسميها والكابتشينو في الدافئة. ولذا قبل أن تجيب أشرتُ على رفٍّ علوي من دولاب مطبخنا لا أطاله، وبرغم أنها لا تفوقني طولاً بغير سنتمترين، كانت قد مدّت قامتها أمامي وأنزلت

العلبة. علّمتني حيلة تسخين الماء وبودرة الكابتشينو في المايكروويف للحصول على المزيد من الرغوة الكثيفة، مثلما علّمتني من قبل حيلة وضع البطاريات في الفريزر لإطالة مدة استخدامها، والضرب على أغطية البرطمانات لتسهيل فتحها.

يداً بيد أيضاً صعدنا إلى الغرفة، وأنا أضع سبابتي على شفتي: «أش» إثر كلّ ضحكة شقية تبعثها أحاديث ضي في سكون المكان. تركتها ودخلتُ الحمام، أمهلتني دقيقتين ثم جاءت إلى باب الحمام وأخذت تثرثر. كانت مثل طفلٍ مشاغب لا يبتعد عن أمه لحظة، وكنتُ غير معتادة ثرثرة الحمام هذه. بإلحاح تسألني عما أفعله كلّما سمعتْ صوت تحركي وصدى البلاطات، وكنتُ لا أعرف بما أجيبها، ما الذي يفعله أيّ واحدٍ في الحمام! فتحتُ لها وأخذتُ أنظف أسناني بالفرشاة، فأسندت ظهرها إلى طرف الباب. سألتني بطريقة مباشرة وهي تنظر إلى روب الحمام الذي حملته معي:

ـ ستستحمين الآن؟

أجبتها، وقد فهمتُ ما ترمي إليه:

ـ لا، لاحقاً.

اقتربتْ، فأشرتُ لها أن آخر شيء أطيقه الآن هو أن تقبّلني وفمي مدعوك برائحة النعناع المُصطنعة هذه في معاجين الأسنان. ردّتْ عليّ بأنها تحبّ تقبيلي وإن كنتُ عفنة.

اقتربت أكثر، أحاطت خصري بذراعيها، وأخذت تحدق في انعكاسي على المرآة، مثلما أفعل أنا وأحدق في انعكاسها. نظرتها المتراوحة بتناقض

سافر بين شفافية العسل وغموض الأسود تترك لدي حيرة مضاعفة، فلا أتمكن من سبر ما وراء لؤلؤ عينيها. كانت تحدق كما لو أن انعكاسي واحدٌ آخر، لا ينتمي إليّ، لا يشبهني، بل لم يسبق أن رأته قط. كما لو أنه كائن موجود في المرآة ولا يستطيع الخروج منها، محبوس بانتظار اللحظة التي أطلّ عليه فيخرج من عتمته.

ـ بكِ شيء متغير اليوم؟

ـ ولم تعرفيه بعد؟

كنتُ قد قصصتُ شعري البارحة من دون إخبارها، وبصيغة أوضح، من دون أخذ الإذن منها. لذا أتوقع أن يكون في انتظاري عقاب قاس، أو مشاجرة لا أعرف لها خاتمة. اخترتُ التوقيت عمداً، إذ كان الموعد الذي ستأخذني فيه إلى المزرعة وتعرفني بصاحباتها، بالطبع لن تغامر بأن يكون مظهرنا غير لائق أمام الجميع، وإحدانا ناقمة على الأخرى. لن تغامر بفوات فرصتها في الزهو بي: هذه «صاحبتي».

في المرآة، رأيت العينين اللتين اتسعتا لفرط الذهول. ربما كانت تراهن على عدم جسارتي أني لن أتجاوز قيد ملكيتها، ومن ثم لن أتصرف بجسدي باستقلالية كهذه من دون الرجوع إليها؛ وها هي ترى أن رهانها خسر.

طوقت عنقي بيدها، وكل منا تحدق في انعكاس الصورة على وجه المرآة، حرّكتْ يدها بتمهل، أكاد أشكّ في أنها تحركها لشدة تمهلها، ضغطت قليلاً وصار نبضي محسوساً تحت يدها، فأغمضتُ عيني وتنفستُ ببطء لم أشأ معه أن تتحسس ضيقي. شعرتُ بأنها تحاول معرفة

أيّ مكان في العنق يحلو للخنق، وبطريقة شرسة كانت لذتها تضاهي الذروة كلّما وصلتْ إلى أعلى. بقيتْ مطولاً، ويدها تغطي كلّ عنقي، وجانبا فكي يتماسان مع إبهامها وسبابتها، ثم بحركة مفاجئة شدّت الشعر القصير الذي يغطي عنقي ووضعت عليّ شفتيها، لثماتها القليلة الهادئة تسارعت خلال لحظة فأضحت قبلات شرهة. نهم جبار هو الذي يحركها، مدفوعاً بالغضب، وبرغبة الانتقام، فحاولتُ إزاحتها عني:

ـ لا، ستتركين أثراً عليّ!

ـ ولا تريدين أن أفعل؟

ـ توقفي ضي، هذا موجع!

ـ ومن قال إني لا أريد أن أوجعكِ؟

أفلتُ، ليس كفايةً، إذ كانت تضع قبضتيها على المغسلة حيث نقف، محاصرة جسدي بين ذراعيها، وكان كلّ ما لدي هو مساحة النصف دورة التي استدرتها.

ـ هل تعرفين ماذا يسموّن الأثر؟

لم يتعكر مزاجي بعد. لكن انحباسي عندها، ووقوفنا معاً وجهاً لوجه، ونظراتها الناقمة والمستفزة، أطلقت شرارة انزعاج فيما بيننا.

أجابتْ عن سؤالها:

ـ Love bite.

ضحكتُ بتهكم وقلت:

ـ قضمة حبّ! هه! Hate bite !

كنتُ على وشك أن أضع لنفسي خمس نجماتٍ على سهمي الطائش

هذا، لولا أني رأيت في عينيها إشارة استنكار بالغة. شدتني من يدي إلى الغرفة، وهناك قالت وهي تعطيني علبة من القطيفة الحمراء:

ـ هاك!

فتحت العلبة فرأيتُ خاتم خطبة. نزعتْه من العلبة، وأرتني تحت الضوء الاسم المحفور عليه مع قلبين عند حافتيه، ثم باعدتْ بين أصابعي وأدخلته في بنصر يسراي، ونزلت كفّي وقبلتها.

بدا لي ذلك مشهداً خاطفاً، مشهداً مهلهلاً، من ممثلة فاشلة بامتياز، لم تستطع حتّى أن تغلق عينيها أوان القبلة، بل سددتها لعيني لتستكشف أثر ما تفعله عليّ. لا، ليس مشهد سينما، أكثر من ذلك، كانت ضي قد استجمعت كلّ ذكائها لتنصب لي فخاً، ووقعتُ أنا الفريسة السهلة، خاتم خطبة واسمها محفور عليه وقبلة على كفي، لتكمل فيهما مشهدها على مرأى من صاحباتها الأخريات: هذه البنتُ ملكي أنا، ألا ترين قرينة ملكيتي محيطة بإصبعها؟

بقي في فمي الطعم المرّ للخديعة المحكمة، طعم الغباوة والسقوط السهل. كان سريعاً ما حدث، ولم أتمكن من مراجعة معطياته ثانية بصحبتها، فأوقفها وأسألها: ما هذا؟ ما معناه؟ ماذا يجدر بي فعله حياله؟ ولماذا الآن؟

الغريب أن تلك المحاولة المجهضة قبل أوانها جاءت لتقول: وداعاً. تلك المحاولة أعطت زخماً باهراً لعلاقتنا. كلّ ما يحدث، سالباً كان أم موجباً، متفوقاً في سوئه أو في جودته، مستقراً أو مترنحاً، مكرراً أو جديداً، كلّ ما يحدث صار يأخذ وقعاً مختلفاً، وقعاً صاعقاً. وداعاً تلك

أجبرتني على إعادة تقييم علاقتنا، واكتشفتُ أن كلّ ما يمرّ قد لا يمرّ ثانية، في أيّ لحظة قد تفنى علاقتنا وتذهب للعدم مثلما جاءت من العدم. وبطريقة ما باتت قدرتي على تحسس أذاها مضاعفة، ومردود متعتي من ذلك الأذى يتضاعف أيضاً.

ما حكتني وكنتُ من النقمة بحيث استعدت ثانية رغبتي في مناورتها، ومعاكستها، ومشاكسة جموحها. كانت لعبتي المفضلة أن أزايد على تملكها لي، وأن أجعل أعصابها مترجحة بين الرفض والقبول، بين الانصياع والجبروت، بين توسلاتها وتجاوزها لاءاتي، ليس أن تأخذني قسراً، وإنما دفعها لتكون على حافة ذلك. هي من علمتني أصول اللعبة، وهي من تريد أن تكون أرض مناوراتي. ازدادت وتيرة تحرّشها، وكنتُ أنا على وشك قلب اللعبة، لولا أنها في لحظة فتحت عليّ باباً من الجحيم، كانت ربلة ساقي حيثُ وضعت يدها لتباعد بين رجلي، وكنتُ أكره أن تفعل هذا، أن تضع يدها هكذا، وتباعد بين رجلي هكذا. جفلتُ وسحبتُ يدها من تحت ساقي:

ـ لا!

ـ لماذا؟

ارتجلتُ أول كذبة خطرت ببالي:

ـ يدغدغني!

مثلما ارتجلتُ كذبتي السالفة، ارتجلتُ ذروة سريعة لم أكن، وجسدي مفرغ من حضوره مع ضي، لأصلها. لا أعرف كيف وردت الفكرة ببالي. ولا أعرف كيف دفعتها من حيز الفكرة إلى التنفيذ! كان من الصعب أن

أجبر ضي على التراجع، وأن أجبرني على الدخول معها في مزاج فائق لاشتهائها. كذبة لا تضير لو أنها ابتلعتها. عندئذ لم أكن لأهتم بابتلاعها الكذبة أو اختناقها بها.

بعد ساعتين وشهوة أخرى طاشتْ وانطفأت، كنا في المزرعة، وكانت تعرّفني بالحاضرات للمرّة الثالثة بغية أن تطفو أسماؤهن في ذاكرتي، فلا أرتبك إنْ نسيت إحداهن:

ـ التي تأكل الكورن فلكس: جنان، والمرتدية قميصاً أبيض: غادة، والتي قامت منذ قليل باتجاه المطبخ: باسمة، والتي تربط شعرها الآن: ميرال، وهاتيك ذات الصدر المُسطح: ضُحى، وهذه..

ـ أعرفها.. أعرفها إنها دارين!

لم يكن اسمها قابلاً للنسيان، هذا فضلاً عن مصافحتها الحميمية. تبادلتُ وإياها منذ دخلتُ بضع نظرات مختلسة، مع ابتسامات تسرق نهاياتها وتخبىء فضائحها الصغيرة. قلّما صادفت أناساً يشكّلون علامات استفهام لافتة في ضوء جبيني، ويتسربون إليّ بسلاسة كهذه، لم تكن تلك مصافحة إنما مسّ شغاف روحي، وبدقة، كانت راحتها قد دخلت لعمقي وبعثرت تراتبية أشياء الداخل فيّ.

برغم توقعي، أو خوفي، بأني لن أستطيع التكيّف بيسر مع بنات غريبات، لم يسبق أن اشتركت وإياهن في مواعيد سوق «البسطة»، ولا مدارس المتوسطة، ولا أم حسين معلّمتنا في «الكتاتيب». إلا أني لتوقعاتي كلّها نسيتُ نفسي تماماً، وكوّمتُ عباءتي في إحدى الزوايا، وقمتُ إلى ضجيجهن في المطبخ بصحبة الخس والطماطم وقطّاعة السلطة.

وجهتْ لي إحداهن سؤالاً:

ـ أنتِ من القطيف؟

فهمستْ في أذني ضي: هذه أمل.

ـ نعم.

ـ والدتكِ كذلك؟

ـ نعم.

ـ وتدرسين أين؟

ـ هنا في الدمام.

ـ لماذا إذاً تتحدثين هكذا؟

طالعتها باستفسار، فأردفتْ:

ـ «مش عاوزة»، «طالع ع بالي»، «أيش»، «برضو»، «لبيه»...

وأنقذتني ضي حين تدخلت في الحديث وقالت:

ـ تعرفين بنات الكلية.. يطلعون من البلد ويكبر رأسهم.

ريبة أمل لم تكن جديدة عليّ. لطالما كانت لهجتي مختلفة بعض الشيء، حتّى عن لهجة إخوتي. ولم يكن الأمر مقصوداً أو لهجة مستعارة. إنني أجد الكلمات تنزلق على لساني بسهولة، من التلفاز، من صديقاتي، من صحبي على النت، ومن قراءاتي، وأدولبها بغير وعي في كلامي اليومي. حتّى في نوافذ المحادثة كنتُ أستخدم لهجة بيضاء، غير منتمية، وبالأحرى غير محددة الجهة. خليط من لهجاتٍ عدة لا أستطيع تقصي مصادرها.

وُضِعت المائدة وتكاثرت عليها الأطباق. كانت الدعوات توجّه إلى

أكثر من سواي، بتجريب هذا الطبق أو ذاك، كوني الغريبة الوحيدة بين جمع متآلف على ما يبدو. انتهت ضي من الأكل قبلي، وقامت تغسل يديها، تركتني خمس دقائق كاملة، كان تأخّرها مريباً ومحرجاً في الوقت نفسه، وحين انتهيت أرشدتني حُسنى الى المكان، الحمام والمطبخ والغرفة الجانبية، والممر المفضي للمسبح والآخر الذي دخلتُ منه باتجاه المزرعة، وأقفاص الطيور وحظيرة البهائم، أرتني هذا كله من خلال الباب السلكي الذي يشكل الباب الخارجي للمطبخ. أشارت إلى صفوف أشجار تلو أخرى، وأخذت تذكر أسماءها، وتتذكر أشياء عن بيت امرأة اسمها «أم جواد» تبيع الورد البلدي، وإفلاسنا باكراً ومصروفنا كلّه ريالان، في حين كنتُ معمية بسطوع الشمس ولا أستطيع الرؤية، وعدتني أن نخرج قبيل المغيب، نقطف الريحان، ونصنع منه عقوداً لأمهاتنا، ثم استأذنت، وتركتني في فوضى المطبخ ووحشتي.

كانت مغسلة المطبخ ملأى بأكوام الصحون ولا تشجع على استخدامها، فاتجهت إلى الحمام، فتحتُ الباب ورأيتُ ضي تقف مع صاحبتها ذات العدسات الرماديّة والتي لم أستطع تذكّر اسمها، ولم آبه لاحقاً بالسؤال عنه. تقفان بالوضع نفسه الذي وقفنا فيه أمام المغسلة صباحاً، تحدق في انعكاسهما في المرآة تحوط خصر صاحبتها بيديها، وتفرك كفيها تحت الماء، ملقية ذقنها أو شفتيها بالأحرى على كتف صاحبتها، لم يكن ثمة ما لا أعرفه في هذه الصورة، فأغلقتُ الباب سريعاً، الأمر برمته لم يستغرق سوى نصف ثانية لكنّه حفر في رأسي

عميقاً، أخاديد كاوية وشتائم قذرة في حقّ ضي، وخيالات أعرف بداياتها ولا أعرف منتهاها.

بعد الغداء نزلنا إلى الماء دفعة واحدة، كبنات طائشات قلما يحتفين بمتع سانحة. كان الجو مشحوناً بالضحكات وطرطشة الماء والمقالب والملامسات العابرة، وكنتُ أنا مشحونة بتوتر فائض، حتّى الماء لم يستطع شربه مني. لم أكن قد حضرتُ من قبل لقاءات شبيهة. لذا ليس لدي أيّ فكرة عمّا يمكن أن يحدث. إذاً فإن توقعاتي مفتوحة على أوسع أبوابها، وللآن لم أرَ سوى قبلة مستترة، شاهدتها مصادفة.

الإتفاق المسبق بيني وبين ضي يقتضي أن لا تنفعل بجسدي لا بالملامسة، ولا بالقبل. ولا شيء. لكني لا أضمن ضي مطلقاً، ولا أثق بثباتها عند كلمتها، خاصة أن هذه فرصتها لاستعراض مهاراتها، وهي التي تحبّ أن تقف فوق المنصة ويحفها التصفيق. أكثر من ذلك كانت تحمل لي انتقاماً مضاعفاً، إذ لم أكتفِ بقصّ شعري من دون إذنها، أضفت إليه نسياني لخاتمها، ادعيتُ أني نزعته لأتوضأ قبيل الصلاة، ونسيته على المغسلة في حمام غرفتي، وأنا أكيدة أن كذبتي ما انطلتْ عليها.

كنتُ مصابة بالقرف من ضي، واقترابها مني يحرّض الشياطين في دمي. استغللت أول فرصة وابتعدتُ. عمتُ على ظهري في الماء، كلّما أغمضتُ عيني شعرتُ أن سقف المسبح سيهبط عليّ ويساويني بالأرض في ثانية، وحالما أفتحهما وأحدق خائفة بالسقف أراه بعيداً وشاهقاً، وأني تحته وحيدة يصمني الصخب، ومعزولة. كنتُ بحاسة سمعي فقط أحدد مساري، وبالحدس أخمّن ما إذا وصلتُ لحافة المسبح لأعكس اتجاهي.

أغلقتُ عيني، أغالب شعوري بالهبوط، والانسحاق، أتخيلني ذرة صغيرة يسحبها التيار إلى أسفل ثم وأنا أنتفخ مثل حبّة فشار، وأسدّ فتحة البالوعة، وهكذا فإن الماء غير قادر على ابتلاعي.

باغتتني ضي وهي تضع يدها عليّ، وتهمس: «العسل، راح لفين؟». قُبلتها الصباحيّة ولطافتها الآن لفتتان أصابتا قلبي بدغدغة حلوة، قلما أحدثتها ضي معي. وضعتْ ظفرها على كفي وخدشت خدشاً طفيفاً، ثم قالت وهي تشير إلى الخط الأحمر الواضح الذي خلفه ظفرها:

ـ انظري، تشبّع جلدك بالماء وصار هشّاً.

أخذتني معها وجلسنا على حافة المسبح. التصقت بي، محيطة خصري بيدها. كنا نتهامس، بسبب وقع الصدى داخل المسبح. سألتني هل راقني الموعد، والبنات، والغداء، وبركة السباحة، وكنتُ أردّ بالإيجاب، وبطريقة مفاجئة، ابتعدت عني مسافة تمكّنها من رؤية عيني، فحركتُ أصابعي على غمازتي خديها، هكذا أفعل كلّما اشتقتها، ابتعدتْ وسألتني:

ـ وأنا؟

ـ أنتِ ماذا؟

ـ أأروقكِ؟

ـ دائماً!

ـ دائماً؟ دائماً؟

ـ أحياناً لا.

عاودت الاقتراب مني، مثلما تفعل في اللحظات التي ستأخذ فيها

أذني بين شفتيها وألقتْ عليّ الصدمة التي لم أستوعبها:

ـ أحبّكِ.

بعد الأشهر الخمسة التي هي عمر معرفتي بها، بدأت علاقتنا تتخذ خصوصيتها، بكل التحامها، وذروات شهوتها، وغباواتها، وعنفها، وتمكنها من زلزلة حياتي وإعادة تشكيلي. طوال هذه المدة، لم نكن قد تبادلنا مطلقاً كلمة «أحبّك». أكاد أعتقد أنها لم تكن يوماً ضمن مخططاتنا أو في أفق توقعاتنا، حتّى أني لم أجرؤ على وضعها في قائمة انتظاراتي، كانت ببساطة الكلمة المستحيلة، ولعلها الكلمة التي لا يرغب فيها أحد. لم يكن وارداً في الأصل الحديث عن مشاعرنا، وأكتشف الآن أننا قلما تكلمنا. برغم طول معرفتي بضي لستُ أعرفُ الكثير عنها، عن الإنسان فيها، عن أحلامها وأمنياتها ومخاوفها ومشاريعها ورغباتها وماضيها. كان الجسد فاعلاً بجدارة في خط علاقتنا منذ البدء، وبقي وحيداً تحت الضوء ومفرغاً من كلّ رديف أو مساعد في دور ثانوي.

وابتسمتُ. كانت الابتسامة ردة فعلي الأشد غباوة مقابل «أحبّك» التي جاءتْ كمنحة استحقاق متأخرة. ولأعيد صياغة ردة فعلي، سحبتها إلى خارج المسبح. لم أنتظر حتّى ننعزل في غرفة فارغة بل ألقيتُ بظهرها إلى الحائط، تماماً مثلما تفعل كلّ مرة أزورها حين تحاصرني عند باب غرفتها، والتقطتُ شفتيها مقاطعة نصف جملة كانت على وشك إتمامها، ودختُ معها في قبلة طويلة، طويلة جداً.

قلتُ لنفسي إن قفزي لمرّة واحدة فوق خطي الأحمر، الذي أهدرت الصباح في رسمه معها، وإقناعها بحاجتي إليه، لن ينتهك حرمته على

نحو نهائي، قبلة واحدة لن تقتلني، ثم إن عوائدي منها أكبر مما سأنفقه. وكنت لا أنوي غير قبلة تلامس شفتيها، لولا أن امتناني وذوبانها مثل السكر في فمي دفعاني إلى التمادي. غبتُ فيها ولم يُعدني إلا كلمة «يا عيوني!» بصوت لزج، حملته خطوات مرت بنا ولم نلحظ مرورها وتوارت نحو المسبح، ثم سمعتُ همهمة وفرقعة ضحكات.

لا بد ان الاحمرار اجتاح وجهي. وقبالتي ضي مذهولة جداً. حساباتي لم تخطئ مطلقاً، كانت ضي فخورة بي وليس على حسابي، والفرق شاسع جداً. طبعاً لا أغفل تباهيها بذاتها، إذ هي من علّمني كيف أستخدم دهائي، وكيف أمرر لقطاتي الذكية من دون أن أفرقع بأصابعي.

أكره أن أدخل في أدوار استعراضية بالمجان. وهذا ما أغفلته في حسابات قبلتي وضي، الشيء الذي جعلني تحت ضوء حارق للفضول. لم تكن القبلة نفسها هي السبب، إنما كوني جديدة وطارئة على البقية، كوني طازجة وممتنعة، والقبلة التي كان بالإمكان احتسابها وقاحة أو محاولة رخيصة للفت الأنظار، احتُسِبتْ لي نقطة أولى لفكّ سرّيتي وتكتمي. ثمّ فكرتُ، لعل كلّ ما قالته ضي عن عالمها هذا محض كذب، وربما وقعتُ في فخ أكاذيبها وتجاوزتُ حدوداً غير مكتوبة، وافتعلتُ أدواراً غير مقبولة، من دون فطنة!

غمزتني دارين من وراء كتف رفيقتها، ثم قامت من المسبح وسألت عمن تريد مساعدتها في المطبخ. فلم يرد أحد، ففهمتُ المؤامرة الصغيرة التي أشركتني فيها وبادرتُ. وازنتُ الأمر في لحظة: سأثير بلا شكّ غضب

ضي وغيرتها لكني سأقترب من دارين وأستشف بعض أفكارها، وكان هذا أمراً جديراً بالمحاولة، بالإضافة إلى أني سأشتري وقتاً بعيداً عن الاهتمام الملبد بالجشع أو الغيرة أو التكلف تجاهي، ولربما بعيداً عن التقزز تجاه وقاحتي.

وحين قمتُ من عند ضي وأدرتُ لها ظهري، قرصتْ مؤخرتي. كنتُ على وشكّ أن أستدير وأصفعها. بحركة واحدة حمقاء وحقيرة نسفت كلّ لحظتنا الفائتة، نسفت رغبتي في أن أحبّها، نسفت الذكرى البيضاء عن لحظة «أحبّك»، نسفت لحظة الرضى التامة التي منحتني إياها. كان هذا شيئاً يفوق الغضب والحنق والقرف والغثيان والشعور بالضعة والسفالة، يفوق أيّ إحساس سيئ شعرتُ به قبلاً تجاه ضي، يفوق قدرتي على التفسير وقدرتي على الاستجابة. لذا لم ألتفت ناحيته، لم أصفعها، لم أبصق عليها، لم أركلها، لم أدخلها تحت الماء وأبقيها حتّى تختنق. كانت هذه الصور تمرّ في رأسي فقط.

استأذنتُ من دارين أن تمنحني وقتاً كي أجفف جسمي وأغيّر ملابسي، فقالت إنها ستفعل بالمثل. دخلتُ أحد الحمامات المُلحقة بالمسبح، وقرفصت تاركة ثقل جسدي فوق قدمي. ساقيا ملتصقتان وذراعيا تحيطان بهما ومن فوقهما رأسي. ومثل بندول ساعة كان جسدي يتأرجح للأمام تارة وللوراء أخرى.

في فيلم seven كان Kevin Spacey صاحب الخطايا السبع يسلخ جلد أصابعه ليتخلص من بصماته، وبرغم أني لا أعرف هل كان هذا مؤلماً أم لا، بدا لي الآن عقاباً ملائماً جداً لضي. أكثر من عقاب، إنه الجحيم

الوحيدة التي أجدها جديرة بها، الجحيم الوحيدة، أن أسلخ جلد يديها اللتين مرتا بجسدي، فأنزعُ بصماتها، احتمال ثباتها، وتلطيخها، أي احتمال مرورها، ما يعني لضي: احتمال وجودها من أصله. إنني أنفيها عني، أتخلص منها إذ أفعل، لو ليتني أفعل.

لحقتُ بدارين إلى المطبخ، حيث وقفنا متجاورتين أمام المغسلة، وشرعتُ أغسل الصحون بالصابون وهي تشطفها بالماء. لا أدري كيف بدأنا الحديث. ما أعرفه هو أننا كنا مبتهجتين جداً. كانت تحدثني عن أحلامها البارحة، خليط من الفنتازيا والأساطير وأفلام الـaction وكانت لها طريقة لذيذة في اللفظ، سينها نافرة، وراؤها نصف منزلقة، وتقف لثانية بعد كلّ جملة تستحق التأمل، ثم تعقب: «نعم، نعم» ثم تكمل. لفتتني ذاكرتها البصريّة، أعني أنها وهي تتحدث تفتح لي سينما بعرض المسافة بين عينيها ومدّ البصر، وتدخلني في أسر شاشتها الهائلة، حتّى أكاد أنفعل بالأشياء كما انفعلت بها هي، وهي التي رأتها لا أنا.

استيقظنا، وإذ أقول: استيقظنا، أعني ذلك حرفياً. استيقظنا من خدر الكلام، وعسليّة الأحلام على مسّ كهرباء سرت من زندها العاري إلى زندي. وهكذا، ابتلعت كل منا لعابها، وحدقت بانبهار، وتحسست أنفاسها المسروقة. همستْ وهي تنظر إلى ناحية بعيدة عبر النافذة: «أريدُ أن أقبّلك»، ولم أجبها. جذبتني من كفي إلى بابٍ ينفتح في ردهة صغيرة في المطبخ، وصفقت الباب وراءنا، واندفعنا في قبلةٍ محمومة، كانت أيدينا تتحرك بانفلات، وأنفاسنا تتقطع، وقبلتُها وقبلتها وقبلتها، ونزلتُ إلى عنقها ثم إلى صدرها. كنتُ من الجنون بحيث شككتُ معه في أية

واحدة منا طلبت القبلة وأية واحدة منحتها. كانت طيعة ورخوة وتستجيبُ جنوني على نحو يسحق أعصابي، وكانت لذيذة بحيث لم أرفع شفتي عنها إلا حين استهلكت كلّ رصيدي المخزّن من الهواء، وأنا أقول بسكر: «يخرب بيتك.. جننتيني!» وضحكتْ، لسعتني ضحكتها، ضخت في دمي رغبة جبّارة في مزيد من الجنون...

وفسدت لحظتنا إذ قاطعنا صوت جلبة وصراخ في الخارج. وضعت دارين يدها على فمي وألصقت خدها بخدي وهي تصغي للصوت. من رائحة المكان وركوده وغباره توقعتُ أنه المخزن، ولم أكن قد التفتُّ إليه في الدقائق الخمس الماضية، كان ضيقاً حيث أن ظهري في اللحظة التي اندفعت فيها دارين إلى جسدي حزّ في الأرفف الحديديّة. أغلقتُ أزرار قميصها التي فتحتُها، ورتبت قميصي وشعري، ثم قبلتها بدلاً من «شكراً». سبقتني للخارج، وتأكدتْ أن لا أحد في المطبخ ثم نادتني كي أخرج.

ضحكتْ ثانية، واشتهيتها مجدداً وقالت:

ـ هيفاء وأشواق تتشاجران.

ـ علامَ؟

ـ هما دائماً هكذا.. شوي ويروقوا.

عدنا إلى المغسلة، وتنبهتُ إلى «قضمة الحب» الطفيفة التي خلفتها قرب صدرها. أشرتُ إليها أن تغلق زرها فقالت إنها لا تأبه، ورفيقتها لا تمانع، هما بالأصل في علاقة تحتضر، وكانتا منذ البدء في علاقة مفتوحة، لم تقررها هكذا، ولم تشأها هكذا، فلتتحمل إذاً صاحبتها نتائج قراراتها، وأفصحت عن نيتها من تلك اللحظة، في تشييع علاقتهما إلى مثواها

الأخير. كنتُ للمرة الأولى أسمع مثل هذه التعابير. علاقة مفتوحة. وفهمتُ على نحو مفاجىء لماذا كانت تعاملني ضي مثل طفلة لم تتلقن دروسها بعد، وتكفلت هي المهمة! قلتُ:

ـ ستقتلني ضي!

إتخذ وجه دارين ملمحاً مشوباً بالأسف، فأكملتُ:

ـ لم يكن خطأكِ.

ـ ألستِ نادمة؟

ـ إطلاقاً!

وأضاء وجهها من جديد.

خَفَتَ الصراخ تدريجاً حتّى سكن. أمسكتني بشقاوة وقالت: «تعالي». مشينا على أطراف أصابعنا ناحية الغرفة الجانبية، وهناك وضعنا آذاننا لصق الباب، سمعنا صوت بكاء واعتذاراتٍ وأنفاساً تفضّها الشهوة. رجعنا إلى المطبخ وأعددنا الحلوى ووضعناها في الصحون، وحملناها في صينيتين إلى غرفة الجلوس حيث تغدينا، وتولت هي مهمة إخطار الأخريات بجهوزية الحلوى.

تجمعنا ثانية، وحالما دخلت هيفاء وأشواق، ضحكت أنا ودارين بخفاء. كانت ضي قد جلست بجانبي، وأخذت تسأل عن تفاصيل الوقت الذي قضيته برفقة دارين بعيداً عن عينيها. أجبتها بغير اهتمام لأضللها، أسأمتني أسئلتها، إلى درجة أنه لم يتبقَ سوى لون الليفة التي غسلتُ بها الصحون لم تسألني عنه، فأعلمتها به من تلقاء نفسي. وقاطعتنا دارين حين سألتني بخبثٍ عن رقم هاتفي، بدأتُ أذكره لها شاغلة نفسها

بالتفتيش في حقيبتها، ثم رفعتْ رأسها وقالت؛ «ما عندي ورقة»، وقامت بسرعة، قبل أن يعاجلها أيّ عرض بورقة أو اثنتين، جلست أمامنا، متكئة على ساقيّ ضي، ووضعت يدها اليسرى في حجري، وأعطتني القلم، لأكتب رقمي فوق جلدها مباشرة. شعرتُ أن ضي ستنفجر غيظاً، في حين سأنفجر أنا تشفياً ودارين غبطة.

مساءً، وبعد الصلاة، جلبت حُسنى مسجلة كبيرة وأطفأت النور بعد أن شبكتها بالكهرباء، جرّبت عدّة أشرطة لم أتبينّها، وعلى ما يبدو لم أسمعها من قبل. الغالبية قمن، وتحضّرن للرقص، كن يتمايلن وكأنهن يجرين تليين خصورهن وإشعال رغباتهن. ربما يكون هذا طقساً دائماً، ليس لي فيه أيّ خبرة، والرقص الذي بدأ بخطوات تجريبية، تصاعد بفظاظة.

لحظتذاك فكرتُ في عُمَر وهو يقول: «ببساطة، أطلقي روحك، وحرري جسدك» أو العكس، لستُ أكيدة. هذا المجنون يجد لكلّ شيء فلسفة تجعله بسيطاً، ولا أدري هل كان يُعمل عقله في ابتكارها، أو يصطنعها بالكلمات لا أكثر، أو يرتجلها حسب مقتضيات اللحظة، أم أن فلسفته هذه حق متاح للجميع، مثل معاني الجاحظ التي يجدها الناس على قارعة الطريق، وأنا التي لا تهتم بالنظر إلى طريقها، فلا أعثر على معانيّ.

ضي التي تغار حتّى من ظنونها عليّ، وتفكر أن للهواء أياديَ كثيرة يلمسني بها، وللملاءات سريري جسداً واسعاً يتشهّى، كانت قد منحتني صورة غريبة عن عالمها، كما لو أنه عالم من المسعورين. ربما تكون صورة

مغلوطة وربما صادقة وبشعة. ثقتي المتزعزعة بضي لا تحيلني إلى إجابات مؤكدة، ولا تخولني الحقّ أو القدرة على إطلاق أحكام شبيهة. بين ترددها وموقفها غير المحسوم من رقصي، كانت ستتباهى بي أكثر وهي تستعرض ما يخبئه جسدي، وكان هذا الشيء بالضبط ما يجعلها تتراجع، وتكشف جسدي وتتركه عرضة للأخريات ونظراتهن. بينها وبين نداء دارين السريّ، والذي يأتيني على هيئة طيف في عتمة المكان، اخترتُ أن أرقص، الشيء الذي لم أفعله جهاراً من قبل، بل إنني تمنيت لم أفعله حتى سرّاً إلا خضوعاً لأوامر ضي.

رقصتُ. تمنيتُ ألا تنتهي وصلة الدف تلك، وألاّ أكفّ عن الرقص، ولا ينتهي الليل. تمنيت أن أفنى، أتلاشى تماماً. صرتُ خفيفة كالهواء، وأثيريّة مثله تماماً، ولا أريد الرجوع لبشريتي، لجسدي المرئي، وسطوع روحي من منافذ الجسد، ما من أحدٍ يقبض على الهواء، أو يمسكُ معصمه، وأنا لا أريد أن يقبض عليّ أحد. كان رقصي شبيهاً بخلاص اللذة، شيئاً لا تتمنى أبداً أن تصحو بعده. كان غياباً تاماً وسافراً. ثم سرت موسيقى مختلفة، وأحاطت بي ضي، كسرت جناحيّ وأعادتني إلى الأرض الهلاميّة، واشتهيتُ أن أبكي، أبكي ولا أتوقف.

عدت أنا وضي مع سلام. جلستُ بعيداً ملتصقة بالنافذة، وملقية عيني إلى الشارع المترب. سحبتني ضي ناحيتها فمانعت، تركتْ يدها فوق يدي فسحبتُ يدي، جاءت إلى جانبي فالتصقت بالنافذة أكثر، دسّت يدها بين فخذي فكدت أصرخ بها. احتضنتُ حقيبتي، وتكوّم جسدي بعضه على بعض دافعاً ضي خارجه وخارجي.

(١٤)

«لطالما كانت الرياضيات أكثر موادي رداءة على مستوى العلامات وأنا أكثر التلميذات غباوة على مستوى الفهم. صدقاً، إن عقلي يصير آلة معطوبة إذا تعلق الأمر بحصة الرياضيات. عبثاً، حاول أبي بمثابرة جبارة وصبر أن يعيد تشكيل دماغي ليتفق مع الرياضيات، أو يحسّن قدرة التلّقي لدي.

وصودف أن كانت بنتُ جيراننا تدرس الرياضيات في سنتها الجامعية الثانية أو الثالثة. اتفقت أمي معها على أن تتولى مهمة تعليمي، مقابل أجرٍ زهيد نهاية كلّ شهر. وبامتنان بالغ تجاهها كانت أمي تدفعني عصر كلّ يوم دراسي إلى بيت الجيران، وكانت بلقيس تستقبلني بترحاب على الدوام. وسريعاً، كانت علاماتي ترتفع عن معدلها المعتاد، وتلهفي لبيت الجيران يزداد، والوقت الذي أقضيه بصحبة بلقيس يتخطى الساعة تبعاً للإتفاق المسبق، وينحو بخطوات ثابتة نحو ساعتين وثلاث، ووالداي مبتهجان بالنتائج وينظران بإعجاب إلى عبقرية بلقيس، وقدرتها المذهلة على تطويع غبائي.

ربما تكبرني بلقيس بعشرة أعوام تقريباً. كنتُ في السنة الأولى من المرحلة المتوسطة. وفي حين كانت صاحباتي منذ عام وأكثر، قد بلغن

أطوار النساء، وارتفعت صدورهن وتكورت فخبأنها في الصداريات، وأسمعهن يتحدثن بلغة ذات مفردات غريبة عن دمائهن السريّة. في ذلك حين، كنتُ أنا بعدُ طفلة، كبرت غالبية رفيقاتها، وبقيتْ هي في عزلة دُماها.

كنتُ أنفر من رائحة البالغين، كانت تثير فيّ تقززاً واشمئزازاً لا مثيل لهما. وحدها رائحة بلقيس تأسرني في غلالة من الطيبة والبياض. كانت ملاكاً يتهادى. وكنتُ أريد إذا كبرتُ أن أبتسم مثلها وأمشي مثلها وأتحدث مثلها وأرتدي مثلها وأدخل الجامعة مثلها وحتّى أن يكون لي نهدان مثل نهديها. بالطبع، لم أفكر حينذاك في الأمر بتفاصيله الواضحة هكذا، إنما كنتُ أرى فيها امرأة كاملة، ناضجة تماماً، وأردتُ أن يجعلني الله مثلها. كانت الوحيدة التي لا تعاملني معاملتها لطفلة، وفي الوقت نفسه لا تطلب مني أن أكون أكبر مما أنا عليه، تقف عند حافة وسطى، مكان وحدها أجادت الوقوف عليه من دون أرجحة.

وبلغتُ. فجأة، في يومٍ صيفي ثقيل شعرتُ أني أسيل، وذعرتُ في الحمام. كلّ ما تعلمته بشأن الدم هو حالة التكتم التي افترضتها من خلال مفردات صاحباتي الغريبة. لو كان أمراً يصح الحديث عنه لكان أبي فعل ذلك. هكذا فكرتُ. لم أعرف ماذا أفعل باستثناء ذلك. كانت علاقتي بأمي لا تتحمل فضحاً مثل هذا، العلاقة التي لم تَسُء يوماً ولم يعتدل حالها يوماً أيضاً.

وجدتني في ساعة الدرس مع بلقيس مضطربة التفكير في الفيضان الصغير على ملابسي الداخلية، وفي ما إذا كانت ملابسي قد اتسخت أم

لا. كنتُ أجلس فوق قدمي، خائفة أن ألطخ سجادة غرفتها، ومتعبة إذ أنقل ثقلي من قدم إلى أخرى. طالعتني بانتباه، وأخفضتْ رأسها باتجاه الكتاب، وفعلت ثانية وأخفضت، وثالثة حين كان وجهي يعتصر إثر ألم حاد في منطقة حوضي، وسألتْني: «ما بكِ؟» فحِرتُ بمَ أجيب.

ولا أدري كيف عرفتْ، أيّ إلهام آتاها يقيناً بحجم مشكلتي: طفلة في الثانية عشرة يدهمها الدم ولا تعرف ماذا تفعل! أخرجتْ من دولابها فوطة صحيّة وأعطتني إياها، وأخذتُها بتعبير أبله، هذه أيضاً لا أعرف ماذا أفعل بها! هه! حين أرى تعليمات الاستخدام على علبة الفوط الصحيّة أضحك، لعلها كانت دائماً هنا وكنتُ من العمى بحيث لم أرها! تخيّلي شيئاً بهذه التفاهة والصغر كان سيمنع عبور بلقيس عليّ!

جلست على حافة سريرها، وأحاطتني بيدي أم ورائحة حورية، علّمتني كيف أستخدمها، وابتسمت قليلاً وقالت: «لا تخجلي. ليس من سبب للخجل. من هنا يأتي الأطفال، سيكون لكِ أطفال حلوين مثلك» يومذاك، حدثتني كثيراً عن الدم وأشياء أخرى: الشعر الخشن، والألم، وجسدي الذي سينقشع من غمامة طفولته، ليصير جسد أنثى بجناحين شفافين، تحمل بيت أطفالها أينما ذهبت. جعلتني لا أخاف، وجعلتني أدين للدم باقترابها.

انقضت أيام، وأيام، والسبحة تكرّ. أحبّ بلقيس، أُجنّ ببلقيس، بلقيس طيبة معي، ودرجاتي في الرياضيات مرتفعة. ثم جاء اليوم الذي أخذتُ فيه علامة ممتازة في الامتحان، قالت: «أغمضي عينيكِ، عندي لك هدية»، تحمّستُ وارتعشت روحي. قبّلتني، تلك كانت هديتها، قبلة شفة

لشفة، وقالت: «المتحابون يتبادلون القُبل في الفم، وأنا أحبّك» وأردفتْ: يجب أن يبقى هذا الأمر سرّاً بيننا، وإذا ما أخبرت أحداً، أو أحببتُ أحداً أو قبّلتُ أحداً فستكفّ عن حبّي، ولم أفهم لماذا، قالت: «هل تريدين ألا تريني ثانية؟ هل تريدين ألا أحبّك أبداً؟ هل تريدين أن أغضب منكِ؟» فتحتْ أسئلتها وشعلة الضوء المريب في عينيها، ثلماً في قلبي، وهززتُ رأسي بخوف: لا، لا، لا!

ساذجة أنا، ساذجة وطفلة كنتُ. لم تلفتني نبرة التهديد في كلماتها، ولا ردعني الإحساس الغامض أن ثمة خطأ في السياق الكلي لما يحدث. شعرتُ أنها تمنحني شيئاً خاصّاً، شيئاً مميزاً، يجب ألاّ يشاركنا فيه أحد، ثم إنها تعترف بجدارتي واستحقاقي، وتعلّيني فوق استصغاري الطفولّي. كنتُ أعبدها، لا أحبّها فحسب، ومنذ ذلك الوقت صرتُ أفعل كلّ ما تمليه عليّ بحذافيره وبلا نقاش.

ولم تتكرر قبلتها في الأيام التالية. تعاملت معي كأن شيئاً لم يجرِ. اجتهدتُ، تفوّقت على نفسي لأحظى بهدية أخرى منها، لم تمنحني حتّى قبلة عاديّة. كنتُ أستغل الثواني المعدودة حين تستغرق في الشرح، وهي تكتب مسألة أو تراجع قاعدة، لأحدق في شفتيها، وكانت نظرتها تقع عليّ مثل عيني نسر، حادّة وجارحة، فأبعد عيني على الفور وقد أمسكتني بالجرم المشهود. عطشتُ، إلى حدّ البكاء عطشتُ، إلى حدّ أن أتوسلها. لم أعد أنام بسبب قبلة، أسترخي على المخدة، أتذوق شفتي بطرف لساني، أعضها، أغمض عيني وأسترجع بلا ملل تلك النصف ثانية، تلك القبلة..

ثم فعلتْها، بلا مقدمات، ولا علامة كاملة في الامتحان، ولا توصية لاحقة، قبّلتني. القبلة نمت وكبرت ونضجت، وبتدرج بطيء ومقصود صارت جسداً بأكمله، رعشة، وبللاً لزجاً وانعتاقاً. بالسياسة نفسها: مرّة فعطش، مرّة فعطش.. مرّة فعطش.. روضتني بلقيس، أم أقول العكس! كنتُ بنتاً وصرتُ مهرة بريّة؟ كنتُ بنتاً وصرتُ قطة متوحشة؟ كنتُ بنتاً وصرت مسخاً؟

م س خ!

في لحظة حرجة من شهوتي سألتني أن أصفعها. رفضتُ، رفعتْ كفاً مغتاظة وصفعتني، سألتْ ثانية ورفضتُ، صفعتني أشد، ثالثة وبكيت، هزّتني، قالت: «لا تبكي! لا تكوني طفلة! لا تغمضي عينيك! ردّيها لي! إصفعيني! انتقمي! ألم أوجعك!». كانت صفعاتها تتفاوت في قوتها، وحين وصلت إلى الصفعة الخامسة، وأذني ملأى بالطنين فلا أكاد أسمع، رفعتُ كفي وصفعتها بكل قوةٍ بعثها فيّ الألم. دهمتني نشوة عارمة، عظامي اقشعرت لها، واحترق صدغي بفعل اللذة، منحة الجبروت والعظمة والطغيان، إحساس ليس بمقدوري استعادته إطلاقاً، مهما صفعتُ، ومهما استنفدت مخزون شراستي.

كانت تلك البداية البائسة. كلما اعتدت ذلك كانت ترفع عتبة الألم، إلى أن فقد جسدي نصيبه من الرضا، يجنّ إذا لم يؤذَ، وتتهالك طمأنينته إذا لم يتوجع. الوجع بات حرفته ومساره ناحية اللذة. بطريقة ما، ضاهى جسدي تكوينه البشري، قدرات تحمّله المحدودة، وخصائص اللحم والعظم، تجاوزها إلى مرحلة متقدمة من لا أدري ماذا! لكنه، جسد بمشاعر

استشعار ضعيفة، تكاد تكون معدومة، بحيث أن صعقة هائلة من الألم ليس باستطاعتها أن تهزّ عصبه. كنتُ أحاول أكثر، لأستردَّ نشوة الألم الكافرة إلى جسدي، وكلما وصلتُ الى حدّ باهظ اعتاده بالتكرار وأطلب المزيد، والمزيد، والمزيد، والسؤال الذي يرجمني كلّ مرّة، ويفتت خلاياي: هل ثمّة مزيد، فوق هذا كله، هل ثمّة مزيد؟

بقيتُ بضع لحظات في خانة المتفرجة على فعلها بي والمتلقية لوقعه، ثم حوّلتني بمرور الوقت إلى فاعلة تستكشف وتجرّب وتخترع. الناس يدمنون المخدرات والكحول، يدمنون التلفاز أو النت أو ألعاب الفيديو، وأنا أدمنتُ جسد بلقيس، أدمنتُ بالأحرى ما تفعله بي، البطش والعبودية، كنتُ تحتها جارية وكانت إلهة تميت وتحيي وتعلمتُ كيف أتبادل معها الأدوار. ما عدتُ أهدأ قبل حصولي على حصتي منها، ولا أستكين قبل أن تصير ألعوبة بيدي، وأنا ألعوبتها، كانت ألاعيب أدرك خطورتها، وكلما أدركتُ ذلك، كان وقعها أشد عليّ. ما عدتُ أبكي، كبرتُ والكبار لا يبكون.

(وفي عزّ الكلام، سكت الكلام).

هه! سكت الكلام، سكت جنون بلقيس معي، ورغبتها فيّ، نضبتْ بالتدريج، ثم همدت تماماً. تعذرتْ لأمي بمستواي المتفوق في الرياضيات، والذي لا يجعلني بحاجة إليها، كثيرة هي ثلاث سنوات من الدروس الخاصّة، ومن الأفضل أن أبدأ بالاعتماد على نفسي، وهكذا أنهتْ دروسي عندها. ومرّ اليوم واليومان بين اللقاء والثاني، ثم ثلاثة، ثم أربعة، ثم أسبوع. وكان قلبي يغلي، وجسدي يغلي، وبلقيس لا

تعطيني حقّاً من باطل، تتعلل بأمور وشواغل وأنا أدرك أن تعللها أكاذيب، ولا أدري ما وراء أكاذيبها، وأدور معها في الحلقة المفرغة من الشكّ والغيرة. كنتُ أفتعل حججاً سخيفة لأمرّ بمنزلها، حججاً واهية، خالية من المنطق، لا أريد غير أن أشم رائحة حوريتي، وأسترد الطمأنينة. لاحظتُ زائرتها الجديدة، لاحظتُ مواعيد درسها، لاحظت نهديها الما نبتا بعد، لاحظتُ كيف كبرتْ. كأن انتباهي حينذاك كان خدراً. لاحظتُ متأخرة تقززها المتصاعد إلى حدّ الغثيان مني، من جسدي، من اكتمال أنوثتي، ومن جسد الطفلة المتوثب ناحية بلوغه، ومن خصري الذي استدار ونهديّ اللذين تكورا...

يقولون إن الذاكرة تتثاءب وتنام، ثم تضمحل بين الأحلام وأنصاف اليقظات إذا لم تُشحذ، وأنا أتذكرُ بلقيس في كلّ يوم. لم يمرّ يوم لم أفكر فيها، أحضنها حتّى أوجع أضلاعها، أقبّلها حتّى أسرق معي شفتيها، أصفعها، لأجل غيابها، وأصفعها لأجل الدمية الصغيرة التي تهرسها تحت جسدها، أصفعها ثم أندم. أحبّ بلقيس وأكرهها، أعبدها وأكفر بها، أعيد تركيبها عشرات المرات ثم أبعثرها، لم يعد بمقدوري أن أتلاعب بجسدها بعد، فأتلاعب بصورتها. قلبي مضخة كبيرة من الوهم، ودمي ملوّث.

فكرتُ كثيراً أني سأجوع، فوق جوعي سأجوع. بلقيس لن تعود، ودميتها لن تمانع من أن تكون لعبتها الجديدة مثلما لم أمانع من قبل. دخلت حالة من الهستيريا أغلقت الأبواب عليّ. كنتُ جحيماً موصدة، ولو استمر الأمر يوماً واحداً بعد، لفتحتُ حرباً من دم وغبار على بلقيس

حتّى تعود إليّ أو لن تكون لسواي. لولا أن يداً رحيمة امتدت، في وضعي ذاك كانت رحيمة، برغم أنها من صنف العذاب نفسه، وأعادتْ ترطيب جسدي بوفرة مائها. وبذا أدمنت بديلاً جيداً، ثم استبدلتُها بأخرى، وثالثة، ورابعة، و.. أُبقي علاقاتي ما بقي لنشوتي الطعم الحاذق، وحالما أعتاد أغادر إلى أخرى.

والتقيتكِ، وأحببتكِ. أحببتك منذ مصافحتنا الأولى في الحسينية، حين اعتذرتِ عن عدم ارتدائك الجوارب بانشغال خادمتكم، وكان هذا أسوأ عذر سمعته على الإطلاق. لو لم تشيري لربما لم يلتفت أحد. أعوام ثلاثة وأنا أغمض عيني عليكِ، وأفتحهما عليكِ. كنتِ غضة، لم تتفتحي بعد. أنا التي تفتحتْ مبكراً وسقطت بتلاتها تباعاً شممتُ فيكِ روائح جديدة، رائحة الأشياء الأولى، الطاهرة، التي لم يحدث أن اتسختْ. أحببتك وأنسيتني بلقيس، ووجعي، وانسحاق طفولتي، لكن ليس وحشية جسدي. أحببتكِ كما يحبّ رجال الجنة نساءهن البكر، أحببتكِ أكثر. أحببتكِ وخفت. يجب ألاّ ألمسكِ. يجب ألاّ أقترب. يجب ألاّ ألوثك بي وبجنوني وبسطوة جسدي. أحببتكِ وحميتكِ من نفسي، لكنني لم أقاوم أثيرك الخصب بعد. فكرتُ أن بمقدوركِ أن تطهريني. فكرتُ أن فعلكِ بي أقوى من شياطيني وخفافيش سوادي، وعتمة روحي، واقتربتُ.

كان لديك قميص أسود، بفتحة عنق مثلثة وأزرار متراصة، وكنتُ إذا ارتديتِه أتلصص عليكِ لأرى هذه الوحمة تحت عنقك بتنهيدة، وفوق مفرق نهديك بمسافة قبلة، بحجم نملة حمراء، وبلون نملة حمراء، طافية

على صدرك الحليبيّ، وكنتُ أموتُ! أريدكِ! أعرف أني آذيتكِ! أردتُ ألا أفعل، بشدّة أردتُ. داومتُ على علاقاتي تلك حتّى أفرغ فيها شراستي ورغبتي في الأذى، وتَطلُّب جسدي لنصيبه منه، ولم أستطع. أنتِ وبطريقة خفية كنتِ تردعينني عن خيانتكِ، تمنعين جسدي من حضوره كاملاً عند سواكِ. كلّ الجهات كانت تعيدني ناحيتك، ومع ذلك أخون، أنتِ أرق من استطاعتكِ أذيتي، وأنا أعنف مما يمكنكِ تحمّله. وفشلتُ بضع مرات بسببكِ، نعم، بسببكِ، كنت تتكومين بيننا، في مكان ما، وأنا مغمضة العينين أراكِ، أكاد أقسم أنكِ مررتِ، وأخجل أن أفعل بكِ هذا، أهز جذع شهوتي مع غيرك وأنتِ اشتهائي كله، ليس جسدكِ وحده، أنتِ اشتهائي من الحياة، من الحبّ، أنتِ الخلاص الذي دعوت الله أن يمنحني إياه. والآن، وأنتِ مُلكي، صرتُ أعرف أن وحمتكِ تلك أقرب إلى نهدكِ الأيسر، وصار بوسعي لمسُ نملتكِ الحمراء، وتقبيل نملتكِ الحمراء، ولعق نملتك الحمراء، والنوم على نملتكِ الحمراء، وأخاف بعد هذا أن تتعبي مني وتتركيني».

صدري، المكان حيثُ تضع عليه رأسها، تحوّل بقعة كبيرة من الماء المالح. نفدتْ من جسدها الرائحة الكثيفة والثقيلة للحزن السريّ المُعتق، الحزن الذي استقر واستفحل وطالت مكابدته، وحكاياتها كانت احتضارات عدة متشابكة. أطرافها باردة، وأنفاسها تحرق جلدي. قامت منهكة. فتحت الأبجورة قليلاً فانتشر ضوء طفيف. أخذت أصابعي وحركتها على أماكن بعينها من جسدها، ذراعيها، أعلى زندها الأيمن، باطن كفها وإبهامها، ظهرها، جانب ساقها.. تحسستُ ندوباً صغيرة لم

يسبق لي رؤيتها تحت الضوء، ولا تنبهتُ إليها، في الوقت الذي كانت تخبرني بأسبابها: هذه بسبب سكين محماة على المدفأة، عندما كنّا نأكل الكستناء!، هذه، كسرتْ كأساً تملك هي أيضاً ندباً مثله! هذه لأن مشبك صدارتي علق فحاولت انتزاعه عنوة فبرز طرفه وانغرز بجلدي! هذه كنّا نقلد فيلماً أجنبياً أتى فيه شيء عن أخوة الدم وطقس الأخوية!

هذه، هذه، هذه... كان رأسي يدور، وكلماتها تقرع في رأسي بغير انتهاء.

بسطتْ يدي على جانبها الأيمن

هنا، تألمتُ كثيراً هنا. كانت تحفرني بركبتها. هه! ها أنت ترين أني حين أضع ركبتي في بطنكِ على نحو مفاجىء، ملتذةً باندفاع جسدك الشاهق وتقوس ظهركِ، لا آتي بشيء من جيبي.

نزلتُ عليها. أقبّل حيثُ سكنت يدي. لم تكن القبل تفعل شيئاً في تلك اللحظة، لا تعتذرُ عما حدث، ولا تمحو أثره، ولا تُبدله بأحسن منه ولا بمثله. قبّلتُ ندوبها جميعاً، واحداً واحداً، وكانت تتأوه بطريقة لم اعتدها، آهة ذاكرة تُفضّ، وتعاد مشاهدتها، ويُدفع بها إلى واجهة العرض.

ـ لا تشفقي عليّ! ولا تكرهيني!

ـ لا أفعل.

ـ أحبّكِ.. أحبّكِ، أنتِ تمنحينني النسيان.

بعد «أحبّك» السابعة، فقدتُ تتابع رصدي. لم أكن أرصد تصريحها بالحبّ فقط، بل انفعالاتها كلّها، العينين اللتين تحملان امتناناً فائضاً وتصبّه عليّ، تشبّثها بي، قبلاتها، شكل رغبتها المختلف، بكاءها الهادىء

الذي بررتْه بفرط الحبّ واللذة، سكونها على صدري.

إذا كان للعلاقات، مثل الموجات، قيعان وقمم، فإن مرّتنا تلك كانت أعلى نقطة في أعلى قمة تمكنّا من بلوغها، الذروة المطلقة، المرّة الفضلى، بلا وجع ولا تبعاتٍ مؤلمة. ليس على صعيد الجسد فحسب. رأيت ضي، لمرّةٍ وحيدةٍ من دون نقاط معتمة في مجال رؤيتي، من دون أبواب موصدة، من دون أسرار، من دون مخابىء. أحببتُ ضي هذه، ثبّتها في تلك الصورة، وبتُ على يقين: أيّ شيء يمكن أن يحدث، أيّ شيء حدث بالفعل، لن يشوهها فيّ. سأسترجعها على الدوام هكذا، مكشوفة ومضيئة بين يدي.

(١٥)

باديء الأمر، انتابتني حالة من القرف والغثيان. لم أكن أدري أن قبلة فم لفم شيء يمكن حدوثه، هكذا، وببساطة. رفضتُها، مستنكرة أن أراها تسقط من علوها الملائكي. أمسكتْ بيدي وتوسلّت إليّ أن ننسى الأمر ولتستمر صداقتنا على حالها، لكني لم أستطع مغالبة حالة القرف تجاهها متى التقينا، والخوف كلّما أغلقت علينا باباً، وتدريجاً فترت علاقتنا حتّى انتهت من تلقاء برودتها.

المرّة الثانية كانت مختلفة، إذ حرضتْ فيّ الظنون بشأني. ما الذي يجعلني أعيش الوضع نفسه على نحو متعاقب؟ هل يحدث ذلك للجميع؟ لمَ لمْ يعلّمني أحد؟ هل عليّ أن أتستر على ما حدث؟ هل ثمّة علّة فيّ؟ هل هي قمصاني الصبيانية؟ أحذيتي الرياضية؟ شعري القصير؟ هل هي «أنا» التي أستخدمها بدلاً من «إني»؟ وإسقاطي تاء التأنيث حينما أراسل الصديقات؟ أم أن ثمّة خللاً متجذراً لا أراه أنا وتراه اللواتي يرغبن في علاقات كهذه؟ كنت بالطبع قد كبرتُ قليلاً، وفهمتُ أنه يمكن أن تكون القبلة مجرد قبلة، ويمكن كذلك أن تكون علاقة بكلّ تفاصيلها الحميمة. نبشتُها بالأسئلة، ولم أخرج بفائدة، كانتْ صاحبتي تلك تترجّح بين سذاجة الفعل وردّه إلى أسباب مقتضبة وغير منطقية، ولا يمكنها

الاستفاضة بشأنها. وكنتُ لا أفهم، أتشمم خطواتي، وأفتش في جسدي وتصرفاتي وانفعالاتي وطريقة تعاطيّ مع الصديقات ولا أجد ما يريب.

مع ضي، كانت قد مضت سنوات وأسئلتي شبه غارقة في النسيان، ومثلها على معرفتي بها. مرّت بي، أعني ببنات البلد في الكلية، سلّمت وثرثرت قليلاً، ثم التفتت إليّ على وجه الخصوص، وقالت: «ما رأيكِ أن نلتقي؟» وبدا سؤالها ملتبساً، إذ إننا نلتقي بين فينة وأخرى هنا وفي الحسينية، وأردفتْ: «أنتِ مدعوة إلى الغداء عندي الأربعاء، نذهب من الكلية إلى منزلي رأساً، ولا تتعذري!»، ولم أتعذر.

منذ جلسنا معاً على سريرها لدى دخولنا، ومنذ أن سألتني رأيي أيّ واحد من فساتينها تلبس، ومنذ أن أغلقتُ لها سحاب فستانها بأصابع مرتبكة، ومنذ أن جلست بجواري والحّت عليّ أن أتذوق الحلوى، ورفعت الملعقة إلى فمي وأطعمتني؛ منذ ذاك وأنا بطريقة غامضة لا تفسير لها، أعرفُ أن علاقتنا ستنتهي إلى ما آلت إليه بمرور الوقت، ليس التفاصيل وإنما جوهر العلاقة وأدوار طرفيها، وكان كلّ ما اكتشفته عن ضي نسخة من نبوءتي الأوليّة. وبدل أن أنفر وأبتعد، كنّا نتواطأ على وضع طُعمٍ في كلّ خطوة لتجرني خطوة ثانية، على نحو لا يجعلني لاحقاً كاذبة وأنا مذهولة بما وصلنا إليه، لكنه أيضاً، لا يعفيني من المسؤولية تجاهه.

والآن، كان قد مضى شهر بتمامه مذ أخذ إيقاع علاقتنا نبرته الأكثر تصاعداً، وكانت هذه فسحة من الوقت الطيّب تتجاوز ما بوسعي تخيلّه أو افتراضه، فضلاً عن عيشه بالفعل. بدا هذا محض خيال، أو فردوساً

موقتاً، سرعان ما أقضم تفاحتها الملعونة، وأنزل إلى الأرض الرخوة والمبطنة بالأشواك على جاري عادتنا. كانت متعة مُخدرِة حتى أني لم أعد معها راغبة في أخذ الحيطة والحذر، أو فتح عيني على غدٍ له من الملامح غير ما لليوم. فمهما بلغت براعة ضي في النقر، ومهما وصلت حدود مهارتها لا بد لها من نقرة خاطئة، أصبع تنزلق نحو وتر آخر، نحو نوتة في غير مكانها، كان اليوم نشازها النهائي، خطيئتها المميتة.

أطلّت وفي عينيها وميض شهوتها المعتاد. في الواقع، لم أكن مريضة، ولذا بدت حجّتي واهية. كنتُ في الإعياء السابق للمرض، الدوار والرؤية الضبابيّة للأشياء، الأصابع الهلاميّة التي تتراخى عند اللمس، الوجع المتمكن الذي لا يمكن القبض عليه في ناحية ما من جسدي، والتقلب بين البرودة والحرارة؛ كلّ الأعراض النصف مرئيّة ولا مرض ملموساً. ولذا رددتها بهدوء عني. للمرة الأولى أردّها عني، من دون أن تكون تلك مجرد لعبة tom & jerry، غزالة وصيادها، مشتهٍ نافد الصبر ومُشتهى يتمنع.

عادت وانقلبت إليّ، ليس في لغة ضي شيء اسمه الرفض، دائماً ثمّة نعم بعد كلّ لا. فاوضتها: «حسناً، القليل فقط!»، شعرتُ بها سعيدة، ذلك تقريباً كلّ ما أمكنني التقاطه من ردّة فعلها. كان جسدي يتناوب بين حالتيْ نقيض: نصف وعي لا يكاد معه يحسّ بوطء ضي، ووعي مضاعف يجعل كل ما تفعله سبباً لدفع القيء في حلقي. أبعدتها، بنفور ربّما بيدي دفعت كتفها لأزيح ثقلها عني: «يكفي!». ربما كان في صوتي حدّة مزعجة، وحركتي المفاجئة تلك جعلتها تسألني متعجبة: «ولماذا؟»،

أجبتها بانزعاج: «ألم نتفق على القليل؟»، وبوجه غاضب أراه بعيني الزائغتين: «وماذا كفاك عنّي؟»، من دون أن أفهم تلميحها: «أرجوكِ ضي، أنا تعبة! »، وهي تهزني بانفعال، وفي عينيها تلك النظرة التي لا يأتي بها غير شيطان: «أجيبيني؟ من لمسكِ؟ من؟»، وأنا على وشك الصراخ بوجهها: «لا تتمادي معي ضي! لا تفكري حتّى بذلك». وفي المقابل، لدي رغبة ملحة لأعرف حدود تماديها!

كلّ التفاصيل اللاحقة لا تبدو حقيقيّة في ذاكرتي. تحتها، بيدين مقيدتين إلى عمود السرير، غير قادرة على تحريك رسغ يدي اليسرى، ثمّة جحيم تشتعل في أكثر من جانب بجسدي، وأكثرها لفتاً لانتباهي في هذه اللحظة كتفي، إذ يبدو أنها ارتطمت بالأرض وهي تسحبني من سريرها، وآخر ضلوعي حيثُ تثبّتني بركبتها، أنفاسي تُطلق على نحو غريب، أنفاس متوالية سريعة ثم كتمان لوقتٍ طويل، أوشكُ أن أختنق، يداخلهما نفس واحدٌ متقطع، ينقبض فيه بطني انقباضات متعاقبة لا إراديّة، وبمقص، لا بد أنه مقص، أعرف ذلك من صوته، ومن طرفه الحاد والبارد الذي ينغرز في جلدي، ومن سقوط الهواء عليّ، كنتُ خائفة أفتح عيني، هذا إذا ما أغفلتُ أنها سحبت شيئاً من كوميدينتها وعصبتْ به عيني، مطفئة بصري في عتمة لا متناهية، كانت قد قامت عني، وراحت باتجاه مكتبها، سمعتُ وحواسي جميعها صارت سمعاً، سمعتُ صوتَ قرقعة الأقلام في صندوقهم الحديدي، ثم عادتْ وطوقتني بساقيها، كانت تمزق ملابسي تمزيقاً عشوائياً، بالأصح على نحو تطفو عليه شراسة الانتقام وغوغائيته. كنتُ عارية، وكانت تكتشف عريي، تفتش في

جسدي عن رائحةِ أخرى، عن دبق أصابعها، عن وشاية قبلاتها ولسانها، عن ارتطام تأوهاتها في فضاء جسدي، عن انهيارتها المحتمة معي، عن أيّ خيط صغير، ولو كان شعرة بلون الحناء مثلاً! كانت هذه طبيعة النهش، التي أعرفها وقد ضاعف زخمها الغضب، وكانت الآن تُحكِم يديها على عنقي: «قولي، من؟».

غبتُ في وجه حسن، العينين الدافئتين اللتين لا يكفّ بريقهما عن الارتعاش تحت الضوء وفي أنصاف العتمة. كان قد علّمني كيف أكون «بطلة» على حدّ تعبيره، بعض حركات الدفاع عن النفس في رياضته: الكاراتيه، مختلطة بحركات شارعية من تلك التي يجيدها الصبيان عند كلّ استنفار. لم تعد تلك يدها المنصبة على عنقي بغضب، إنما يد حسن تطوق عنقي، ويسألني بصوت رحيم أن أغرز أظفاري في شريان رسغه، ظفر إبهامي تحديداً، بينما تلتف البقية على الرسغ وتشده ناحية الإبهام المغروز، عليّ أن أغرزه بكلّ ما أملك من قوة، حتّى إن استدعى الأمر أن أطلق كلّ الحيوية التي في داخل كياني البشريّ. أنا الآن في مأزق، هكذا قال، وفرصي للخروج منه ضئيلة جداً، تراخيّ يعني موتي، بطئي يعني موتي، ترددي يعني موتي. هذه المواقف تتطلب ليس شجاعة مثلما يُفترَض، تتطلب ذلك الجزء الفطري الخالص الذي بمقتضاه تأكل القطط صغارها وتتلون الحرباء، الجزء البدائي الذي لم تردمه بعد الحياة المدنيّة. إذا تحركت بسرعة وبلا تردد، وغرزت أصابعي في الشريان الأساسي عند مفصل الرسغ، فسينقطع الدم عن الكف كلّها، وتختنق إثر ذلك وتضعف فتتراخى قبضتها، لكني إذا تأخرتُ، وتأخري لا يستلزم أكثر من خمس

عشرة ثانية هي الوقت الذي يمنحه جسدي قبل أن يبدأ انهياراته، فسأكون أنا من في طور الاختناق، متراخية القبضة بحيثُ لا يسعني فعل شيء، سوى تحسس خيط الهواء الذي ينسل من ترقوتي بصعوبة، وتضخم صدغي الفارغ من الهواء، ومحجر عينيّ المتسعتين نتيجة الصدمة، أخيراً، انطفاء حياتي وأنا أستشعر انطفاءها ثانية بثانية.

متأكدة أني سمعتها تقول ولبضع مرات، شيئاً مثل: «يا عاهرة». ومتأكدة أني سمعتها تبكي، ومتأكدة أن الأمر استغرق ثلث ساعة ومتأكدة تماماً أني غير أكيدة من أيّ شيء. ثمّة منطقة في رأسي، في ذاكرتي تخاذلت عند تلك اللحظة عن التسجيل، لتكون في غنًى عن محاولة المحو في وقت لاحق، ودخلتْ في الظلّ الرمادي لأطراف النسيان، حيثُ أستطيع ببساطة ألا أتذكر، وحيثُ يبدو لي الأمر كدعابة مفرطة السماجة.

ثمّ كمن استفاق فجأة على نفسه يمشي وهو نائم، سكنتْ للحظتين، وتراجعت فوقي مقدار خطوة، شهقتْ، ثم قامت عني كلّها دفعة واحدة، كأنها لُدغتْ وجلست جواري، شعرتُ بالهواء من حولها يتداعى، شأنها تماماً. كانت في حال الذهول بحيث نسيت أن تتنفس. وعلى مهلٍ، فكّتْ رباط يدي، ونزعتْ عصابة عيني.

تلفتُّ حولي أبحثُ عمّا يغطيني. سحبتُ ملاءة سريرها العلوية ولففتها عليّ، ثم قمتُ إلى الحمام. هناك، حبست نفسي ريثما استعدتُ ثبات قدمي، في حين كان عقلي ثقباً أسود هائلاً ووجهي مغسولاً من الملامح. عدتُ إلى الغرفة، كانت قد مزّقت ملابسي، حتّى تلك التي لا تحتاج إلى غير يديها لتنزعها عني، فتحتُ دولابها، وأخذتُ أول ما وجدته

أمامي. هذا آخر ما أريده الآن، أن ألبس شيئاً لمسها يوماً ما، وهو أول ما اضطرتني إليه.

ليس بوسعي التصديق أن هذا الذي ينز من ناحية شفتي، ومن أمكنة متفرقة من جسدي، هذا الأحمر، والذي يتسرب في قطرات، هو دمٌ حقاً، وأنه يمكن خفّة الماء بالتحديد أن تكون موجعة لجسد تنازعت جلده الكدمات. وبدت أجزاؤه فاقدة الصلة بعضها ببعض، مشوّه بأقواس قزح بشعة ومتضاربة الألوان، لطخات تنتهي إحداها لتسلم المساحة المتبقية لأخرى. ثم وإن بدا أني لا أحتاج إلى يدي اليسرى في شؤوني اليوميّة، فقد أكتشف حاجتي إليها لأرتدي ملابسي، التفاصيل التي لم تلفتني من قبل، إغلاق سحاب البنطال، وتثبيت مشبك الصدرية، إدخال يديّ في كمي القميص.

عدتُ ثانية إلى الغرفة. جمعتُ ملابسها ووضعتها جوارها، وبطريقة ميكانيكية أخذتُ أرتب الغرفة، أعيد الأشياء إلى مكانها، وأسوي ملاءة السرير ولحافه. كانت تلاحقني، بعينيها أولاً، ثم بأنفاسها، وأخيراً بجسدها كلّه. جلستْ على حافة السرير، وأمسكتني من يدي، أفلتُّ بخفة، ثانيةً، جلبت لها ملابسها ووضعتها جوارها، كنتُ على وشك أن أتعالى فوق وجع معصمي وألبسها ثيابها، لما أحاطتني بيديها وألصقت رأسها ببطني وبكتْ، دموعها تطفر من عينيها من دون أن تلامس خديها، كأن الدموع تتجاوز قوة الجاذبية وتسقط للأمام، ذائبة في نسيج القميص، ثم مبللة بطني. وكنتُ أنا لوحة صامتة، ذاكرة صفريّة السعة، جداراً أصمّ، أيّ شيء ليس عنده ما

يمنحه، لا التعاطف ولا المواساة ولا التفهم ولا الحزن، ولا حتّى الشفقة. لا شيء!

حالما فرغتْ من ارتداء ملابسها، خرجتُ من دون صحبتها من الدرج الخلفي، الذي استخدمته غالباً لدى خروجي في زياراتي التي انتهت بشجار، وما أكثرها! خرجتُ ولم أعد.

تغيبتُ عن الكلية ثلاثة أيام. كان الفصل الدراسي في شهره الأخير قبل رفع كشوفات تسجيل الحضور، وبمعدل غيابي المضطرد منذ نوبتي تلك، لم يعد تكرار غيابي شأناً ذا بال. في الكلية، دائماً، وأينما ذهبت أشعر بظلالها القاتمة في كلّ مكان، تقع فوق ظلالي وتمحوها، أحسّ بالوقع الساخن لنظراتها على ظهري، الاختراق المريع تحت جلدي، وحين أستدير كنتُ أتأكد أني غير واهمة، أراها نصف مختبئة في أمكنة نائية، تحدق الى جهتي، لا يرف لها جفن، وتشعّ عيناها أسًى هائلاً لا يُحتمل.

كذبة نيسان / ابريل كانت، وخيوط الأكاذيب تتشابك وتتعقد وتقصر فتنكشف. ومثلما جاءت لا أدري من أيّ عدم، فتحتُ باباً في الحائط وأخرجتها إلى العدم. تخلصتُ منها، عدتُ إلى غرفتي بدلاً من غرفة محمد، إذ لم أعد أخاف عليها أن تتسخ، حذفتُ رقمها من جوّالي، واسمها من نوافذ محادثتي، بريدها الإلكتروني أيضاً شطبته من لائحة مراسلاتي، ومزقتُ الرسائل المكتوبة التي كانت تضعها بين وقت وآخر في صندوقي بالكلية، وهداياها استقرت في حاوية النفايات، باستثناء هديتها الأخيرة، مخدة صغيرة على هيئة قلب أحمر، تتوسطها:

"No door should be opened before
the previous one has been closed"

The Other

"I LOVE YOU" كنتُ بحاجة إلى من يصرخ في وجهي هكذا، بالحروف الكبيرة والضخمة، بحاجة إلى خيط ذاكرة واحد لا يصير واهناً كي لا ينقطع، إلى شيء يوميّ يذكرني ألا أُغفِل أبداً ما تقوله البدايات، وألاّ أتجاهل نبوءة قلبي.

الغريب أني لا أفتقد فعلنا الجسديّ. أتذكر ما قالته عن الجوع، ولا أشعر بأن جسدي تواقٌ إلى ما كان. ما أفتقده على وجه الخصوص هو تلك الأشياء الصغيرة، التفاصيل التي لا تلفتُ في اشتباك الصورة وفوضويتها، أصابعي على غمازتي خديها، وتبتسم فتغور غمازتاها أكثر، حزنها، وجهها المتكدر حين تحزن، افتقدنا نائمتين، أنا على ظهري وهي على بطنها، كل منا تنظر إلى الأخرى، والعالم فارغ إلا منا، أفتقد صوتها، أفتقد أكثر بحّة صوتها في أول الصحو، أفتقد «يا قوة الله!» بالطريقة المدهشة التي تقولها بها، أفتقد عبثها بكُم قميصي وهي تثرثر، أفتقد سبابتها في فمي، أفتقدها تدس أنفها في باطن كوعي وتشمّني.. لكني لا أفتقد حميم جسدينا. أسوأ من هذا،إني أفتقد كلّ ما لم نفعله معاً، كلّ ما كان بوسعنا أن نفعله ونسيناه أو أجّلناه، كنا نترك الأشياء تتسرب منا، مفوّضتين شأنها إلى الوقت، وها قد أفرغ الوقت يديه منّا.

أسبوع، عشرة أيام، أسبوعان.. لم يكن للوقت معنى الآن، بمجرد إن شفي رسغي من الرضّة، وتلاشت البقع الدكناء من جلدي، كنتُ قد طمرتها في نسيان تام. المنسيون مثل الموتى لا يعودون أبداً.

(١٦)

نبوءتي هذه المرّة مختلفة: عرفتُ أني سأفتح باباً يفضي إلى الجحيم، ولا أغلقه إلا بعدما أطفىء كلّ بردي. وسيكون لحماقاتي أثرها المُسكر، ولأخطائي إغفاءات لا يردعها الخوف. إني خائفة أكثر مما يحتمل، أيّ أني في جلّ تناقضي مع حاجتي إلى أن أكون بمأمن، كنتُ أرتدّ جداً للطرف نفسه لأنه شدّني إلى أقصى حدود مرونتي وإفلاتي من قبل. أي أني أداوي نفسي بدائي، أغرق في ما أخافه أكثر. وبدل أن أهرب وأحتمي خلف درعٍ صلدة من رفض الآخرين وإزالة كلّ مسببات وجودهم في حياتي، كنتُ بالعكس، أترك بابي مواربًا بانتظار من يأتي، غير آبهة، أكان لفحة سموم أم زلال جنة

هاتفتني دارين، وكانت تلك مهاتفتنا الرابعة أو الخامسة منذ التقيتها في المزرعة، ومجموع هذه المكالمات يقارب عشر ساعات. كنتُ قد سربتُ لها فكرة أني أقدرها كثيراً، لكني لن أزجّ بنفسي في دوامة العلاقات المشتركة أو المفتوحة أو المتعددة الأطراف، أو أيّاً تكن تسميتها الخاصّة، في هذا العالم الذي لم أتعود بعدُ استخدام تعابيره. وبسعةِ صدر كانت تقبلت إيحائي المبهم إلى أنه أمرٌ لن تجادل فيه، وإنما تتركه

للوقت وأحكامه. هاتفتني، وسألتني أن نلتقي، ملونة نبرتها بحذر مشوب تُعلِمني من خلاله أنها مطلعة على ما جرى أخيراً، وأجبتها أن لا مانع عندي، شرط أن لا تنتظر الكثير. كنتُ فاترة جداً، ومتعبة، ومكتظة بضجيج لا ينتهي، وكوابيس أعيش فيها سقوطاً ليلياً لا هاوية تحته. لا أشكّ أن صوتي وشى بي إليها. وقالت إنها لا تنتظر شيئاً على الإطلاق، فصدقتها.

وزرتها ولم أكن مدفوعة بتوتر جسدي واشتهاءاته الليليّة، ولا طلباً للعزاء، ولا التماساً للنسيان، إذ كنتُ تكفلت بكلّ هذا وحدي. زرتها لأسباب أنا آخر من يعرفها إنْ كان ثمّة أسباب حقّاً. لم تكن متكتمة، تلك طبيعتها التي أعرف، لكنها كانت أشبه بالمقيدة، كلّما مالت عليّ عادت واعتدلت في جلستها، وكانت تخفض صوتها كلّما جاء في الحديث شأن خاصّ. على ما يبدو أن لجدران غرفة استقبال الضيوف في منزلها آذاناً مخفية، وعيوناً مدسوسة تترقب محاسبتها، هذا على الأقل الانطباع الأوليّ الذي استنتجته من تصرفاتها.

لساعتين كاملتين ظللنا نتحدث. تحدثنا عن كلّ شيء، وعن أيّ شيء. لم يكن مهماً عمّا نتحدث قدر متعتنا في الحديث نفسه وتسرب الوقت من دون أن تحسّ إحدانا بذلك. كانت قد أقعدتني في الصفّ الأول وفتحت من حديثها شاشة سينما عريضة. أخّاذة وباهرة أحاديثها. أذهلتني قدرتها على توصيف الأشياء، على الحديث عن التفاصيل المُهمَلة، تشرّحها تحت ضوء ساطع، تتذكر شكل السلالم في فيلم، جملتين في آخر، لازمة كلامية لبطل ما، مشهداً لا يعدو أن يكون بضع

خطوات على رصيف مبتل، ومعطفاً أسود.

أذكر أنها تطرقت إلى فيلم Chocolat متحدثة عن توظيف الرمز، ودلالة الشوكولاته والرماد، وطبيعة دور الغجري في الحبكة، وسيادة السياسة على الدين، وسيادة الإثنين معاً على المجتمع وصيغ قبوله ومعادلاته الملتبسة. أنا التي تبتلع المشاهد كما هي، دفعة واحدة، لم يكن قد خطر ببالي أن ثمّة معاني يمكن أن تتجلى خلف الستائر الشفافة للفيلم، والتي لا تحتاج بحسب دارين إلاّ إلى يدٍ تزيحها لتُرى.

مشكلتها الوحيدة، إذا ما كان بإمكاني أن أعدها مشكلة، أن ما تعرضه على شاشتها مدهش، إلى درجة يستحيل معها محاولة نقله، أو إعادته لنُظم اللغة من مفردات ومعانٍ، يستحيل ضرباً من الغباوة،أو نوعاً من التشويه. بطريقتها تلك في الحديث كانت تعرض صوراً مكتملة تماماً وناضجة، ومحاولة الكلام عما هو مكتمل وناضج بالفعل هدرٌ للوقت بلا جدوى.

عندما صافحتها تركتْ في يدي رسالة، وعلى خدي قبلة، قالت: «سأراكِ قريباً، عديني بذلك؟»، قالتها وهي تشدّ على يدي، فأجبتها: «بالتأكيد!» من دون أن أعي ما إذا كان تأكيدي هذا انفعالاً عارضاً لا قيمة حقيقيّة له، أم حاجة مسّت قلبي.

فتحتُ رسالتها في طريق عودتي، وقرأتها:

«غلي قلبي.

لا أدري ما الذي حدث.

ولستُ حريصة على التفاصيل.

إلا بالطبع إذا رغبت أنت في البوح فكلي سمع.

ما أريد قوله: أنا أحبك.

ولا أطلب منك أن تقابليني بالمثل.

ربما تتساءلين كيف بهذه السرعة؟

وأنا لا أملك تفسيراً.

كوني معي، ولن أخذلك.

ولن أتعبك وستكونين دوماً راضية.

كما أني لن أكبلك بي، يسعك متى شئت الرحيل.

فرصة فقط، هو كل ما أسأله.

أريد أن أسمع منك عما قريب.

وأريد أن نكون معاً.

وأعطيك حبي.

هذا كل شيء.

لا أستطيع أن أقرر عنك.

ومهما كان قرارك أحترمه مقدماً وسأعمل بموجبه.

لكن لو كان الأمر بيدي.

لكتبت على لوح قدرك الليلة أن تتصلي بي.

وتقولي: نعم،

أو لا تقولي شيئاً.

أنا سأفهمك بلا كلمات.

أحبك».

بعد يومين، كانت في غرفتي. كان دوري لأهاتفها، لم أعرف بأيّ كلماتٍ أجيب عن رسالتها فاخترتُ مواعدتها، تركتُ لها تحديد الوقت وأجابتني: «في أقرب فرصة، الآن مثلاً!». كنا قد فرغنا، قبلتني بعشوائية، ثم نامتْ على صدري، تنفست جلدي، وقالت:

ـ شكراً.

ـ على ماذا؟

ـ لأنكِ لمستني بحبّ!

ـ لا تشكريني، أنا محض انعكاسٍ لكِ.

أغلقتْ عيني بأطراف أصابعها واتكأتْ على جسدي، أضاءت الأبجورة، التقطت حقيبتها من جانب سريري وأخذت تفتش عن شيء ما. عادت إلى الاستلقاء بجانبي، رفعت اللحاف فوق صدرها وشدّته تحت ذراعيها وقالت: «يمكنك فتح عينيك». كانت محفظتها مفتوحة على صورة بنتٍ تطالعها دارين بحزن قديم.

ـ هذه خروفتي: ناديا.

ـ ناديا؟

ـ نعم، ناديا.

ـ حدثيني عنها؟

تصاحبنا أيام مراهقتي. كنت أعاني أحوالاً عصيبة، أكره نفسي وأهلي والعالم. هي الوحيدة التي أبقت صداقتنا قائمة. قبلها كنتُ أتغيّب عن المدرسة يوماً أو اثنين في الأسبوع، صرتُ لا أطيق صبراً على يومٍ لا تكون هي جزءاً منه، ولذا انتظمتُ في دراستي، وبدا أني عقلتُ فجأة.

لم تكن لمشاكلي نهاية، ولا لتوتّري، ولا لنوبات بكائي غير المفهوم، لكنها منحتني شيئاً مضيئاً شيئاً يجعلني ذات قيمة. كانت صديقتي الوحيدة، أنا التي اختلفت مع الجميع، ودفعتهم إلى الابتعاد عنها.

ـ تابعي.

في ذلك الحين، كانت ناديا الصديقة الوحيدة التي يحقّ لي زيارتها متى شئت وبلا أخذ إذن أحياناً، وبحكم قرابتنا، قرابتنا البعيدة وزمالتنا في الصفّ، كنتُ أزورها على نحو شبه يوميّ وأقضي معها أوقاتاً طويلة، ننجز واجباتنا المدرسية معاً ونشاهد التلفاز ونلعب فوق السطح. كان أخوها يقضي أسبوعه في السكن الجامعي للبترول والمعادن، ووجدنا في غرفته مكاناً للتسلية وأسراراً للسطو وتفاصيل للعبث، وتمكنّا مرّة من العثور على المفتاح الإضافي المُخبأ لدُرج كان دائماً مغلقاً في وجه فضولنا، وقد أصبنا بالخيبة ونحن لا نرى فيه سوى بضعة أشرطة، استمعنا إلى بعضها فاكتشفنا السرّ. كانت أفلاماً جنسيّة. اعترانا خجل شديد، وقبعت كل منا في مكانها مخبئة نصف وجهها، وعيناها تتلصصان على الشاشة، لكن الإثارة والرغبة في الاطلاع دفعتانا إلى مشاهدة الأشرطة واحداً واحداً. ومرّة بعد مرّة، كانت تتجدد باستمرار، وهكذا اعتدنا موعدنا النهاري مع الأفلام، وصرنا نوقّت مشاهدتها على ساعة خروج والدة ناديا من المنزل بعد نوم والدها. ولأننا لا نريد أن نُكتشف حرصنا على إعادة ضبط الفيلم عند اللقطة التي كان متوقفاً عندها لحظة تشغيله.

ـ ثم ماذا حدث؟

بضع مرات فعلنا ذلك، ثم سيطر علينا الخوف من إمكان كشف

أمرنا، أو من أن يرتاب أهلها من خلوتنا في غرفة أخيها، ولذا أخذنا تدابير إحترازية، إذ صارت بعد أن تخبىء أحد الأفلام، تستقبلني في مجلس منزلها، ونغلق الباب علينا بحجة أن أخوتها معتادون الدخول بلا استئذان، وأنه لا يصح أن يروا وجهي مكشوفاً. وفي المرة الأخيرة، أعني آخر فيلم شاهدناه معاً كان لبروس ويليس، وفيه مشهد قصير، لامرأتين تتبادلان القبلات، ثم تحاول إحداهما تعرية الأخرى، هذا كلّ شيء، مشهد بسيط وسريع، حتّى إنه لم يكن فيه عري تام.

وجهت عينيها إليّ وقالت: «ممكن تطفئي النور؟»، أطفأته، وألقت برأسها على كتفي.

العتمة قاسمٌ مشترك آخر في كلّ حكاياتي.

تنهدتْ، ثم تابعت:

... وتبادلنا القُبل. لم أدرِ من بدأت أولاً، ولا كيف استطاعت تلك اللقطة تحريضنا، هل فعلت ذلك أصلاً!

ـ وتقززتِ؟

ـ لا، لم يحدث.

ـ ولم تحسّي بالنفور؟

على العكس تماماً، انتشيت. وكان قلبي يضرب على نحو جبار، وشعرتُ.. لا أدري بِمَ شعرتُ؟ ربما بدوار، ربما بالحبّ، ربما بأني فجأة صرتُ امرأة. شيء غريب حدث في تلك اللحظة، اتجاه ما في خريطة حياتي كلّها قد تغيّر، خلايا جسدي نفسها تغيرت! كأني قد أعددتُ نفسي سلفاً لتلك القبلة، كأنها كانت مخبأة في مكان سرّي، كأن... كأني عشتها من قبل، حياة سابقة و...

ـ وماذا؟

لم نعرف ما هذا الذي نُحدثه؟ ماذا يعني الانفجار الفظيع في مُنتهى الجسد؟ ولا النظرات المرتابة التي تطلقها الواحدة منا فوق جسد الثانية؟ ولا أصابعنا التي لا تكفّ عن التشابك بعضها ببعض كلما تصاعدت أنفاسنا؟ غير أننا استمررنا، بحذر في البدء، ثم بكامل انطلاقنا وقد قادتنا كلّ خطوة إلى الأخرى بعد أن تزوجتْ أختها الأخيرة واستقلّت هي بغرفة وحدها. كانت أروع شيء حدث أو يمكن أن يحدث في حياتي. ما زلتُ عندما أغمض عيني أستطيع أن أتنفس رائحتها، وأرفع خصلات شعرها البنيّة عن عينيها، وأهمس أني «موت أحبك»..

ـ ما الذي حدث وأدّى إلى انفصالكما؟

تمت خطبتي. كنتُ قد رفضتُ أول الأمر، أخبرتها أن لا حاجة لي إلى سواها ما دامت هي معي، فردّت عليّ: «ولكنني لن أمنحك فريق كرة قدم من الأطفال!». أقنعتني، الحياة فُرص، والفرصة التي تمضي لن تعود، ثمّ إنه ابن عائلة طيبة وأخلاقه أكثر طيباً وموظف بنك محترم ومرتبه الشهري

من خمسة أرقام ويصيّف في أراضٍ خضراء لم أطأها، وما سيسنح لي معه رائع، وكثير... وكلّ ذلك الكلام. اعتقدتُ أحياناً أني وافقتُ لشدة إصرارها إبان ذاك، لأرضيها وليس أكثر. كانت الخطبة كلّها عليّ، عقد الزواج والمهر والحفلة والفستان ودقّ الطبل والصالة العريضة، ويدا علي تلبساني «الشبكة»، ويداه تلبساني الخاتم، ويداه تديران حول معصمي الساعة والسلسال، ويداه تطعماني الكعكة، ويداه تسقياني العصير. تلك التفاصيل بدت لي لعبة، أو نزهة في مدينة ملاهٍ، شيء لطيف وسينتهي. لم أتوقع ما سيكون عليّ المرور به، أو الوقوع في شركه.

ـ أحببته؟

لا، كان رجلاً طيباً. قلبه كبير، وقلبي كلّه عند ناديا. في الحقيقة، أحببته كإنسان، لم يكن سهلاً ألا أحبّه مطلقاً، لكن، كرجل؟ لا. منذ أول أيامنا بدأت تغار. كانت تجنّ إذا بات في منزلنا وتمطرني بمليون اتصال. وكنتُ حمقاء، فسررتُ لظاهر الصورة، ناديا تحبّني وتغار عليّ، ما أروع هذا! لكن غيرتها صارت حبالاً تشدّ معصمي، وعيوناً تتربص بي، وشجارات كانت متأكدة دائماً أنه يضاجعني وأني أخبيء عنها الحقيقة. وانعكس سوء علاقتي بناديا على علاقتي بعلي، كنتُ أنتقم به ربما، عذّبته كثيراً، ألين معه مرة فأتودد اليه راغبة في الاعتذار عن أخطائي في حقّه، ومرات أغلق الهاتف في وجهه بسبب أقل زلة وأمتنع عن قبول زيارته.. يحقّ له ألا يغفر لي أبداً.

ـ وانفصلتِ عنه؟

لا تكوني لطيفة هكذا! قولي: تطلقنا. في بضعة أشهر تخلّت عني

ناديا تماماً. كان كلّ شيء يبدو مثاليّاً، ويسير وفق ما خططنا له، نعيش في الشقة نفسها، في الغرفة نفسها، وعلى سريرين سحبناهما ليكونا متجاورين ولحاف واحد، كنا في الرياض، هي تدرس علم اجتماع وأنا تربية فنيّة، وقد بدأنا للتو مستوانا الدراسيّ الرابع. في البيت نطوي النهار والليل ملتصقتين إحدانا بالأخرى، وفي الجامعة نلتقي في كلّ فرصة سانحة. كلّ شيء مثالي تماماً! لكنها بعد خطبتي تغيّرت، كانت إذا صادفتها في الجامعة تدعي الركض بين محاضراتها وتفرّ سريعاً، وإذا هاتفتها بين المحاضرات تتجاهل اتصالي، وفي البيت كانت تتحاشاني، وتحججت مرّة بأني أسرق منها اللحاف في الليل، فجاءت بلحاف آخر، وهكذا شيئاً فشيئاً ما عدنا نتقاسم السرير، ثم صدمتني إذ قررت التحوّل، هكذا فجأة، إلى كلية الزراعة في الملز! لم يكن هذا في حسباني يوماً! وكعادة قراراتها الأخيرة المفاجئة، قررت أن تنتقل إلى سكن آخر، تذمرتْ بحجة أننا نعيش في سجن، حظيرة بقر، جحر أرانب أو قنّ دجاج وليس سكناً، ضاقت ذرعاً بالنوافذ المغلقة، ولولا الثقوب الضيقة في الحاجز الخشبي الذي يفصلنا عن العالم لما عرفنا أن ثمّة عالماً في الخارج وشمساً وشوارع وأناساً. يكفيها ما لاقته من سلاطة لسان القائم على السكن ومن أخلاق السائقين السيئة! بهذا تحججت! وحصلت على ما أرادت، وما كانت أمي لتقبل انتقالي إلى مكان سكن جديد نظامه مفتوح وقانونه الوحيد أن أعود قرابة الحادية عشرة ليلاً. وما كنتُ قد خرجتُ من حيّز سلطتها بعد برغم عقد خطبتي. في الفصل الدراسيّ التالي، كانت قد اختفت ناديا ومعها حنان، إحدى زميلاتنا في السكن، ولم أحتج إلى

الكثير من الثرثرة الجانبية لأعرف إلى أيّ سكن انتقلت ومن هي رفيقتها فيه، وبرغم إصراري على الإنكار ولو بيني وبين نفسي، كنتُ أعرف أن ناديا تهيئ لشيء ما بينها وبين حنان، والأكيد أنها ما تحوّلت إلى قسمها ولا غيّرت السكن معها إلا لتكون أكثر قرباً منها. لم أكن أنكر فقط من باب أن ناديا في طريقها للتخلي عني، بسبب عيشها حالة شغف بإمرأة أخرى. بل لأنها قد تخلت عن اقتناعاتها في أن لا تكون التجربة الأولى لأي بنت، ومن نظرة واحدة أيقنت أن حنان لم تكن سوى بنتٍ غرّة، لم تعش بعد حياتها، لكن ناديا كانت عازمة على أن تطاردها وتقودها إلى فراشها، ولستُ أدري هل نجحت في مسعاها أم لا! إذ بعد عام واحد في كلية الزراعة بلغني أنها سحبت ملفها وقدمت في معهد الإدارة، وما كانت لتفعل ذلك لو ظلت علاقتها جيدة مع حنان، ربما كانت تهوى بنتاً أخرى وتحاول استرضاءها! شعرتُ بأنها خانتني، تخلّت عني بعد أن أدخلتني هذا الوضع عنوة. نقمتُ عليها كثيراً. كان غيابها صادماً ومرعباً كذلك، كنتُ كئيبة وأبكي طوال الوقت، ولأتفه الأسباب، وكان علي لا يتوانى عن مساندتي متى احتجت إليه، بكيتُ في حضنه كثيراً، كان يقول: «إذا كنتِ لا تحبّينني، إذا كنتُ لا أعجبكِ، إذا أجبركِ أحد على الزواج بي فأنا أعفيكِ من أيّ مسؤولية، يمكنني أن أخلصكِ مني إذا كان هذا مطلبك».
حينذاك كان بكائي يتزايد وأتشبث به قائلة: أحبك، أحبك، لا تتركني!
في تلك الفترة، كنتُ قد تصالحتُ تماماً مع فكرة زواجي منه، وخطر لي أنها فكرة رائعة، صرتُ أعامله بحبّ وأقربه من قلبي وأحنّ عليه. في تلك الأثناء أيضاً بدأت أولى ملامساتنا، القبل الصغيرة... وكنتُ أغلق عيني

حتّى لا يشعر بقرفي.

ـ مّم تقرفين؟

ـ من علي.

ـ من علي!

نعم، ربما تعتقدين أنه كان سيئاً، أو فاشلاً في المحاولة، أو قبيحاً مثلاً، لكن، على العكس تماماً. أيّ بنت سواي تحلم بأن تُغرم بهذا الرجل، وتنذر جسدها وحياتها وأيامها لموطىء قدميه. أيّ بنت، لكن، ليس أنا. لم أُخلق لرجل كنتُ أتقزز من جسده. وكان يحسب إغماضة عيني استمتاعاً بما يفعل. وكلما حاولت التجاوب معه، والتمتع بجسده ازداد شعوري بالغثيان. ذات مرّة دفعته عني بازدراء، وركضت ناحية الحمام، كدت اتقيأ. خجلتُ من نفسي ومنه لأني أهنته إلى هذا الحدّ، لم يكن يستحق كلّ الإساءات التي صببتها عليه، وطلبتُ منه الطلاق. لا بد أني شوّهتُ كائناً جميلاً كان يسكن في صدره قبل أن يرتبط بي، وهدمتُ الآمال الكبيرة التي علّقها على كتفِ زواجنا. اعتذرتُ إليه. لو أن بيدي شيئاً غير الاعتذار لفعلته. فكرتُ حتّى أن أُطلعه على علاقتي بناديا، وميول جسدي، لكني خفتُ، لم أرد تشويه صورتي في عينيه أكثر مما هي مشوهة.

ـ وانتهيتما بلا مشاكل؟

عارض أهلي، وأهله كذلك، وحاولوا مصالحتنا لكننا أصررنا على الصمت، كنا قد اتفقنا على بقاء ما حدث بيننا طي الكتمان. في النهاية رضخ الجميع لقرارنا، وتم الطلاق.

ـ ولم تحاولي استعادة ناديا؟

حاولت، ولكن بلا فائدة. حينذاك كانت لا تزوز البلد إلا مرّة كل شهر، لا تردّ على اتصالاتي، أسمع أخبارها وتفاصيل تغيّرها من صديقاتنا المشتركات. كانت في حالة عمى تام، تخرج من علاقة وتزج بنفسها في أخرى أسوأ من السابقة. ولم تكن تلك ناديا التي أعرف، أيّ غبية ومستهترة وفوضوية. حاولتُ استرجاع علاقتنا من حيث قطعتْها. حاولتُ على الأقل أن أجعلها تعي ما تفعل. حاولت أن أريها مدى العبث الذي ترمي بحياتها فيه، لكنها أبعدتني عنها، وراحت تخوض في علاقاتها تلك على نحو مقيت. جفاؤها ناحيتي جلّد خطوتي تجاهها. شعرتُ للحظات أني كرهتها، هي السبب في ما حدث، لم تقاطعني كأني المجرمة هنا! أخيراً، كان عليّ أن أقرّ أن لا فائدة، هذا ما انتهت إليه علاقتنا.

ـ لم تتواصلا بعدها مطلقاً؟

اقتصر تواصلنا في المناسبات العائليّة التي تتيح لي رؤيتها اختلاساً أو مجاملة؟ يئست إلى أقصى حدود اليأس، وكنتُ من البلاهة بحيث تبتّلتُ من أجلها. حينذاك اعتقدتُ أن مجرد فكرة السماح لأحد بلمسي، خيانة لناديا، ما بالكِ بالفعل.. وأردتُ الانتقام منها! أردتُ ذلك حتى أني بدأتُ أستعرض صداقات جديدة كاذبة أمام صديقاتنا ليوصلن إليها أكاذيبي، فتتحرك غيرتها. وخطر لي كثيراً، في أوقات ضعفي وتعبي أن أنتقم منها عبر جسدي، أن أردّ لها الصفعة اثنتين، وأعيث في جسدي علاقةً تلو أخرى، كما تفعل، لكني كثيراً ما شعرتُ بأني سأهوي إلى الحضيض. ظلّ الحال هكذا عاماً أو أكثر.. ثم سلّمتُ بأن عليّ مواصلة

حياتي، لا جدوى من انتظار ما لا يأتي.

ـ وماذا فعلتِ؟

لا شيء مهماً. لم يكن عندي أيّ اهتمام. أقمت علاقتين، بل ثلاثاً. ارتبطتُ بتلك النوعية من الناس. لا أدري كيف أشرح لكِ.

ـ جرّبيني.

الناس الذين بالكاد متوفرين؛ يستطيعون أن يمنحوا، ثمّة في حياتهم متسع وفي قلوبهم مكان.. وطنتُ نفسي على أن لا أتورط في أيّ علاقة أو أخذها إلى مدى أبعد من السطح. بلا تبعات ولا حتّى تملك موقّت. شعرتُ بأني خفيفة، لست مدينة لأحد. كنتُ خائفة. ترهقني فكرة أن أعود إلى متاهة الحبّ ومرتعبة من احتمال أن أتعرض للهجر والتخلي مثلما فعلت بي ناديا. أول علاقة عشتها بعد ناديا انتهت في بضعة أيام لشدة إحساسي بالذنب، والبقية لم تكن أحسن حالاً إذ كنتُ أسارع إلى إطفاء جذوتها بنفسي، قبل أن تهب ريح معاكسة وتطفئها وأبقى وحيدة.

ـ وأنا من أولئك الذين بالكاد «متوفرين؟»

ـ لا أدري... حين التقيتكِ بطريقة ما عرفتُ أنكِ وضي...

ـ أننا ماذا؟

رأيتك تنظرين ناحيتها، لكنكِ لا تحدقين في عينيها. عيونكما لم تلتقِ إلا لماماً. كنتِ تتحاشينها على نحو مهذب غير ملحوظ تقريباً. أنني أجيد تمييز هذه العلامات الصغيرة والتعرف عليها. عرفتُ أنكِ لن تطيلي البقاء مقيدة إليها. شيء داخلك كان حرّاً وطليقاً.

- كيف تعرفين أني كنتُ مقيدة إليها؟

- أعرفُ ضي. الجميع يعرفها.

- كيف بادرتِ يومذاك إلى تقبيلي إذاً وأنت تعرفينها؟

- تستطيعين القول: كانت حركة نصف قذرة.

- لا أفهمكِ.

كنتُ أعرف من تباهيها أنّك لستِ من طينة شبيهة بطينتها. وأردتُ مساعدتكِ على الخلاص منها، وإنْ بدفعكِ لخيانتها. لم تكن لتقبل بأن يضع أحدٌ يده على «ممتلكاتها»، إذّاك إمّا أن تكون غير معنية بكِ فتتركك، أو مهووسة بكِ.

- وماذا بعد؟

- فتذيقكِ درك جحيمها، وعندئذٍ ما كنتِ ستبقين.. يؤلمكِ ما أقوله؟

- لا تهتمي.

- طمئنيني. أنا غبية، لم يكن يجدر بي إطلاعك على هذا.

- صدّقيني ليس هذا بالأمر المهم.. أما زلت تحبين ناديا؟

- آه... «أحب» ضئيلة جداً لتكون ناديا جديرة بها. في الحقيقة، قلبي ممتلىء بناديا حتى أنه يعجز عن احتواء أيّ شخص آخر.

- وماذا لو عادت؟

- لا تدفعيني إلى مجرد التفكير في ذلك. هذا مؤلم.

- هل تقبلين عودتها؟

- ولآخر صلاة أُصليها سأدعو فيها أن تعود. وتسألين بعدُ هل أقبل أم لا؟

- وإن عادت...

- ولكنها لن تعود!

لطالما فكرتُ أن يكون الواحد موهوباً فذلك يُحتم بداهةً أن تكون الموهبة ذخيرته المضمونة حتى يغادر هذه الحياة. أنا في فورة شبابي وقوتي وأفهم العالم بهذه الطريقة: عالم دائم، لا يصاب بالشيخوخة. والآن، أطالع دارين وأفكر أنها مجرد شخص يتكلم بارتباك، ويفتش في جوارير ذاكرته عن تتابع الأفكار وتتالي محطات تاريخه الصغير، وعن الجملة التي يفترض به أن يلقيها في فوهة الصمت ولا يقوى. شخص عادي مجرد من ميزة موهبته، وحكاية ناقصة. أفكر: أن تكون موهوباً لا يعني أنك خارق.

أحياناً، نحبّ للسبب الخطأ، وأحياناً أخرى، كحالي مع دارين، كنتُ لا أحبّ للسبب الخطأ أيضاً. في الحقيقة، كانت دارين من ذلك النوع الذي يشعرك باستحقاقه كل نَفَسِ حياة، لحظة وجود، منحة ربّ، وكل حبّ بوسع أحدٍ أن يعطيه؛ لكني لم أكن بعدُ قادرة على الحبّ، غير قادرة أن أفلت نفسي من ذلك الارتفاع الشاهق.

يمكنني تأويل الأمر: الحبّ وهم، الحبّ حالة استنزاف، الحبّ متواصل، الحبّ متاهة بلا مخرج، الحبّ... ها أني أملكُ عشرات المسالك كي لا أعلق في الحبّ. في الحقيقة، ليس من حقيقة في كلّ تلك التأويلات، سوى الخوف: هذا النقيع القديم من الحموضة ينحت في قلبي. الحبّ مؤذٍ، وكلّ مرادفاته حالات موازية لا تتقاطع معه، الحبّ والفقد، الحبّ والهجر، الحبّ والغياب، الحبّ والأسى.. أحطتُني بالمزيد من الأسوار والفولاذ والخنادق، وكان من الصعب على الحبّ أن يأتي

وحيداً بلا دعوة، ويجتاز كلّ أسلاكي الشائكة. لم يحدث أن تشبعتُ بأحد ولم أسمح لأحد أن يكون جزءاً يومياً من حياتي. لم أحبّ كفاية، ذلك أن العصافير لا تزور حقول الفزاعات.

مع دارين، شعرتُ أني أملكُ طمأنينة وافرة لأضع قلبي بجوارنا على الطاولة، من دون خوف أن تسرقه حين أغفل عنه وعنها، ليس لأنها لا تستطيع، ولا لأنها لا تريد، وإنما لأنها فطنت منذ البدء كم أنا مُهرة خاسرة في هذا المضمار، فكفتني مشقة الرهان عليّ.

ومعها، بدأتُ أكتشف جسدي من جديد، كانت تغويني ببطء، وتشعل شمعتين، وتهمس لي بفضائح يرتعش لها جلدي. وكانت تقف على الحياد دائماً إذا ما أردتُ توريطها كطرف ثالث بيني وبين جسدي. معها، كان لأعضاء جسدي أسماؤها واحداً واحداً، حتّى أكثرها سريّة، وللحظاتنا تعابيرها الخاصّة، وما اعتقدته بذاءة رخيصة لا تليق بدارين وشاسع لطفها، كنتُ أكتشف فيه نوعاً من الإثارة الفاحشة القذرة، من قال إن القذارة لا تثير؟ وكانت علاقتنا الجسديّة: «جنساً»، وليست كما اعتدتُ تسميته تلميحاً: «ذلك»!

تحدثنا كثيراً عن الله وذنوبنا وشكل اشتهائنا، وكثيراً ما كنتُ أسارع إلى إغلاق الأبواب التي تفتحها دارين من ورائها. هذه المناطق التي لا آمن على نفسي فيها من السقوط، لكنها كانت تعاود فتحها ولا يصدر الباب صريراً. كانت تقول: «إذا كان الله قد خلقني هكذا، فما ذنبي أنا». وبدوري أتساءل: «كيف خلقني الله؟ بأيّ صيغة؟ هل يخلقُ الله الأشياء المعتلة الفاسدة؟» وكانت تزجرني: «ثمّة حقائق، وثمّة وقائع، وثمّة أحكام

مسبقة، لا تمزجي بعضها ببعض مطلقاً». وكنتُ لا أفهمها جيداً! وبمرور الوقت كنتُ أفهم، وتنكشف الطبقات الدكناء عن عيني، أقول لها: «حسناً، مارستُ جنساً مثليّاً، لكني لستُ مثليّة، تكوين شهوتي ليس..». وأنظر ناحيتها فأجدها تبتسم بهوادة، وأواصل كلامي: «لا أعني أنه أمرٌ خاطىء. لو كنتُ كذلك لكان هذا شأني وأنا الكفيلة ببتّه». وأراها تضحك، تقول: «لا تعتذري عما أنتِ عليه وما تؤمنين به، ولا تبرري لأحد!». وأسألها: «هل سيىء أن أقول لكِ هذا؟ إني أشتهي فيكِ رجلاً لن يأتي». فتجيبني: «ولا تُجرّمي رغباتك وحاجاتكِ أيضاً!».

غير أن ناديا، وفي معظم أحاديث دارين، كانت موضوعها المفضل: ما حدث في مرّتي السابقة؟ لماذا انتهت علاقتنا؟ كيف انتهت؟ أحبّها، لا أحبّها؟ تغيظني قدرتها الفائقة على تفريخ مثل تلك الأسئلة، فلا تنضب، كلّ سؤال يتفرع منه مئة. اعتقدتُ من الإيحاءات التي تكسو وجهها وأسئلتها أنها تملكُ صورة عن حقيقة ما حدث، وتريد مطابقتها مع الصورة التي يمكنني تقديمها، فيما لم يتغير شكل إجاباتي، بقيتُ أمدّ فضولها بالقليل من الكلمات والكثير من الحواجز حتّى جاء اليوم الذي سألتها فيه:

ـ ألم تقولي لي قبلاً إنكِ لست حريصة على تفاصيل ما حدث؟

ـ قلتُ.

لكن، ليس هذا ما تفعلينه!

ـ أنتِ تركتِ الباب مفتوحاً أمامي.

ـ أنا؟

ـ نعم، أنتِ. ألا تضايقكِ أحاديثنا عن ضي وعلاقتكِ بها منذ أول سؤال طرحته عليكِ؟

ـ كثيراً.

ـ ومع ذلك لم تخبريني.

ـ لا أفهمكِ!

ـ بل تفهمينني. لا تتوقعي من الآخرين أن يكونوا صارمين في التزامهم بحدودكِ، إذا كنتِ أنت نفسكِ لستِ صارمة بشأنها.

ولم تعُد إلى ذلك الموضوع مطلقاً. أيقنتُ أن لديها بلورة سحريّة تمنحها الإجابة المناسبة عن كل سؤال ألقيه عليها، والجملة المحكمة التي تدفع بها عجلة الكلام. لا أدري هل ولد هذا الإيمان لديها منذ نشأتها الأولى، أم كانت مثلي تضيع مع كلّ خطوة إضافية ثم اهتدت بمرور الوقت. الوقت، الوقت، الوقت. ملعون هذا الوقت! أنا التي تغني «والتلج إجى وراح التلج.. عشرين مرّة إجى وراح التلج» كلما قلتُ إني كبرتُ، صرتُ ناضجة، كنتُ أعود إلى الشعور بأني مجرد طفلة تلاعب الريح فستانها وتطيره.

تقول أمي: «الحياة محض انعكاسك»، وأنا أفكر في ما إذا كان كلامها صحيحاً. وكلّ كلام أمي بالطبع صحيح، لماذا انعكاسي متناقض لهذا الحدّ؟ انعكاس جارح شوّه وجهي في كلّ مراياي، وآخر في عيني دارين، انعكاس طفلة تائهة تفتش عن يد منقذة. أجربُ التفكير في أن مراياي ليست معتكرة، وانعكاسي على ماء الحياة ليس هلاميّاً، وممزقاً بعشرين حجراً.

(١٧)

«صدقيني، الحقيقة الوحيدة الموجودة في العالم كلّه هي تلك التي تعيشينها، والحقيقة التي عشتُها: غياب أبي؛ لا مجد بطولته، ولا رقعة ولائه الواسعة، بالنسبة إليّ أنا الصغيرة التي يرتق قلبها شعور غامر باليتم، ليست إلا أباطيل كلام وخرافات أنام عليها، يحكيها جدي ولحيته رطبة بدموع فجر أبيض، وأمي حين أعييها بالأسئلة والنبش.

أخبرتني أمي أني في سفرته تلك، لم أنم طوال يومين، وكانت تلفّني بشيء من رائحته لأهدأ، فلا أتوقف عن البكاء، كأني كنتُ أعلم أن سفره يخبىء لي قدراً قاتماً! ولم يعد. لثمان سنوات تالية لم تطأ قدمه عتبة البيت. كان مسافراً إلى إيران، ليرتب أموره هناك، ومن ثم سيأتي ليأخذنا، وحين أتى استبدلوا منزله بالقضبان، وسريره بلحاف مهترىء.

كان العالم مهتاجاً، القطيف ملتهبة ومدخنة بقنابل الـ... يا الله! زجاجات البيبسي كولا الفارغة وقطع قماش أبيض و«تنكة» كيروسين، وصارت قذائق نار وشظايا. كانت انتفاضة بسيطة جداً، والجميع يريدون شيئاً هائلاً، يقلب موازين الأرض، والثورة الإيرانية تعشي عيون الجميع، وتمدهم بنسق مضيء ليحذوا حذوه.. إني لن أفهم أبداً ما حدث إبان

ذاك، ما الذي غلى وفار؟ وأيّ مزيج لاسع غير وجه القطيف؟ لكنني أدركُ تماماً أني عشتُ واحداً من أسوأ كوابيسه.

ولم يعد لي أب. الآباء لا يسكنون الصور، ولا حكايات الآخرين. لم أكن أتذكر عنه شيئاً، رحل وأنا طفلة تحبو، ولأن الله رحيم جداً ويمحو من أيامنا ذكرياتنا الأولى، كان أبي في ذاكرتي مجرد ثقب معتم. وكبرتُ، جدي يشفق عليّ من يتمي، وأمي تشفق عليّ وعليها من وحدتنا، وانحسار ظلها بلا سند، وعمي يبدو خزينة مال للضيافة.

زكريا، كان الوحيد الذي بدا لي طبيعياً، في عالمي الضيق والملبد بخفاء غريب. والتصقتُ به كظلّه، وكانت تلك أولى مشكلاتي. كثيراً ما كنا نتشاجر ونتصالح عقب ساعة أو أقل بعد أن ننسى وجع الضربات التي تبادلناها، بلعبة أو أحجية، في حين تظل أمي وأمه متشاجرتين لأيام، لا تتبادلان الكلام، وتدير كل منهما وجهها حين تمرّ الأخرى. كنّا مجرد طفلين، وكانتا من الغباوة بحيث تتبعان تفاهاتنا الصغيرة وتحولانها إلى شؤون ضخمة، تستوجب الوقوف عندها كلّ مرّة. بمرور الوقت، دخلنا نحن الدائرة ولم نعد نفلت من عقابنا إثر كلّ مشاجرة، كل منا يأخذ نصيبه من الضرب إضافة إلى الركلات التي سددها واحدنا للآخر. كان جدي يتدخل لمصالحة أمي وزوجة عمي، ويحاول تطييب خاطرهما، إذ كل منهما تريد أن تستأثر بعطفه كاملاً،وتأتي بالصواب إلى جانبها تاركة للأخرى جانب الخطأ، وكان عمي يدعهما تتعاركان ولا يتدخل.

كبرتُ مع زكريا، الند للند. كان أخي، وأبي، وصديقي، كان كلّ ناسي. وبرغم صلفه معي وخشونته الصبيانيّة كان لا يفتأ يحنّ عليّ بين

حين وآخر، مؤتياً شيئاً ما كنتُ أتوقعه منه. ومع أصدقائه الصبيان كان كثيراً ما يخاصمهم منتصراً لي، حين يستخفون بي لأني بنت، والبنات لا يصمدن طويلاً في عالم الصبية المتوحش. أحياناً كان هذا يعجبني، وأحياناً أسخط عليه إذ يحسبني بحاجة إلى نصرته. علّمني كيف أكون ولداً، أتشاجر مثل ولد، وأشتم مثل ولد، وأبصق مثل ولد، وأسرق، وأغش، وأربي الحمام، وألعب الكرة، وأساوم في ثمن كلّ مشوار سأنجزه من أجل أمي ناحية البقالة.

وفي المدرسة أطلقت أبرع كذباتي: أبي مسافر، أبي ذهب للجنة، أبي يعمل طياراً، أبي.. لم أحفل بترتيب كذباتي. كان مهماً عندي أن لا يعرف أحدٌ أن أبي مسجون، أبي حرامي! كيف لي وأنا في السابعة من عمري أن أفهم معنى سجنه. كان الأمر متساوياً بالنسبة إليّ مع كونه مجرماً، سارقاً، سفاحاً.. أيّ شيء باستثناء أن يكون للسجن أسباب مشرِّفة، أو أقلها أسباب غير شائنة، ولا تجلب العار، ثم لو أني فهمتُ ذلك، لو أن كلام جدي لم يكن غامضاً هكذا، وكلام أمي غير ملتبس وفهمتُ، كيف لي أن أشرح ذلك؟ كان هناك ثورة، وما عادت تلك البقعة من الأرض مُعتَرَفاً بها، وسافر أبي إلى هناك برغم حظر السفر، كلّ ما أراده أن يدرس الله ويتعمم، ثمّ أن يأخذ بأيدي الناس إلى الله كي لا يتوهوا في الطريق، وحين عاد أودعوه السجن. لم يكن الأمر بهذه السهولة، ولا بمثل هذا الوضوح. في السابعة من العمر لا نفهم من السياسة شيئاً علماً أننا نكره بالوراثة أمريكا ونشتم إسرائيل وإبليس معاً! وكلما وصل إلى أمّي خبر كذباتي، من إحدى الجارات أو أمهات رفيقاتي في المدرسة ضربتني على

فمي، كما لو أنها تقول: لا يحقّ لكِ أن تخجلي من والدك! وأنا في المقابل أثابر على كذبي، كما لو أني أقول: هذا الرجل تخلّى عني، من حقّي أن أفعل به ما أشاء. أصبح ذلك روتيناً، والروتين لا يوجع.

ثم عاد. كان جدي وأمي يحاولان تهيئتي لعودته، وأنا أضحك وأحسبهما واهمين لفرط ما انتظراه. ولم يأتِ، وأفلت من بين أيديهما وأتركهما يكلمان نفسيهما عن عودته القريبة. عاد، ولم يعنِ لي ذلك شيئاً، سوى الكثير من التخبط والخوف والشتات، ما المفترض به أن يغيّر في حياتي أنا وأمي؟ كيف يكون الأمر وقد صار لي أب؟ من يكون هذا الرجل؟ وكيف هو؟

تحول منزلنا لعرس طوال سبعة أيام وليالٍ، التبريكات والحلوى والبخور والزغاريد، رأيتُ كلّ القريبات والجارات ونساء لم يطأن يوماً منزلنا، وكانت أمي سعيدة مع أنها لا تجلس عشر دقائق ساكنة، وزوجة عمي تتذمر من الفوضى المحدثة في منزلها. وانتهت الاحتفالات الجماعية من دون أن يتوقفوا عن البهجة المعلنة. حتّى ذلك الوقت، لم أكفّ عن الكذب، حين كانت صاحباتي يسألنني عن عودة أبي، كيف عاد ومن أين. لكن أمي منهمكة انهماكاً يحول دون أن تلاحظ تفصيلي التافه هذا، وتوبّخني بسببه! وظلت أسئلتي دونما إجابات، أمي تهرول من مكان إلى آخر، وجدي في مجلس الرجال، وبيتنا لا ينقطع عنه توافد الضيوف، وأبي، هذا الغريب بالوجه النافر والملامح الحادّة، الصموت والهادىء بريبة، كنتُ أخشى حتّى الجلوس معه إلى المائدة، فأغض نظري عنه خشية أن ينتبه لنظراتي التي تبحث في وجهه عن سبب.

ومضت أيام كثيرة على المنوال نفسه. الشيء الوحيد الذي كنتُ معنية به هو أني ما زلتُ أنام في حضن أمي، وعلى سريرها، سريرنا. وفي كلّ ليلة تحكي لي «خرافة». المهم أن أمي ما تزال تقصّ عليّ حكايات حتّى أنام! ثم اكتشفتُ في يوم ما أنها تخدعني، صحوتُ خائفة، كان الكابوس نفسه الذي أرى فيه ظلّ رجل يلاحقني ويخرج من فمه دم. صحوت خائفة ولم أجدها جواري، واكتشفت أنها تتركني حالما أنام وتذهب إليه في المجلس، وحنقتُ عليها، قاطعتها عن الكلام وقالت إنها ذهبت فقط لتعدّ له العشاء، هي أيضاً كانت تكذب، لكني بخلافها لم أكن أضربها على فمها.

قال لي وهو كاد يسقط أرضاً من الضحك: «رأيتُ والدكِ يفعل بأمكِ! رأيتهما في المجلس..» الملعون! تطايرت في وجهي كلّ شياطين جهنم، دفعت جسدي عليه وسقطنا أرضاً، واستخدمتُ كلّ حركاتي التي أعرفها والتي اخترعتها للتو ورحت أجرّبها في جسده، الحركات المشروعة وغير المشروعة. كانت تلك أسوأ شتيمة يمكن أن يتبادلها ولدان، وأنا أخذتها بغضب شديد: كانت أمي تخونني معه، ذلك الرجل الغريب كان قد سرقها مني، وكان زكريا شاهد انتهاء أيام مجدي؛ ثلاث ضربات لم أستطع تحملها. وزوجة عمي المُعتادة تحويل كلّ شيء إلى جمهرة تصرخ على نحو هستيري: البنت المجنونة ستقتل ولدها. وأنا لا أكفُّ عن ضربه ولا هو يتوقف عن الضحك. وجاء أبي ليفصل بيننا فرميت عليه تلك الجملة التي كانت وراء مشادّتي مع زكريا، ولا أتذكر حتّى مدى سخطي، لأتلفظ أمامه بتلك الكلمات، صمت للحظة، ثم أمرني بصوت

يعلو عليّ للمرة الأولى أن أذهب إلى غرفتي. كنتُ في داخلي أصرخ: ما الذي يعطيكَ الحقّ يا هذا؟ لكنني في الواقع كنت مرتعبة من نظراته، فكرتُ أنه قادر على تطيير وجهي بصفعة واحدة، ولذا أطعتُ حالاً

أُمرتُ بملازمة غرفتي على نحو مستمر، وأُمر زكريا أن لا يقترب مني.

كان الوضع في أشد حالاته توتراً بين أبي وعمي، وفي أشده بغضاء بين أمي وزوجة عمي وكان ثمّة فكرة مخيمة على الجميع ولا يجرؤون على الحديث عنها علانية، كنتُ أراها بوضوح في نظراتهم، في صمتهم، وأوضح ما تكون عندما كانت أمي تفتش جسدي وأنا أستحم، كنتُ ما أزال بالنسبة إليها طفلتها الصغيرة ذات الثلاثة أعوام، والتي تخاف عليها من الإنزلاق في المغطس، أو من دخول الصابون في عينيها. يفكرون: بما أننا متقاربان تقارباً يجعله يخبرني شيئاً كهذا، ويستخدم جملة كتلك، فهل تعدّت العلاقة بيننا ما كانوا يرونه؟ دهمهم الظنّ بوجود علاقة جنسية بيننا، ولا بد أنهم فكروا في كلّ تلك الأوقات اليومية الطويلة التي قضيناها بعيداً من أنظارهم، إلى أين مضينا بها؟ كانت فكرة سخيفة. أسخف فكرة خطرت لهم على الإطلاق.

بعد فترة، وهرباً من كلّ المشكلات اللاحقة، انتقلنا إلى بيت منفرد. لم يكن مرحباً بزكريا في منزلنا، وكانت زوجة عمي لا تطيق رؤيتي. انتهى بنا الأمر ابني عم يتبادلان تهنئة العيد من عام إلى آخر في أحسن الظروف. ربما غفرتُ لأمي خيانتها، ولأبي غيابه، لكنني لم أغفر لهما أبداً حرماني من زكريا.

أمر مكوثها في المجلس صار نكتتي، كلما نامت عنده أسبوعاً أو

اثنين ازداد وزنها واضطربت تصرفاتها وصارت تتقيأ صباحاً ومساءً، وتبقى اليوم كله في غرفتها مطفئة الضوء. لا أعرف كيف تدبرت أمر تلك الحتمية الدائمة. كان عمري اثني عشر عاماً حين ولد أول أخوتي، وشعرتُ أني أستبدل بكتكوت أصغر، وكتكوت آخر، وآخر.. أردتُها فقط أن تمنحني سبباً واحداً لانجاب كل هؤلاء الأطفال، سبباً لكي تبتذل نفسها وهو الذي يعفّ عنها، سبباً لـ....

لكن، هكذا هن النساء يحتجن إلى الكثير من الأطفال ليؤمنّ أنهن يستحققن البقاء على قيد الحياة.

ما أكرهه حقّاً: كيف وضعتني في قاعة اختبار أربعاً وعشرين ساعة يومياً من أجل أحد شكوكها فيّ! ثم عند اقترافي أول أخطائي سلبتني ببرودة دم قاتل مأجور، كلّ امتيازاتي. كان خطئي ذاك أشبه بكاميرات الاستخدام للمرة الواحدة، كان خطأ المرّة الواحدة. لكن يبدو أننا نحن والأسطوانات المدمجة شيء واحد: سعتنا غير قابلة لإعادة الكتابة. حتى غشاء عذريتنا لا نملك منه نسخة احتياطية.

عرفتُ دائماً أنها تراقبني. كان ذلك جلياً حدّ أن عماي يراه. كانت تتصل برفيقاتي حين أتأخر في بيوتهن خمس دقائق عن موعد عودتي المفترض، وتقف بباب المدرسة بانتظار خروجي، وتأخذني بيدها كلّما احتجت لشراء كرّاسة من المكتبة القريبة. في أوقات، كنتُ أظنها ما تزال تحبني بالطريقة التي كانت عليها وقت غياب أبي، ولذا تخنقني بانتباهها.

لكن، للشكّ رائحة لا تخطئها الحواس.

في ليلة باردة من تلك الليالي التي يبدو فيها أن كلّ خيوطك بالعالم قد

انقطعت، كانت مجرد لعبة، شأن جلّ حياتي، ضربت الأرقام وارتعشت السماعة في يدي وقلتُ: «آلو» بطريقة حاولت أن أضفي عليها نبرة بنت ضليعة بمثل تلك التحرّشات والطرق الغبية في إيقاع الفتيات، لا مجرد ساذجة تجرب ما لم تجربه قبلاً. «آلو» ثم سكتُ. وحين طال سكوتي أُغلِقت السماعة المقابلة في وجهي. ضربت رقماً عشوائياً آخر وسألتُ عن فاطمة، فكرتُ أن كلّ البيوت هنا لا بد فيها فاطمة، ثم فكرت: سأوقع فاطمة تلك التي حلّ عليها عبث اختياري في مأزق وأنا أهاتفها في ذلك الوقت. لم يكن العالم مثلما هو عليه الآن. كنا ننام في العاشرة وتعتم القطيف كلها إلا من أضواء أعمدة الشوارع. ولم يكن من فاطمة. وبدا أني أيقظتُ مهاتفي، انتشيت بصوت ضيقه وعاودت الاتصال. فردّ عليّ بحدّة: «قلنا لكِ الرقم خطأً!» وأغلق في وجهي السماعة. خطر لي أنها لعبة لذيذة فواصلت الاتصال العشوائيّ. اخترتُ في عددٍ منها رقم بيت عمي، وكان يردّ عليّ حسين فأضع السماعة. كلّ ليلة كنت أفكر في زكريا. استطاع أهلي أن يقتلعوا عني زكريا، ولم يكن بمقدورهم أن يقتلعوه مني!

قبل أن ألتفت، كنتُ على يقين أنها أمي. لديها تلك القاعدة: كلّ عقاب متوائم مع الخطأ الذي أدى إليه في طفولتي، ولأني كنتُ أحترف عضّ الأطفال، كانت تعض ذراعي مثلما فعلتُ بأحدهم، تضربني على يدي حين أسرق، على فمي حين أكذب، على أذني حين أرفع سماعة الهاتف و... لا أظنه تطلب الأمر منها خمس دقائق تفكير لتأتي بكل تلك العذابات الصغيرة لأكفر عن خطيئتي. كان كافياً أن تعاملني مثل كلبة

وتحرمني من ميزة إنسانيتي».

تقول دارين: «في ذلك الوقت، كانت القطيف مختلفة، يقولون إنها كانت أكثر بساطة. لكني أعتقد أنها كانت لا تنام آمنة. حينذاك كان لجملة «للجدران آذان» معنى حقيقي. المدسوسون كُثر، والأسرار أكثر. الأسرار باهظة ولا يمكن العيش في ظلّها بسلام. كان كلّ شيء حاداً وحاسماً. كتاب ديني يعادل بندقية، وشريط تسجيل يعادل طلقة مسدس، وعزاء حسينيّ يعادل كتيبة معارضة كاملة. ربما في ذلك الوقت تعلمت القطيف كيف تكون متحفزة دائماً ومنغلقة. أحياناً، أشتهي أن أحمل عيون الغرباء وأنظر إليها، أو عينيك، لأني كل ما حاولت أن أخفي بإصبعي عام الـ١٤٠٠ أراه ينضح من بين أصابعي الأخرى. بحثتُ ولم أجد أن القطيف قد أُرِّخت في ذلك الوقت، ربما كان شيئاً لا يجدر بنا إلا أن نكون متكتمين حياله. لكنه طَبَع القطيف بوجه آخر وجميعنا نعيشه وسنظل نعيشه. مشكلتنا ربما أننا نجهل تفاصيله وحقائقه المطويّة، أو مشكلتنا أننا أكثر جهلاً من أن نستطيع استيعابه. أفكر مرات أنني لا أفهم ما حدث لأنني امرأة. النساء لا يفهمن التاريخ لأنهن لم يسجلنه، والتاريخ مجرد شرطي فاسد يُشترى بالمال والقوة».

قنابل المولوتوف، كوكتيل المولوتوف، كأنها هكذا. في ذاكرة بعيدة كان حسن قد حدثني عن هذا، غير أني كعادتي، أضل طريقي في التاريخ وأنسى. حالما عدتُ للبيت يومذاك، دخلتُ النت وكتبتُ في خانة البحث «القطيف / ١٤٠٠». كانت غالبية المواقع مُغلقة، وعبر المقاطع الصغيرة التي تتيحها الاقتباسات في صفحة البحث لم أتبين منها تفصيلاً

ذا جدوى أو كلمة تقودني لخيوط أخرى للبحث. وإذ أخذني البحث إلى «تاريخ القطيف» قرأتُ عن عشتروت، إلهة الخصب والجمال، عن تاروت أقدم بقعة استيطان بشريّ، عن «مملكة البحر» التي خرج منها الكلدانيون والأشوريون والبابليون والحثيون والفينيقيون، والتي تعاقب عليها الأكديون ثمّ، البابليون ثمّ الكاشيون ثم الأشوريون ثم نبوخذ بن نصر والفرس وقبائل عبد القيس فدولة الإسلام والأمويون والخوارج والعباسيون والقرامطة والعيونيون والبرتغاليون والأتراك العثمانيون وأخيراً، أصبحت محافظة القطيف في المملكة، حتّى امرؤ القيس أخذ منها قطفة، ودارين لا تُصدقه يقول: «إنّا غريبان هاهنا»!

وأنا لم أعرف القطيف إلا منذ بدأتْ تردم البحر. ومنذ ذاك، وأنا أدير ظهري لها باتجاه الماء، ومن خلفي تبزغ شوارع وأحياء ومناطق، وأدلّ عمر على الخريطة التي وجدتها مصادفة في موقع إلكتروني لإحدى القنصليات؟ أحاول أن أعرِّفه بالمدينة التي لم يزرها يوماً، ويسألني بريبة: «هل سأُطرَد حقّاً لو أتيت القطيف؟»، أجيبه: «يعرفونك من مرزام شماغك أو سكسوكتك، ويطردونك شرّ طرد!»، وأسحب خلف سؤاله ضحكة طويلةً، طويلة.. فيعلق بحرج: «يا عبيطة! ذلك أنّي سني!»، ويدغدغني شعور بالذنب لسخريتي من سؤاله، فأقول: «تعال، إذا لم تسعك الأرض تسعك العيون»، أشير إلى الخريطة، هذه، هذه، هذه ويقاطعني: «ولكن أين بيتكِ؟»، ولا أجد مكان بيتي على الخريطة.

شعرتُ لوهلة بالخوف، دارين تشغلني بفوضى أسئلتها. لطالما كانت موبوءة بالعالم وملتصقة بكائناته، وأنا أخاف من هؤلاء الذين يمنحوني

ذاكرة وتاريخاً. أخاف لأنهم يمنحوني شيئاً يبقى معي بعد أن يرحلوا، كذلك أخاف من بطاقات المعايدة، والهدايا، والرسائل، كلّ الحصارات الصغيرة التي لا ننتبه لأثرها علينا إلا متأخرين، وإذا كان بإمكاني التخلص من الهدايا، فكيف يمكنني أن أخلي فكري من أصواتهم العالية.

كانت تتحدث عن القطيف وكأنها تعيشها بشتى تفاصيلها مع كلّ نَفَس، وأنا لا أعرف من القطيف غير الحيِّز الضيق جداً من التاريخ، والحيّز من الجغرافيا المُفرغ بالنسبة إليّ. كانت القطيف بلا معنى عندي، بلا قيمة حقيقيّة، أعني في اللفظة ذاتها، ودارين اتخذت منها اسماً تحمله، وذاكرة توقظها. دارين التي تحمل الأماكن والأشياء والأصوات والروائح وأطياف الضوء معها، في روحها، وتجعل من كلّ شيء مهما بلغ صغره وخِفته، ناقلاً لحساسيتها المفرطة. تخيفني، لأنني لا أحتمل أن أكون في تماس دائم مع العالم، ولا أن أدخل أصابعي في غلالة رمله.

تضيف: «أكره عام الـ١٤١٥، أشعر بأنه تم الغدر بي... خيانتي. لماذا كان عليهم أن يمضوا خمسة عشر عاماً في الحصار والغياب والتعتيم ليحصدوا نهاية هزيلة كهذه؟ أيّ مكاسب حقيقيّة حصدناها؟ ما زال وطناً نعيشه بالأجرة، وأرضاً يراودنا الجميع على ولائنا لها! ما زلنا نُساس بحمق فادح، ونُقتاد إلى مقاصلنا مثل الخراف! والآن، يدهشنا زخم التغيير الذي يُحدِثه فينا الحادي عشر من سبتمبر، كأننا جميعنا فتحنا أذرعنا للسماء، جميعنا بلا استثناء، وصلّينا، وكانت الملائكة من اللطف بحيث تفخخ العالم بالنار والموت لتهُب علينا رياح التغيير، ونحن من الغباوة بحيث نصفق لأن الخرائط من الآن فصاعداً سيعاد رسم حدودها!

تخيلي فقط شكل اليوم الذي سيأتي ونكون نحنُ فيه خارج الحدود، وخارج الخريطة!».

صمتتْ وقتاً ثقيل الوطء ثم أردفتْ:

ـ ما عدتُ أريد أن أكون ضحية أحد، خصوصاً أمي. أنا لا أكرهها ولا أحبّها. لكنيّ أيضاً لا أدين لها بشيء. لا شيء على الإطلاق.

ـ هل كنتِ تفكرين في ذلك ماضياً.

ـ طوال الوقت! كنتُ حنفية شكاوى لا تتوقف عن تسريب الماء من فمها! والآن سئمتُ تماماً. عندي حياة أريد أن أحياها وأنا قادرة على أخذ زمام أمرها بيدي.

ـ لكن والديك كانا مسؤولين عما حدث، أليس كذلك؟

ـ حتماً، أنا لا آخذ ما حدث على عاتقي وأخلصهما من ذنبه. وليس لدي غفران كافٍ لأتجاوز كلّ ما حدث. لكن، عمري أربعة وعشرون عاماً، أعتقد أني كبرتُ كفاية لأحقق حياة لا يكونان هما ألفها وياءها.

ـ وما كانت خطوتكِ الأولى؟

ـ شيء صغير جداً، وغريب جداً بالنسبة إليّ. اكتشفتُ هكذا، فجأة أني لا أُقفِل باب غرفتي اطلاقاً. بعد فترة مما حدث، كانت أمي قد اقتنعت بحسن سلوكي وبأني دفعت ثمن غلطتي، فأعادت لي حقوقي التي أخذتها، منها حقّ الحصول على مفتاح غرفتي واستخدامه. لكني لم أعد قادرة على استخدام ذلك الحقّ. صارت هي لا وعيي، وصرتُ بلا اختيار أنفذ عقوبتها على نحو دائم كما لو أن الله سمح لي بالخروج من الجحيم، لكن قدميَّ لم تتحركا. أدركتُ حينذاك أنها تسكن فكري، وأني أتلفتُ،

وأدقق، وأحسب حتّى كلماتي لأني أجدها حيثما ذهبت. كانت تلك خطوتي الأولى، أن أغلق الباب بالمفتاح.

بدا أنها تفكر، أعرف أن دوري الوحيد هو أن أحسسها برغبتي في الاستماع وأحرّضها ببعض الأسئلة، في ما عدا ذلك، كان عليّ أن أخرس وأنتظرها ريثما تصبح مستعدة لتواصل الكلام، وواصلتْ:

ـ تعرفين شيئاً؟

ـ ماذا؟

ذات مرّة، كنا لا نزال نسكن مع عمي. إثر مشادة ما ضربتني أمي. واختبأتُ في غرفة حسين. هناك، شغلت الشريط الموجود في مسجلته وكانت فيروز. غفوت على صوتها ذلك اليوم. ولذا أفكر: كلّ ما كان سيئاً في حياتي، كان في الجهة المقابلة منه شيء رائع. لو لم تضربني لما عثرتُ على فيروز، لو لم أرسب لما كانت ناديا في العام التالي زميلتي المجاورة في الصف. لو... وربما لما كنا الآن معاً، نقول هذا كله.

ـ أسألكِ شيئاً؟

ـ أيّ شيء.

ـ ما زلتِ تتذكرين تفاصيلها؟

ـ أذكر حتى أصغر تفصيل قد يخطر ببالكِ.

ـ رقم هاتفها مثلاً؟

ـ طبعاً.

ـ وما هو؟

رفعت سماعة الهاتف، وضربت الأرقام من ورائها ثم أعطيتها

السمّاعة، وكانت تُنقِّل عينيها بيني وبين أصابعي على أزرار الهاتف وهي في حالة أقرب للرعب. لا أدري لماذا فكرتُ في ذلك تلك اللحظة، ولا كيف اندفعت لتنفيذه، أنا التي أؤمن أن لا حقّ لي بالتدخل في حياة أحد. وبصرامة ألتزم بحذافير إيماني. كانت ناديا تقف في عيني دارين كظل فاحش العتمة، يلاحقها حتّى في أحلامها القصيّة. إذاً، فما من فائدة من محاولة الهرب. كانت بحاجة إلى من يرمم معها قلبها، إلى من يساعدها على استعادة حياتها، إلى من يحبّها دون متطلبات ولا خذلان ولا دفعات مسبقة على الحساب؛ وما كنتُ أنا لأفعل، ولعل لدى ناديا كلّ الإجابات الصحيحة عن أسئلة دارين.

سألتني بذهول: «ماذا تفعلين؟» وأعادت السماعة إليّ، كان صوتاً يقول: «ألو.. نعم» فأجبته: «مرحباً، هل ناديا موجودة؟» فردّ عليّ: «لحظة». قلتُ لدارين: «نستطيع الآن أن نغلق كما لو أن شيئاً لم يحدث، وتستطيعين أن تأخذيها وتفعلي شيئاً، ألم تقولي عندكِ حياة لتعيشيها؟» قالت:

ـ ولكني لا أعرف ماذا أقول لها؟

ـ قولي لها ما تفكرين فيه بأبسط صورة: اشتقتِها، ترغبين فيها، ستعطينها وقتاً لتفكر في الأمر، وستهاتفينها بعد يومين لتسمعي منها...

راقبتُ انفعالات وجهها ونسيتُ تتبع ما كانت تقول. شعرتُ بأن صوتها مرتبك جداً، لكنه سعيد. كانت يدها تمسك بيدي طوال المكالمة، وكنتُ أحسّ مدى انفعالها من ضغط يديها. وحين انتهت تركت السماعة تسقط على صدرها، أخذت إحدى المخدات الصغيرة التي تملأ سريري

ووضعتها على وجهها ثم ارتمت على السرير، وقالت:

ـ يا.. يا كلبة!

لم تكن تلك وقاحة. أمر مفروغ منه ألاّ أغضب إذا شتمتني، ولا حتّى أن أتوقع استياءها بقدر ما أشعر بالاطراء. أنا سُكرتها حين تريد أن تلقي عليّ واحدة من جملها الحاسمة، وأنا كرزتها حين تقبّلني، أنا «كلبة» حين أغيظها، لأننا أضعف من تقبل المسرّات المفاجئة بلا توتر، أنا «ملعونة» حين أثبت لها تفوقي.. لي ألف حالة معها وألف اسم تحبب، وإن كان شتيمة.

ـ بشري، ماذا قالت؟

ـ لا أدري...

ـ كيف لا تدرين؟

سحبتْ يدي عن صدرها وقالت: «اسمعي»، وكان نبضها يركض، يركض، يركض. وبعد بعض الوقت، رفعتْ عن وجهها المخدة، وسألتني باهتمام.

ـ ألم يكن من الأفضل أن أترك لها حرية مهاتفتي متى شاءت؟

ـ لا هذه غباوة.

ـ لماذا؟

ـ يجب أن تضمني تفوقكِ!

هاه!!

حسناً، خذي الأمر بحسن نية. هكذا، يتأكد لك أن عندك وقتاً محدداً تنتظرين خلاله، فلا تصيرين رهينة متاهة من الانتظار، مُفرَّغة، ولا

تؤدي بكِ إلى شيء، ماذا لو نسيت، لو لم تمتلك الجرأة، لو لم تعرف ماذا تخبرك؟ من الأفضل أن تبقي متحكمة بالوضع ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ـ هل تعتقدين أنها ستقبل؟ ستعود؟

ـ آمل ذلك.

فكرتْ قليلاً، وهي تعض شفتها.

ـ لدي سؤال شرط ألا تغضبي؟

ـ لن أغضب.

ـ هل تفعلين هذا للتخلص مني؟

ـ كُفي عني، دارين!

ـ بجد، أجيبيني؟

ـ أفعل ذلك لأني. أعتقد أنه أفضل ما يمكنني فعله لأجلكِ.

ـ أتخلص منها!

لم تكن محقّة مطلقاً، وفي الوقت نفسه لم تكن بعيدة عن الحقيقة. منذ تعرّف دارين إليّ والتصاقها بجلدي وأنفاسي، أشعر أني لا أستطيع المضي معها أكثر، إلى حيث لا تعود المياه ضحلة ويرتفع المدّ. لم تكن علاقتنا تستهلك نفسها، عبر كلّ اتصالاتنا وأحاديثنا وزياراتنا وعلاقتنا العاطفية الحميمة. بدلاً من ذلك، كانت تدخل عمقاً مكيناً مني.

بينما كنت أودعها عند الباب احتضنتها بشدّة. تأهّبت جيداً لاحتمال أن يكون هذا لقاءنا الأخير، فتمليّتُ وجهها وتركتها تثرثر ملتقطة سينها النافرة وراءها النصف منزلقة، أردتُ أن أقول لها: «اهتمّي بنفسكِ

لأجلي!» لكنني منعت تلك الكلمات من أن تخرج من فمي، خشية أن أصيبها بالقلق. كانت في أسعد حالاتها منذ رأيتها أول مرّة، ومنذ أول مرّة لم أعد أشعر أنها كائن بنصف روح مطفأة ونصف آخر يتوهّج حدّ الاحتراق. كائن يغني لأنه لا يملك خيارات أخرى.

لم أرد أن تقف على حدّ السؤال عمّا ستفعله بعلاقتنا، وقد صارت معلقة مثل جرس يواصل الرنين في مساحة انتباهها، ولا تجد لهُ حلاً. ليس نبلاً أن أنسحب بمواربة وهدوء مفسحة المجال لدارين لاستعادة ناديا إليها من جديد، ليس نبلاً لأني في المقابل كنتُ أحصد الكثير من الرضى معتبرة أني فعلتُ شيئاً جيداً، وكنتُ أستوفي ثمن اختياري ذاك امتناناً لا يُكال، حتّى صار امتنانها الفائض عثرة مزعجة في غالبية مكالماتنا، الامتنان الذي يُثقل الدَين ولا يخففه.

ولأني متورطة منذ البدء بالعودة المفترضة لناديا، عزمتُ على إبقاء تورّطي لأضمن نتائجه النهائية، ثم أنسحب إلى الأبد. كانت دارين في تلك الفترة مرتبكة تتعثر بين كلمة وأخرى، تحمل داخلها الفكرة الثقيلة: إن أيّ شيء تفعله في تلك المرحلة من علاقتهما متساوي الاحتمالات بين أن يبقي ناديا معها أو يدفعها للرحيل. ولذا سلّمت إليّ طوعاً زمام المهمة، التي لم تشق عليّ، لأني أقف منها موقف المتفرج مهما تكن يدي متورطة في ما يحدث.

«دعي الوقت يدفع الأمور لمجراها»، «ثقي بناديا، ثقي بقلبك»، «لا تنهمري عليها باندفاع، لا تدعيها تذعر»، «دعي عنكِ ما حدث، إنسي أمر غيابكما، لا تتركيها تحسب نفسها مذنبة وإن كانت كذلك»، «من الطبيعي

أن تكون مختلفة، في ثلاث سنوات الجميع يكبرون ويختلفون»، «لا تكوني عدائية، وأيضاً لا تكوني مطواعة أكثر مما يجب»، «أن تحبيها شيء، وأن تشتري عودتها بحبّكِ شيء آخر»...

كنّا قد تبادلنا الأدوار. لم تعد البنت التي تكبرني ليس بعام كامل بل بخمسمئة وثلاثة وسبعين يوماً بالاعتماد على آلتها الحاسبة، والتي تلبس نظارة المُدرسة وتوبخني، صرتُ أنا التي تكبرها، وتعطيها دروساً يوميّة ملخصها: كيف تبني علاقة جيدة وآمنة في عشرة أيام؟ لم يعد غريباً وجود عدد مزدوج من المكالمات الفائتة في شاشة جوالي عند استيقاظي في الثانية مابعد الظهر، وأعرف سلفاً أن السبب هو موعدها الذي سيتم في عصر ذلك اليوم مع ناديا.

الشيء الوحيد الذي لم يكن بوسعي ادعاء الأستذة فيه، كان سؤالاً ضخماً، أحد تلك الأسئلة التي تبدو خبالاً مجرد التفكير في احتمالاتها غير المنتهية: لماذا لم أكن أغار على دارين؟ كنتُ أفتح لها باباً وأدفعها عبره لتصل إلى ضفّة أؤمن أنها ستجعلها بخير، وأيضاً، كنتُ أتيحُ كلّ قلبها وجسدها لتلك الأخرى، الغريبة عني، والتي لا أعرفها إلا من كلمات دارين وشغفها، أفعل ذلك من دون أن يرتعش عصبٌ واحدٌ في جسدي أو تصرخ نبضة واحدة في قلبي، أفعله بطمأنينة كاملة واندفاع مخلص. كلّ هذا لأحمي أكثر المناطق قفراً من روحي، والأبواب التي تخبىء عتمتها عن ضوء دارين! من دون أن أقف دقيقة تأبين على ما كان! من دون أن تلسعني حقيقة أني أبالغ في تعتيم سوادي، أو تصفعني على قفاي انتباهةٌ متأخرة مذكرةً إياي بكل ما أتركه يُفلت مني بلا التفات.

مثلها، كنتُ سعيدة في بعض الأيام لأن الأمر يبدو ناجحاً، ومتوترة في أيام أخرى لأنه على وشك الفشل، أو لأنه سبب إضافي لخيبة طارئة. كنتُ ألتقط أنفاسها على الهاتف وتوترات بكائها، وأسألها أن تهدأ: إن الحياة في مجملها منحنى دائري مكرر، نقاطه المتفوقة نسخ معكوسة من نقاطه السالبة، الحياة مجرد معادلات مكتوبة سلفاً.

(١٨)

على عكس ما تحسبه دارين، أنا مدينة بتبرير ما، إن لم يكن لكل أولئك العابرين في حياتي، فأقلها لي أنا. تبرير بموجبه أنوء بذنب أقل، وجحيم أخف وطأة. عابرون: هذا بالضبط ما كانه العالم بكلّ قاطنيه بالنسبة إليّ، وكنتُ مصممة، ولا أستطيع إلا أن أفعل، على إبقاء روابطي في أضعف حالات تماسكها، مصرة على أن أنسج علاقاتي مثل بيوت العناكب. في الحقيقة، لخيوط العناكب لزوجة ولذيولها وخزات سامة، ولستُ أملك مثلها ولا أريد. اللزوجة تعني الالتصاق، والوخزات السامة تعني أن أقيد كائناً آخر إليّ، وأنا في غنًى عن كلّ هذا.

خفيفة: هذا ما قالته دارين، هذا ما أريده. وأنا لا أفكر بعد، وعمري اثنان وعشرون عاماً، بخفة الملعون كونديرا التي لا تحتمل، الخفة التي هي مقابلة للثقل ومساوية له في فعله، ذلك ما تُعلمنا إياه فيزياء الطبيعة، الأثر الذي تحدثه درجة مئة مئوية هو ذاته الذي تحدثه الدرجة نفسها بالسالب. خِفّة الصفر ما أريده، الصفر وهو الحقيقة الوحيدة المطلقة، وعلى جانبيه، الأشياء مجرد صور متعاكسة للحقيقة نفسها.

لا أكاد أفطن الآن إلى ما أنا عليه فعلاً، الكائن الذي هو أنا، كنتُ غياب الآخرين، والثقب الأسود في ذاكرتهم، كنتُ خطوة إضافية

خارجهم، وبقعة ملوثة في روزناماتهم، كنتُ سبباً للخوف لأنني قبل أن أغادر، وكثيراً ما غادرتُ، لم أكن سبباً معقولاً له أو مُفترضاً. في الحقيقة، لم يتركني أحدٌ قط! حسن نفسه لم يتركني. في حين يوشكُ أولئك الذين تركتهم أن يتعدى عددهم أصابع يدي، ولعلهم الآن في مكان ما يوغلون في النسيان، ولعلهم مثلي، سقطوا في عتمة الخوف الذي لا ينتهي.

دارين تُفسر خوفي، شأنه شأن كلّ شيء آخر، بأنه إحدى متواليات عام الـ١٤٠٠. ليس فقط خوفي، أيضاً حاجتي المُلحة للخوف، وأنا أشعر حقّاً أنها تعمم الأمر أكثر مما ينبغي حين تحيله على أسباب مفتوحة إلى هذا الحدّ، أقول لها: «هذه القطيف، وليست بيروت الحرب الأهلية»، تجيبني: «الخوف هو الخوف، وإن تغيّرت الأمكنة!»، تصمتُ قليلاً ثم تضيف: «ثمّ إنه حال عدوى، ألا تنتقل العدوى عبر الحبل السريّ؟».

تسألني:

ـ تتذكرين أقنعة «الكيماوي»؟

ـ ومن يستطيع نسيانها؟

بعد عامين من الحرب لا أكثر، لم يُبقِ بيت واحد على الأقنعة التي اشتراها، أليس هذا أمراً غريباً؟

ـ لم يكن لها داعٍ. الحرب لم تصلنا تقريباً، وهي انتهت في كل الأحوال.

أنتِ ساذجة! كنا آمنين. وفي ليلة واحدة كُشف غطاؤنا وبتنا عراة. الجميع كانوا في حالة إنكار تامة، والجميع يفتشون عن النسيان بأيّ

طريقة. والجميع بالغوا في قطع أطراف الحرب، وبعدما كانت أرقاً دائماً صارت أمراً ماضياً وليس من المفيد الخوض فيه ثانية. ألا ترين بأننا جميعاً نشعر بالاستياء حين يعرض تلفزيون الكويت نداءات أهالي الأسرى ويعاود التذكير بهم يوماً بعد يو م، بعد يو م؟ لماذا نستاء ونحن لا شأن لنا في ما حدث، إلا لأنهم يذكروننا بما نجتهد كثيراً لكي نطمره في بئر النسيان؟ لن تقولي لي أيضاً إن ما حدث لم يكن سبباً آخر للخوف!

أوافقكِ في هذا على الأقل.

ـ هل تعرفين ما هو خوفنا الجديد؟

ـ ما هو؟

ـ الانتماء.

ـ الانتماء. ماذا تعنين بهذا؟

سابقاً، كنا إزاء كلّ طارىء، كلّ جديد، كلّ مختلف، نضمن لنا واحداً، واستجابة واحدة، وصوتاً واحداً، كنا موحدين مثل البزات العسكريّة. الآن، الأمر اختلف. هناك تيارات، وأسماء رنانة، ومصطلحات لا يكاد الواحد منا يستطيع لفظ أحرفها صحيحة والأمر صار مختلطاً، ولم يعد بوسعنا تحديد ما الذي نريده؟ ما الذي نبحث عنه؟ ما هي خياراتنا؟ وأيّ توجّه يجدر بنا أن نندرج تحته؟ هناك الكثير من الأسئلة ولا توجد إجابات مطابقة تكفي الجميع.

ـ تحبين التنظير يا دارين.

ـ لا، أريد أن أفهم، وليس ثمّة من يشرح لي مجاناً.

شيء آخر يخيفني لدى دارين: ما تقوله يشبهني شبهاً أكاد أجزم أنها

تنسخ عقلي في كلّ يوم وتعاود عرضه أمامي في يوم آخر، حين تخفت حدّة الأسئلة والهواجس فتضرمُ نارها من جديد! وليس فقط ما تقوله. كنا نحبّ الأشياء نفسها: الأفلام الأجنبية بلا ترجمة، المعكرونة بالصلصة الحمراء، بيرة التوت الأزرق، فيروز، وأغطية السرير باللون السادة؛ ونكره الأشياء نفسها: البامية، جيم كاري، الإضاءة الصفراء، أزيز الطابعة، وأن يوقظنا أحد، حتّى فساد مزاجنا بقية اليوم حينذاك كان متشابهاً. دارين تشبهني بطريقة أبدو معها كأني الصورة الأقل نضجاً منها. تشبهني حدّ التطابق في بعض جوانبها، حدّ أن تبدو مرآتي، يخيفني أن أكون هائلة هكذا، فادحة الدهشة هكذا، مثلما يخيفني أن تحرّضني مرآتي على الحياة هكذا.

بخلاف مكالماتنا الأخيرة لم تذكر في مكالمتنا هذه اسم ناديا، ولم تعادل كلماتها: اثنتان «شكراً» في مقابل كلّ اعتذار. قالت: «أريدُ أن أراك»، قلتُ: «وأنا أيضاً، عندي لكِ شيء صغير»، قالت: «ما هو؟»، قلتُ: «سرّ!»، قالت: «متى نلتقي؟»، قلتُ: «متى شئتِ. أنا بأمرك»، قالت: «ولكن، ستكونين ضيفتي»، قلتُ: «آه، بخلاف العادة هل تنوين بي شراً؟»، قالت: «سبق أن سرقتكِ، لا أدري هل بوسعي أكثر من ذلك!».

خاصرتني عند بابها: «أريدُ شيئي الآن.. الآن» جربتُ التلاعب بتحفزّها قليلاً: «هذه كلمة قذرة جداً، لا تقوليها مطلقاً!»، كنتُ في تلك اللحظة أتمنى أن تشتمني كعادتها، لكنها أعطتني قبلة كبيرة على وجنتي، وأخذتني من يدي إلى غرفتها، ولم نكُ من قبل قد التقينا في غرفتها.

سألتني وهي تمسكُ الأسطوانة التي أعطيتها إياها برفق بين سبابتها

وإبهامها وتحدق فيها:

ـ ما هذا؟

ـ «انتظار». أفكرُ فيك دائماً حين أسمعها.

اعتقدتُ في وقتٍ ما، أني بالكتابة والموسيقى أستطيع أن أعيش، أن أفتح براحاً في هذا العالم قادراً على احتوائي. في وقت لاحق، تخليت تماماً عن إيماني بالكتابة. كلّ كتابة جديدة باتت أنشوطة تلتف حول عنقي وتساهم في اختناقي. اكتفيتُ من قدرتي الفادحة على تشويه الحقائق، وتجميل الأحزان. واكتفيتُ من قدرة الكتابة على تشتيتي بين ذاكرتين: ما يحدث، وما يُكتب! واكتفيتُ من المحاولات الساذجة لاستراق النظر والعبث بقلبي. الكتابة ما عادتْ تمنحني الحياة، وتعسفت كفاية لتمنحني الموت. وهكذا بقيتْ لي الموسيقى.

يقولون: الموسيقى غذاء الروح. وأنا لا أستسيغ تعبيراتٍ كهذه. الموسيقى ذاتها روح فكيف نتغذّى من روح؟ كيف نقبض عليها بدءاً ونحن لا نعرف ماهيتها ولا نملك وصفاً لكنهها! لكن، العالم صارم ويتطلب تعريفات بمقاييس محددة ليتحقق من موجوداته. الأسماء للذاكرة والتعريفات للمعاجم، والموسيقى برغم أنها تطير، لكنها عاجزة عن تثبيت جناحيها بالدبابيس على قطعة من الفلّين وتجفيف جسدها.

وعلى النت، كنتُ كثيراً ما أضع كلمات عشوائية في محرك البحث، وأفتش في النتائج صفحة بعد صفحة، وما قد يخيب بضع مرات قد يُثمر في إحداها ويأتيني بدهشة فادحة تبتلع ليلي الطويل. وفي إحداها كنتُ

قد أدخلت كلمة «انتظار»، مع اختياري المسبق لامتداد الصور ثم تحولت للملفات الصوتية، كلمة كهذه لا بد ستأتيني بنتيجة مُستحقة، ووجدتُها، أذهلتني حتى أني لم أنتظر دخول عُمَر للشبكة، بل هاتفته وسمعناها معاً، وسألته: «ما رأيك؟»، أجابني: «آه، لا أدري!»، بالضبط، الأشياء الجميلة دائماً تسرق منا اللغة وتجبرنا على الصمت.

ـ إنها مقطوعة لموسيقي عراقي.

أدخلتْها في محرك الأقراص في جهازها، فقلتُ:

ـ لا، ليس الآن.

ـ متى إذاً؟

ـ لنسمعها معاً الليلة.

ـ الثالثة فجراً، يناسبكِ؟

ـ موعدٌ متأخرٌ للحبّ.

ـ وحده الحبّ لا يتأخر مطلقاً.

أشارت ناحية الباب:

ـ انظري، إنه مقفل.

ـ لاحظتُ، أنتِ بطلة!

ـ أنا...

ـ أنتِ ماذا؟

جاءت إليّ وفي عينيها نظرة خدِرة تشبه السحر. كنتُ شبه مستلقية على سريرها، نزلت نحو قدميّ وقبلتهما. هذه المرّة لم أتوتر، لم يساورني شعور الدغدغة، لم أفكر في أن قدمي أشد وضاعة من أن

تقبّلهما، وما خطر لي أن قدمي قد تنفلتُ إثر تشنّجي وتضربها خطأً وقد تصيبها بالرعاف. فهمتُ حاجتها إلى أن تفعل، كي تظهر امتنانها في أجلى صوره، وتركتها تفعل. ثم ضممتها، ضحكتْ قليلاً وهي تقول: «أخيراً، واليوم فقط غرفتي تعيش أولى تجاربها»، وضحكتُ معها، شدّتْ يديها حولي، وسألتُها:

ـ تعاملك جيداً؟

ـ ناديا؟ بالطبع.

وأخذتْ تضحك بخبث حين دفعتها عني، ثم قالت: «لا تستائي، مجرد دعابة». صمتنا قليلاً وأنا أحرك إبهامي على وجنتها. ابتسامتها المتذاكية منحتني انطباعاً بأنها كانت جادة في ما قالته، ولعلها تريد أن تمرر لي هذه المعلومة فاختارت افتعال دعابتها تلك، فسألتها:

ـ حقّاً تقولين؟

ـ نعم.

ـ ولماذا؟

ـ لا أريد أن أؤسس لعلاقتنا عبر جسدينا فقط.

مرّت بنا لحظة غائمة، راودتني نفسي على القول: «حسناً، أنت على حقّ!» أو: «لا، أنا لن أتركِك!» لكنها كفتني إثم جرحها أو تضليلها، حين مدّت يدها إليّ وقالت:

ـ أريد أن أريك مخبإي السريّ.

صفعتني الرائحة الثقيلة لأصباغ التلوين عندما فتحت الباب، وقالت: «تفضّلي». كانت غرفة واسعة بإضاءة ساطعة جداً، حائطاها

الشمالي والشرقي مفتوحان بنوافذ كبيرة زجاجها عاكس، وعلى الحائط الغربي ثلاث لوحات، ولوحات أخرى مسندة إلى الجدار، وجوهها ناحيته، باستثناء صفٍ من سبع لوحات وجوهها ظاهرة. وحيث دخلتُ كانت طاولة كبيرة تحوي دواليب عدة، تعلو سطحها أدوات رسم كثيرة بالإضافة إلى أريكة وحامل للوحات.

ـ لعل هذا المكان كلّ ما منحني إياه أبي.

باغتني انفعال فادح، جعلني أوشك أن أشتمها لولا تعثر لساني:

ـ يا... أنتِ....

ـ إنه بالضبط ما ترينه.

ـ لماذا لم تخبريني من قبل؟

ـ ها أنا أشاركِك في سرّي. انتظرتُ لترينه بعينيكِ.

ـ سرّ... لماذا سرّ؟

تعرفين ما يتوقعه الآخرون: نوافذ وسماوات وأشجار وعصافير. وأنا أبعد ما أكون عن هذا. أنا مجنونة يدوخها اللون الأبيض، ولذا لا أتعامل معه بمثل تلك المثالية والطيبة. قرأت ذات يوم أن الفن يقوم على الهدم، هدم الأفكار والنسق والجماليات الجاهزة. وأنا هدامة عظيمة بالفطرة.

ـ أفسدتكِ المعرفة، دارين.

تفحصتُ بدهشة سكنها السريّ، قلتُ بإعجاب لم يكن لي أن أخفيه:

ـ لا بد أن الله يحبّ الألوان، ليملأ العالم بها.

رفعتْ سبابتها ناحيتي وهي تهزّها، كأنها تقول: «انتظريني قليلاً، سأتذكر».

لا تنقلي الترجمة الخاطئة، الجملة الأصل تقـول: "God must be a painter"... فيلم Beautiful Mind، كانت تقف قبالة لوحة و...

قاطعتها:

ـ أضمن لكِ الفيلم، لكن إذا كنتِ ستبدئين بالحديث عن تفاصيل اللوحة، فأنت أدرى!

ـ أشرتُ إلى اللوحات الثلاث المعلّقة، وسألتها:

ـ لماذا هذه من دون سواها؟

حين أفقد إيماني بما أفعله، حين لا أملك أسباباً كافية ودوافع، حين أشكك في قدرتي أنظر إليها، فأرى ما كُنته وما صرتُ إليه وأستعيد ثقتي. إنها مراحلي: الأولى سميّتها «الغضب»: ألوان حمراء، أفواه كبيرة تصرخ، خطوات مسرعة وشوارع صاخبة.

ـ لكنني لا أرى شيئاً من ذلك.

ـ ليس من المفترض أن تري ترجمة حرفيّة.

ـ لا أقصد هذا، أقصد... كانت مرحلتك الجنينية، إذ جلّ التعبير يكون كتابة على السطر.

ـ مرحلتي الجنينية، كما تسمّينها، كانت رسماً على الكراريس لم أكن بعدُ أعرفُ الفرق بين الألوان المائية والزيتية، ولا بين التجريد والسرياليّة.

ـ فهمتُ، والمرحلة الثانية؟

ـ مرحلة «العدم». كنتُ أعبىء مساحات اللوحة بالفراغ. وقتذاك استخدمت في غالبية لوحاتي ألواناً مائلة إلى السواد، كنتُ مشبّعة بفكرة تناقض الأسود والأبيض. حينذاك فكرتُ أنني لو ولدتُ في الستينات من

القرن العشرين وشاهدتُ الأفلام غير الملونة لما كنت سعيدة جداً.

ـ أتحبين تسمية أشيائك؟

طففت ابتسامتها، وأكملتْ:

ـ هذه مأساة بالفعل. وقتذاك كنتُ أرسمُ أحلامي، كلّ ضربة فرشاة كانت حلماً. زهوتُ بأني في أيّ وقت، أملكُ زخماً كافيّاً لأرسم وأرسم بلا توقف، ولم أنتبه إلى أني علقتُ مطولاً من دون إحراز خطوة واحدة للأمام.

ـ والآن؟

شاهدتِ shine؟ إذا لم أكن مخطئة فقد فاز بالأوسكار لأفضل تمثيل. shine هذا يتحدث عن عازف بيانو اسمه ديفيد وأنا أشاهده مرّت بي جملة لن أنساها "Play as if there is no tomorow"، وحين سمعتُه في اليوم التالي يعزف الراخ الثالث لرحمانينوف لم أنسَها مطلقاً، حتّى بعدما عرفتُ أن ديفيد هذا لم يستطع أن يعزف المقطوعة. خانته أصابعه. وأنا لا أجازف بالقول إن كلّ لوحة مرحلة. لكنني أرسم كلّ لوحة باعتبارها آخر ما قد أرسمه في حال خانتني أصابعي.

ـ لماذا بقية لوحاتك مقلوبة باتجاه الحائط؟

ـ بماذا تشعرين حيال قصائدكِ بعد فترة من كتابتها؟

ـ أكرهها!

ـ وأنا بالمثل.

ـ أريني أكثر لوحة تكرهينها؟

ـ حرام عليكِ.

فتشتْ بين اللوحات، واستخرجت منها واحدة، قالت:

ـ عليكِ أن تستعدّي جيداً لهذه، وإن كنتُ لا أنصحكِ مسبقاً.

مددتُ لها يدي وأنا أقول: «تعالي» فأطاعت. وقفت قبالتي، أمرتها أن تغمض عينيها، ففعلتْ، أخذتُ يدها، ومررتُ سبابتها بدءاً بإصبعي الوسطى وانتهاءً بباطن كفي، كلما كانت تتعجل كنتُ أبطئ اندفاعها، كنا قريبتين إلى درجةٍ شممتُ رائحة الشامبو في شعرها، وأحسست بحرارة أنفاسها على جلدي، وحين أعدتُ تحريك إصبعها على الندب الناتئ في كفي، قلتُ:

ـ هذه أنا!

سألتْ وعلى وجهها سيماء غرابة:

ـ أنت هذا الجرح؟

ـ لا! أنا ما تشعرين به حين أكون داخلكِ! حين لا يخدش حضوري فيك أيّ شيء آخر.

وابتسمتْ إذا رأتني أسقط في فخّ «الشيئية»، الذي كنتُ أنقذتها منه قبل قليل.

ارتفع صوتُ أذان المغرب، وحان وقت ذهابي. قالت:

ـ انتظري، أنا أيضاً عندي لك شيء صغير.

بدورها أمرتني أن أغمض عيني. كنا دوماً نفعل سلسلة من التصرفات بتتالٍ مريب، أقاطعها تقاطعني، أقبّل كفها تفعل مثلي، وإذا ما بدأتْ بالشتم كنتُ ما ألبثُ أن أشتم فوق شتائمها. سمعتُ صوت جَلبتها وهي مسرعة، ثم سمحت لي أن أنظر، كان قبالتي لوحة بيضاء جداً، بيضاء

كأنها قطعة ثلج، صورة مطابقة لما أعتقد أنه الجنة ليست الألوان، بل ما وراء الألوان.

ـ هذه لكِ.

ـ ماذا؟

ـ سمعتني.

ـ ولكن هذه لوحتكِ.

ـ رسمتها لأجلكِ.

ـ لا أستطيع أخذها.

ـ لماذا؟

ـ لأنها عملكِ.

ـ تستطيعين أن تهدي إليَّ أفضل قصيدة ستكتبينها على الإطلاق فنصبح متعادلتين.

ـ لست تفهمين. القصيدة ستبقى عندي وإن أهديتها إليك.. لكن اللوحة، لا.

ـ خذيها، علقيها فوق سريركِ.

ـ لماذا فوق سريري تحديداً؟

ـ لأنكِ المجنونة الوحيدة التي تنام في سريرها بعكس اتجاهه.

ـ هذا يعني أنها أول ما سأراه كلّما استيقظتُ.

ـ وتتذكرينني.

ـ تقصدين: وأفكر فيك.

أكدتْ بيقين:

ـ وتتذكرينني.

واشتهيتُ أن أقول لها، وما قلتُ: «خبئيني دارين، هنا، في مكانك السرّيّ هذا، خبئيني في أصابعكِ، ارسمي على جسدي، فوق جلدي مباشرة بلا مسافاتٍ ولا عوازل، ارسمي بألوانكِ كلها، بأصابعكِ كلها. ارسمي على جسدي وكأني آخر لوحاتكِ على الإطلاق. سيمحو رسمك عبث سواكِ، لن أكون أفضل لوحاتكِ يا دارين، غير أني سأكون من أفضلها قدرة على الحراك والتعبير، ألا يروقكِ نطق جسدي؟ واحضنيني قليلاً، احضنيني أقل، ثمّ لا تفتشي في صدري وتسأليني: لماذا روحكِ غائبة؟ ليس عندي روح يا دارين. أكلها الآخرون، العابرون والمارة والذين ظننت أني أحببتهم وأحبّوني... أكلتِها أنتِ يا دارين. أو أكلتها ناديا!».

صمتنا قليلاً مُثقلتين بالحزن، ثمّ ثقبتْ صمتنا بالقول:

ـ تعرفين ما هي أغنية علاقتنا؟

ـ طبعاً هي ما رسمتِ اللوحة عليها.

ـ وحدنا!

دارين أيضاً تملك نبوءتها الخاصّة، وتخبرني بها حين تغنّي:

(يا زمان
من عمر فَي العشب على الحيطان
من قبل ما صار الشجر عابي
ضوي قناديل وانطر اصحابي
مرقوا وفلوا بقيت ع بابي.. لحالي

يا رايحين وثلج.. ما عاد بدكن ترجعوا.
صرّخ عليهن بالشتي يا ديب..
بلكي بيسمعوا)

كأنها تقول: سأنتظركِ حتى لو لم تأتِ، واغفر لك غيابكِ وإن حسبته ذنباً.

بعدما ننتهي، كنتُ أحرص على أن لا أُبقي مخلفاتٍ ورائي. القانون يقول: لا أشياء عالقة في الخلف، لا كلمات لتُقال، لا حكايات لتُروى، ولا حاجات لتُشتهى، لأنها على الغالب تعود في وقت لاحق وتفسد السياق. اعتدتُ إنهاء علاقاتي بطريقة لائقة جداً، ما يمكنني تسميته «القتل النظيف»، بحيث أجعل من يومنا الأخير أفضل أيامنا كلّها، وبحيث لا يظلّ شكّ ولو ضئيلاً وتافهاً في أن تلك العلاقة لا تستحق ما بذلناه من أجلها، وبحيث لا يعود هناك ما يستوجب أن نراجعه في وقت متأخر. وكنتُ في ذلك اليوم بالتحديد أفعل كلّ ما يُطلب مني، وأقول كلّ ما يُراد مني سماعه، لأكون متيقنة من أني لم أخرج إلا وقد قبضتُ كلّ مستحقاتي، وسددت كلّ ديوني.

لكن، دارين!

لم يكن بوسعي استغفالها هكذا، ولم يكن بوسعها أن تلعب معي هذه اللعبة. شعرتُ أننا سنلتقي، سنجد طريقة توفّر لنا وضعاً أقل توتراً وعلاقة أخف وطأة، ولا نكون طليقتين أن نخون، برغم لقاءاتنا المعدودة التي لا تُعدّ شيئاً والتي انتهينا منها على يقين بأننا لن نعاود تكرار تقاربنا، فلا كنّا من قبل مفتونتين بجسدينا، ولا كانت شهوتنا عاتية، لكن هذا ما

تفعله استحالة الوصول من بعد تمكن، الغيرة النابتة في مفاصل الجسد الذي لم يعد بوسعه اقتراف اللمس والقبلات، والشهوة المتأخرة التي ما أججها سوى سطوة وجود آخر ونار البُعد. ربما نلتقي في الجنة، حيثُ نتخفف من جسدينا ونكون طليقتين من الذاكرة!

(١٩)

ريان، كان حكاية من فصل واحد. لا أدري أيّ منا انتهى من الآخر، انتهينا وفقط. يُفترض بالحكايات القصيرة ألا تخلف حزناً كثيراً، يُفترض بالعابرين أن يمرّوا خفافاً، من المفترض أن نظلّ صديقين وأن يترك نافذته مضيئة لي في أشدّ الليالي حلكة والممرات التي لا تفضي إلى جهة، لكن لا تطابق الأشياء افتراضاتنا وتوقعاتنا السابقة.

أسوأ ما في الموت أن تموت ببطء، أن تذوي وتتحل وتنفد أنفاسك تباعاً، أسوأ ما فيه ألا يأتي سريعاً قاطعاً؛ وذلك كان أسوأ ما حلّ بنا أنا وريان، انتهينا ببطء حتى أني لا أملك أيّ فكرة عن اللحظة التي انتهينا فيها، لا أستطيع تحديدها، ولا حتّى تخمين الإطار الزمني الذي حدّ طرفيها، انتهينا ببطء حتى أننا لم ننتهِ.

التقينا بمحض النكاية في أحد منتديات النت. أعترف: ريان واحدٌ من كتّابي المفضّلين، وتعمّدت أن أشاكسه حين اجتزأتُ معلومة هامشية واردة في إحدى مداخلاته وخطأتها. لاحقاً، أخبرني عن ظنّه بأني كنتُ أستقصده، وربما تراودني حياله نيّات سيئة، وقرر آنذاك بفعل الغيظ أن يكسر رأسي، بحسب تعبيره، لكن، كسر الرأس تطلب وقتاً وجهداً، وعلقنا في شَركٍ ما من دون أن ندرك.

حين قلتُ لدارين:

ـ أشتهي فيكِ رجلاً لن يأتي.

همستْ في أذني:

ـ أتمنى لو بيدي أن أكون ذاك الرجل.

رددتُ بكبرياء شاهقة جداً:

ـ ولكنني لا أنتظر واحداً!

من دون أن تدري لفتتني إلى الكائن الناقص في حياتي، لمْ يكن أبداً ثمّة رجل، في آخر أمنياتي وأشدها ضآلة وخفاء لم يكن ثمّة رجل. تعاملتُ مع مسألة غيابه باعتبارها واقعاً مفروغاً من صرامته، وحتى عندما فُتح في وجهي عالم النت بمعطياته المغرية كان الغياب فرضاً لا أجادل في أسبابه. عُمَر نفسه كان استثناءً، استثناء فوق المُعتاد أو المتوقع، وكان حيّز علاقتنا يحصرني خارج انتباهي لجنسه ولحضوره الجسدي، وربما لولا طبيعة الظروف التي جعلته يتسلل بخفة إلى أدق تفاصيلي، لما كنا عما قريب سنكمل عامنا الثاني معاً.

وكلما كنتُ على مقربة من التفاوض مع فكرة وجود رجل ما، كان هناك احتمال رجل صائب. كانت الطبيعة الجنسيّة الخالصة تدفعني جانباً في كلّ الفرص التي أتحتُ لها المكوث في ذهني. وأنا لا أمنح الغرباء جسدي، ولا أدعو إلى سريري الذين سيرتدون ملابسهم في الصباح فيذهبون ولا يعودون. لا أستطيع أن أفصل جسدي عن روحي، أن أُشبع أحدهما فيما الآخر جائع، والمسافة واسعة بين أن أترك جسدي طليقاً في مهب رغباته وبين أن أكون رخيصة.

يقولون: إنكَ تعرف الحبّ حين يمرّ بكَ. وأنا لا أعرف هل كان هذا هو الحبّ أم شيئاً آخر. يقولون أيضاً: يأتي الحبّ حين نتأهب لهُ جيداً، لكنه يأتي من حيث لا نتوقع. وأنا كنتُ أعيش علاقتنا كأنها حبل سيرك على أن أتوازن عليه من دون وجود شبكة أمان في الأسفل، الأسفل العميق والمُعتم. كانت علاقتنا تأخذ نمطاً غريباً من الحضور والغياب، ينتابنا الملل حين نفرط في حضورنا، ويلسعنا الشوق حين نغيب، ونترجّح بين الإثنين في خيارين مغلقين لا ثالث لهما. وقد أخذنا بلا اتفاق مسبق على عاتقنا أن نغيب معاً ونحضر معاً، فلا نُبقي لأحدنا الانتظار ولا للآخر الغفلة. وباعتبار غياب ريان شأناً حتمياً في علاقتنا، فلم يحدث غيابه فجوة هائلة بين ضلوعي، لا يزيلها السلوان ولا الامتلاء بوحل الأسى والماء الآسن للحزن العارم!

آمنتُ دائماً بأني لن أحبّ، ليس لأن الحبّ غير قادرٍ على ضمّي إلى قائمته، إنما لأنني لا أملك الشجاعة الكافية لأحب. لكني، الآن أسعى لتحريف بعض حقائقنا، أو لغضّ النظر عنها من أجل أن أقنع نفسي أني فعلتها مرة واحدة، ليأخذ العالم حقائقه، لستُ أريد إلا الطمأنينة في حيّز أوهامي. مرات كثيرة، لا أحصيها، قلتُ: أحبّكَ، قال: أحبّكِ، مختنقيْن من فرط الاشتهاء، لكنها مرات لا أعول عليها، ليس ذا قيمة ما نقوله ونحن ثملان يعبثان بجسديهما عبر تيار هاتف، ومرات كثيرة، حين كنّا أقرب للحزن كان يقول: أريدُ أحداً! أيّ أحد! وأنا أفهمها: ليس عندي أحد! ليس معي أحد.

لطالما فطنتُ لفكرة أن الأشياء التي تبدأ محمومة تنتهي فاترة، إذ

تستهلك مقوماتها في كلّ ذاك التصاعد البلا تهيئة مسبقة. نحن لا نولد شباباً ويافعين، جُبلنا على النمو المتدرّج، ومثلما هي طبيعتنا التي شاءها الخالق هي كذلك طبيعة أشيائنا. وعلاقتي بريان التي اشتعلت بين أصابعنا في مهاتفة من عشر دقائق، كان واضحاً أنها ستنحدر وتنتهي بالسرعة نفسها. إننا لا نبقي لأيّ علاقة فرصة إذا جعلنا نقطتها الأولى أفضل نقاطها، ذلك أنها ستكون من دون نقطة تالية جديرة بانتظارها، والمرء لا يفعل شيئاً، إذا كان لا ينتظره شيء. ربما كان غيابنا المتكرر محاولة نصف ناجحة لإطالة زمننا المُفترض، أو لإتاحة فسحة صغيرة نبدأ عبرها مرّة أخرى. لكن ليس سهلاً أن نبدأ من جديد، أو نعاود ثانيةً ضبط الساعة البيولوجية لعلاقتنا من نقطة الصفر.

وكثيراً ما اعتقدت أن الأسى الذي يقضي على علاقة ما، قادر أيضاً على استعادتها، لأنه لا يغادرنا، يحطّ على مخداتنا حين نصحو، ويختم أعيننا قبل أن ننام، ويأتي بأولئك الذي غادرونا أو غادرناهم محملين به، يأتينا بهم، يصحبهم في كلّ حضوره الثقيل. ثقيل حضور الأشياء التي لا تُنسى، ولا تعطينا فرصة تجاهلها. ومن ريان فصاعداً سأفكر، في كلّ يوم من حياتي، أن أولئك الذين لا يأتون أبداً، حتّى ونحن نشق لهم في البحر ممراً لا يأتون، سببٌ للأسى لا يجدر الاستهانة به، أو الاستخفاف بوقعه، فضلاً عن أن أتغابى وأدّعي قدرتي على التعايش معه.

في واحدة من مرات فتور علاقتنا، كان قد أصاب ريان حادث سير، ولم يُصب بأذى، قلتُ له «لا أريدكَ أن تموت! لا أحبّ الذين يموتون!». وأتذكر أنه ضحك. وفي تلك اللحظة ابتدأت أترصّد غيابه وغيابي، وما

عاد هناك شيء ممتع ولذيذ. كان كمن يُعبئني بالحجار كلما غاب، وكنتُ أغرق، وأغرق ولما غاب أخيراً أوصلني للقعر العميق والمظلم من دون أن يترك في صدري نَفَساً.

جدالنا العلني العابر امتد بضع رسائل، ثم ساعاتٍ مطولة من الثرثرة في نافذتي الإلكترونية، وأنا التي تعرف كيف تتحصن ضد الغرباء، وجدتني أفقاً مفتوحاً أمامه. حين سمعت الجرس الصغير لدخوله أول مرّة وقرأت اسمه (وتموت محدٍ درى فيك!)، حدّثني شيء بصوتٍ هامس، أني مأخوذة بهذه الطمأنينة ولا بد من أني سأدفع ثمنها. أذكر جملتي الأولى: «في الأول من أيلول تحدثُ أشياء كثيرة» وأذكر أنه أجاب: «ليس من بينها أن أكون أيلولك الأسود!».

فكرتُ، لو عرفتُ ريان قبل شهر فقط، في أغسطس، في منتصف أغسطس، لكان كلّ ما بيننا ذنباً صيفيّاً، وأنا يمكنني المجادلة مطولاً في كلّ الذنوب التي أفعلها بدافع الضجر. يمكنني أن أجادل فيها وأخرجُ بلا خساراتٍ تُذكر. الصيف يجيد صناعة الأشياء الطارئة، السريعة الزوال. كلّ الأشياء تذوب في الصيف وليس الثلج والبوظة فحسب، يمكنني تحمل أن تذوب بوظتي مع ريان، لكن ليس يمكنني أن أكون شجرته ويكون خريفي، فأصبح عارية ووحيدة.

وحين سمعتُ صوته على الهاتف، صوته المجروح بلا سبب، آمنتُ أن للبعيدين فتنة لا تأتي بمثلها الأشياء القريبة السهلة. وقلتُ لنفسي إن ريان فرصة للحبّ لا تتكرر، ذلك أنه آمن، بسبب البعد، لن يؤذيني وهو على بعد أربعمئة كيلومتر مني، والرياض التي تعلّم أولادها كيف

يكونون أشدّاء علّمته جيداً كيف ينأى بنفسه عن الناس، بمن فيهم أنا.

كانت حدود علاقتنا مفروضة مسبقاً، من دون أن نتدخل في تعديلها، بلا تفكير، لن نلتقي، ولن نتورط في أسئلة على شاكلة: إلى أين ستؤدي بنا هذه العلاقة؟ إلى أين يجدر بها أن تمضي؟ لم يكن ثمّة ما يستحق، لم يكن ثمّة ماذا بعد. بدءاً لم يكن ثمّة غد. كان هذا وضعاً مثاليّاً بالنسبة إليّ، أنا التي أرفض أن يكون أحدٌ مثل مسمار يغرز في يدَيّ المعلقتين في الحائط، وفي قدمَيّ المتصلتين بالأرض. يومذاك كان عليه أن يغيّر اسمه إلى «مكان آمن للحب»، فقال لي إنه بشر وليس مكاناً، وقلتُ: «إننا جميعاً أمكنة».

صوته المجروح ذاك عبث في داخلي ولم يُعِد ترتيبي مطلقاً. إنه وقع رجل غير رتيب على امرأة لم تظفر يوماً إلا بأشيائها الرتيبة، وحدودها المغلقة وقوانينها الصارمة. هذا ما يجيد الرجل أن يفعله ولا يُزاحَم فيه: أن يجعل من المرأةِ امرأةً ولا سوى ذلك.

ريان، كان جذاباً بطريقة لم أتمكن معها من المكابرة عليه. يعرف كيف يكون جميلاً في حزنه، شهياً في غضبه، مغالياً في أفكاره. النت: المكان الذي زرعنا منه خطوتنا الأولى، كان بالنسبة إليه، الحيّز الوحيد الذي يتيح للنساء شرفات لمواعيد الحبّ، في وطن يتآمر جيداً على جعل أبنائه صحارى. وعندما أخبرته كم شخصيته تجعله مادة جيّدة للكتابة، أجابني بسخرية: «وهل ستقتلينني كما تفعل أحلام بأبطالها؟»، ثم أضاف: «لا تمنحني الكتابة مجداً. الإطراء والنساء فحسب!». ريان هكذا، يقول أشياء لا يعنيها، وينفخ في الكلمات ويطيّرها، في حين يخبىء حقيقته

أبعد عن السطح. وأنا تفتك بي ثنائيته: تافه أحياناً، وعظيم في أحايين أخرى.

وبعد أن انزاح الزبد الطافي على سطحه، جذبتني نحوه حقيقة اختلافنا، كنا قطبين لا يسعهما إلا أن يختلفا، كليل الله ونهاره، امرأة ورجل، شيعية وسنّي، سلاف دمه البداوة ومدينتي سنابلها خضراء، جاف وماطرة، حاد ورهيفة. حتّى تجربتي المثليّة كانت تقع على الجانب المقابل من تجربته السويّة جداً. تجربته التي هي بالأساس خط مستقيم بين نقطتين، ميله صفري. كنتُ معه أخرى وكان معي آخر، ولذا كثيراً ما كان عندنا أشياء نُدهش بها، ونثرثر عنها، وعلامات استفهام نردّ عليها تباعاً، واختلافات كُبرى نتجادل حولها ثم نركلها على القفا، وكان إذ رأى صوَري قال: «لا بُد أن أصول أهل القطيف تعود إلى إيران، وإلا فمن أين لكم كلّ هذا البياض؟ أنتِ حليب يا بنت!».

وتدرجنا في لعبة الغياب، وتواترها، كلما أفرطنا فيها عدنا للشحّ، أتذكّره يقول: «معكِ فقط أشعر كم غيابي خفيف!». وأنا أتساءل عند أيّ نقطة من الطريق اتخذنا خطأً طريقاً جانبية مختصرة واتجهنا ناحية نهايتنا، بحيث أن غيابنا بات شأناً نحتفي به، ونعامله بكل احترام. هذا أصعب ما في الأمر. لستُ أعرف ما الذي كان خاطئاً؟ لماذا انتهينا؟ أيّ شيء كان عثرتنا الأخيرة؟ أصعب ما في الأمر أني أفتش عن الأسباب ولا أجدها، ولذا لا أستطيع إفلاته، ولا هو يستطيع. ما زلنا نعود. في مكالمات من ساعة أو اثنتين. ما زلتُ أشعر بالسخط من وضعنا، ما زلتُ أفكر: ليس هذا ما كان يُفترض بنا أن نصل إليه، ما زلتُ حين يعود أشعر إني بحاجة

إليه، وأؤويه ليلة أو ليلتين، وهو يفعل مثلي ويترك الباب موارباً، ما زلت موقنة أن أحدنا لا يلعب بالآخر محدثين كلّ هذا الغبار أمام خطواتنا والرمد في أعيننا. ما زلنا عالقين، وما زلنا نعود ولا نعود!

كان يبقي في محفظته ورقة صغيرة ملأى بالملاحظات، فإذا ما عاد يتلوها عليّ، وكأنها كتاب مقدس، مجرد أشياء صغيرة: «أتعشى سندويش فلافل، لستُ أدعوكِ. دمك الفاسد على أيّ حال يمنعك من تلبية دعوتي!»، «أشاهد The Others، بعدك تجنّين به؟»، «شبه محموم وأفتقدك»، «الامتحانات توقيتٌ سيئ لأقرأ «الحبّ في زمن الكوليرا»»، أشتهيكِ تقولين: «شرط ألا تطعمني الباذنجان» وبدل أن أقول: «إنني أعيدُ لكِ مفاتيح حياتك»، وجدتني أفكر «إذا عبرتِ الشارع فستجدينني ميتاً عندما ترجعين»، «أعرفكِ تكرهين عبادي. لكن اسمعي... أو لا داعي!»، «ثمّة من تشبهكِ وتحرّضني على إغوائها. هل تستخدمين nickname جديداً؟»، «تحبيني لسّى؟»، «ليس الموسم موسم صيد، غير أني سأخرج إلى البرّ في الـ weekend.. سيكون هاتفي مُغلقاً فلا تقلقي».

مجرد أشياء صغيرة، الأشياء التي كان سيرسلها إلى هاتفي الجوال، وكان يضطر إلى تسجيلها على الورق ليمتنع عن إرسالها لحظتذاك، لتجف الحاجة في دمه، يقول. كنا نستعذب حالة تعففنا، وفي الوقت نفسه تورّط أحدنا في الآخر، فنستعذب ذلك إلى حدّ الإدمان. وبعد أن انتابتني الحماقة ذات مرّة وبعثتُ له برسالة قاسية كتبتُ في مستهلها: «بذمتك، ما يوجعك قلبك عليّ؟»، كففت عن ادخار تفاصيلي اليوميّة

العابرة، إذ يملأني المزيد من الحاجة إليه، ويجعلني أدور في المتاهة نفسها، أخرج من باب ليعيدني إليها عبر آخر، أتعبأ بالحاجة فأحاول مماحكته، وحين نقترب كنتُ أشعر بالشفقة والأسى فأعاود الغياب.

أخبرني أنه خانني لمدة قصيرة في بدء علاقتنا، وضحكتُ وهو يستخدم لفظ «خيانة». عادت إليه صاحبته، وكان سكرانَ بحنينه إليها، فمارسا الجنس قال. وحاول أن يخفف من الوقع المفترض للخبر عليّ بأن يعدده مرتين أو ثلاثاً، باعتبار قليل الخيانة وكثيرها لا يتساويان، في حين كنتُ أفكر: تكفي مرّة واحدة ليكون الأمر خيانة. لكني في الحقيقة لم أعدّه كذلك، علاقتنا الملتبسة جداً لا تستوعب أن أحمل فعله معنى الخيانة. استمعتُ لحكايته حتى آخرها، وفيما بعد لم أحاول تقصي خيوطها الطويلة المتشابكة، فذلك يلزمني باتخاذ قرار ما، وأنا لا أريد ذلك. وفي حين اعتبر ردّ فعلي عدم اكتراث، كنتُ أعتبره أنا محاولة لأبقى منيعة على الخدش.

كان يردد دائماً أن على الله أن يدخله الجنة، إنْ لم يكن تعويضاً عن حرمانه الطمأنينة، فأقلها لأنه كفّر عن كلّ ذنوبه من خلال القلق. ولم نكن نتفاهم مطلقاً حين نصل للحديث عن الله، ولا حين أسأله: «هل زرت أمك؟»، فيجيبني: «تقصدين هل زرتُ قبر أمي!». ريان، الذي كان معبأ بالآخرين من دون أن يقطنه أحد، كان يتحول إلى نُزل بغرف عدة، يعيش على صرير الهواء الذي يعبر من فرجات النوافذ. قال لي: «إن لله طرقه التي لا نعرفها».

كلانا يعود إلى الشمال نفسه، وحتّى القبيلة نفسها. الحقيقة التي

كفلت لريان دقيقتين من الذهول وقهقهة عابرة قبل أن يستوعبها، والمصادفة التي جعلتني أشك للحظة في الحكاية المتناقلة عن أصول العائلة. أحد أجدادي البعيدين، حين كنتُ ما أزال احتمالاً وارداً في مشيئة الله، كان قد نزح من شماله واستقر في جوار ما من الخليج، بعدما تحول من سُنيته إلى التشيّع، وأنا أفكر في أنه عظيم، ليس مهماً عندي إلى أين تحوّل ولا عماذا؟، المهم فعلها! عظيم أن ينظر إلى الله بعينيه لا بعيونهم، عظيم أن يترك كلّ ضبابه القديم ويبدأ في رؤية جديدة. ليس المهم في أن يراه الآخرون نشازاً.

اختلافنا هذا لم يكن إلا سبباً للسخرية. كنا نسخر حتى من أنفسنا، ومن الغباوة التي تجعل اختلافنا مطية لكلّ ذاك العنت وتسويف الحقوق وأنصاف حروب التي تدار في الخفاء. لم نكف عن التندر بشأن اختلافنا، حتّى تلك المرّة التي كنا فيها نتحدث بصورة تخيليّة: ماذا لو تزوجنا؟ لو أنجبنا؟ وضاعت كلماته في ضحكاته وهو يقول: «بوسعي إقناع أهلي بالزواج من خادمة، لكن شيعية؟ آخر المستحيلات!». وشعرت بلفح هواء ساخن في صدغي، ولم أسعَ للتوقف عند دعابته، عوّلت على أنها مجرد دعابة ينقصها بعض اللباقة. ثم اختلفنا على اسم مولودنا الأول، واتفقنا بعد كلام كثير: ليكن اسمه محمداً. وأخذتنا الثرثرة إلى أبعد من ذلك حين سألني عن دين أطفالنا، فقلتُ: «وماذا سيكونون بالله!»، أجابني: «لا أريد لأولادي أن يكونوا روافض».

ـ روافض يا ريان!

عندئذٍ قلتُ أشياء سيئة جداً رغم أني لا أتذكرها. لا أتذكّر ما أقوله

وأنا معمية بالغضب. كنتُ لأمرّ مرور الكرام لو قالها أيّ واحد سواه، لكن ليس هو. حجم الخذلان الذي أصابني به، حجم الخسارة، حجم الإذلال ملأت عينيَّ بالدموع. في وقت لاحق، كان قد برر لي الأمر بكونه أمراً سيئاً نشأ عليه طوال خمسة وعشرين عاماً التي عاشها، لا يستطيع الانسلاخ منه ببساطة، ومهما حاول فستبقى داخله رواسب بغيضة، قاطعتُ كلامه في منتصفه وقلتُ: «لن أفاوضك في اقتناعاتك أيّاً تكن، لكنك ملزم أن تحترم اختلافي عنك وتساءلت: ماذا لو لم تكن تلك زلة لسان؟

للحظة، فكرتُ في الانتقام، كانت وسيلتي للتعادل معه. وتراجعت لاحقاً إذ كنتُ على يقين أنه يصعب عليه أن يفهم ماذا يعني أن يُحتكر وطنك ضدك، ويؤلب جيرانك عليك، وتعيش في مساحة أدنى من أرضك، وتُجادل في حقوقك، وأن يُمنّ عليكَ حتّى بكدح يدك.

وأنا التي تغفر ولا تنسى، وهو الذي يعتذر ولا يمحو خطيئته، كففنا من تلقاء سقطتنا ولم نعاود التطرق إلى ما حدث، ولا إلى تبادل نكات أو تدبير ضحكات إضافية بشأن مذهبي ومذهبه، وما عدنا نختم رسائلنا بـ«شيعية أحلى!» أو «سنّي وتحبيه!»، ما عاد حين أهاتفه ظهر الجمعة، وأذكره بصلاته قائلة: «قمْ صلِ، ربّي يرضى عليك»، يجيبني: «ليس بي حاجة إلى ربّ الشيعة»، ولا عاد يعلق: «يا طائفية»، حين أُمسي عليه بالقول: «مسا الرضا». لم يكن بالأصل يقولها إلى أن سألني يوماً عن سرّ تسميتنا الشيعة الإثني عشريّة، وشرحتُ له أنهم أئمتنا الإثنا عشر، وحين وصلتُ في تعدادهم إلى الإمام الرضى عليه السلام، إمامي التاسع،

علق بكثير من التيقّظ كما لو أنه وقع على كنز: «ولهذا يا لئيمة ترددين دوماً مسا الرضا». الأمر برمته بات حائطاً يخبىء خلف ستائره شرخاً، وليس نافذة.

غبتُ قليلاً، انقطعتُ عنه، عن النت، وطننا الافتراضي الصغير، ولم يكن ذلك انتقاماً أو عقاباً بقدر ما كان محاولة للنسيان. وحين عدتُ أبلغني بعض الأصدقاء أن ريان دافع عني إثر محاولة سخيفة كان يجربها مستخدم مجهول، أعرفُ منطلقها لأنها ابتدأت في صندوق رسائلي الخاصّة، ببضع رسائل تتدرج من إلقاء التحايا وصولاً للتحرشات الصريحة، إذّاك لم أكن أفعل غير أن أقابلها بالتجاهل التام، ولا تستحق إلاّ ذلك. أعرفُ بدايتها وأجهل حيثيات نهايتها ذلك أن موضوع الخلاف الذي حاول ذلك الشخص التعريض بي من خلاله، انتهى بتعليق عضويته.

شكرتُ لريان موقفه المتضامن معي. ألححتُ عليه لمعرفة التفاصيل لكنه اكتفى بالقول: «كدر حصاهم صفحة الما. لا ياصلون القاع». عدت وكأن شيئاً لم يحدث. حتى الشهامة في العالم الافتراضي يجب احتسابها بالملعقة. دفاعك عن شخص ووقوفك إلى جانبه يعنيان محاباته، أو أنك واحد من شلّته الخاصة، والدفاع عن امرأة لا يعني شيئاً سوى كونك طامعاً يجرب حظوظه معها، أو أنت بالفعل صاحبٌ أثير وعلى كتفيك خمس نجمات. مجرد قذارة إلكترونية! في العالم الافتراضي فرصةٌ سانحة ليُفرغ الجميع صناديق قمامتهم على أبواب جيرانهم، مثلما فيه فرصٌ ليغتسل الواحد من أوساخه. العالم الافتراضي

يأخذ طريقه ليشبه العالم الحقيقي يوماً بعد يوم، أكثر فأكثر، ولذا يفقد بريقه القديم ويكف عن أن يكون وطناً أو حلماً صغيراً، ولمَ لا يفعل وهو يدار بالعقول نفسها التي تدير الأرض وتصوغ معالمها!

قال لي ريان الكلام الذي شكّل سمة علاقتنا كلّها، بعدما غيّر اسمه في نافذة المحادثة إلى «تاقف على أطراف الهدب، وما شافتك عيني!»، قال:

ـ لا شيء مما بيننا حقيقياً. أنا لستُ إلا إلكترون شارداً بالنسبة إليك. لا شيء حقيقياً! أقبّلك ولم أذق نبيذ شفتيك، أضاجعك ولا أعرف كيف هو حرير جسدك ولا طعم حليبه وعسله، شممتُ عطرك الـ premier jour ولا أعرف كيف هي رائحته على جلدك مباشرة، أعرف الآن أن لون بيجامتك أزرق، يشبه لون السماء، بحسبما تقولين، لكنني لا أعرف أيّ أزرق، وأيّ سماء تقصدين، وعند أيّ لحظة، تقولين يشبه سماء القطيف هذه اللحظة، وأنا لم أرَ سماء القطيف مطلقاً، أعرف القطيف، من خلالك، أعرفها قليلاً وأنتِ تعرفين الرياض، قليلاً أيضاً. لكن لا تعرفين ما هي الرياض مثلما لا أعرفُ ما هي القطيف. لديك صوري ولا تعرفين كيف هي ملامحي من دون ورق صقيل وفلاشات. لديك صوتي ولا تعرفين كيف هو بلا وسيط. لدينا كلّ شيء تقريباً، وليس لدينا شيء. ما الذي سيبقى معكِ مني عندما أغادر؟ كلمات كثيرة. هذا كلّ ما بيننا: كلمات كثيرة. أيّ ذاكرة هذه التي تصنعها الكلمات؟ وصورتي، صورتي أنا ريان، التي أريدها أن تبقى داخلكِ دوماً ليست صورة حتّى. إنها مجرد خليط مبهم لحضور ناقص في عالم غير حقيقي.

كلامه الذي فتح في قلبي ثقباً أسود ولم يغلقه، كلامه يبدو الحقيقة

الأخيرة التي أضاءها في ليلي. ونحنُ لسنا إلا مجموعات وسلاسل متراصة من الواحد والأصفار، وأسلاك هاتف مكهربة بقوة عشرين أمبير. هذا هو ريان: ذاكرة من الكلمات، عشرات الكلمات، مئات الكلمات... وصورة مموهة الملامح. وبلا فائدة كنتُ أقرأ نصوصه بلا توقّف، محاولةً أن أستخلص روحه منها وعبثاً، أتم بها خلل صورتي.

في أحد غياباته الطويلة، وبعدما حذفتُ صوره من ذاكرة جهازي، انتبهتُ متأخّرة إلى أني لا أعرف كيف هو وجهه. أستطيع أن أصفه، بتفاصيله الدقيقة، لكن خلف وصفي هذا، ليس هنالك صورة متماسكة يمكنني الإتكاء عليها في ليالي البرد والوحدة. لا يوجد إلا الهلام الذي لا أستطيع التقاطه بيدي. فطنتُ إلى أني ما كنتُ أراه، كنتُ أرى صوته فقط، بتعابيره وإيحاءاته، أراه إلى درجة أني، منذ «مرحبا» في بدء المكالمة، كنتُ أستطيع كيل الملح في صوته أو السكر، تبعاً لتعب نفسيته أو راحتها. وجه ريان لم يكن يتلاشى، إنه بالأصل لم يكن موجوداً، وكلما طال غيابه كانت تتأكل جلّ تفاصيله؛ وكان بُعده يجعله قصيّاً في حين تبقى كلماته كبيرة وكثيرة.

في وقت متأخّر من علاقتي بريان، ولفرط يقيني أننا لم نعد نملك ما نبقى لأجله، ولا ما نغادر لأجله كذلك تساوت خياراتنا على الطرفين، أرسلتُ له: «اعذرني لمجيئي كطوارق الليل! شكراً على كلّ شيء. ريان وداعاً». كرهتُ تسللي من خلال شاشة جوال باردة، في ليل ترتجف أطرافه بوحشة أنفاس الريح. كرهتُ أكثر أنه كان أكثر لطفاً مني وهو يسألني: «هل حقّاً تريدين أن تغادريني؟ تريدين أن أساعدك على

تجاوزي؟». وكرهتُ أكثر من ذلك كلّه، حين أجبته بصلف: «يمكنني تدبر أمري، لا تكترث». أنا التي لا تقول أبداً «وداعاً»، لإيماني أنها رصاصة تخترق القلب، في صميمه تماماً، لإيماني بوجود غيابات تُرتكب بالمزيد من اللطف، لإيماني بأنه ليس هنالك مبررات لنُخلف ندبات وراءنا حين نرحل؛ لكني مع ريان كنتُ قد وصلتُ إلى اقتناع أخير: دوماً سأترك الباب مواربأ من أجله، إنْ لم أصفقه هذه المرّة، وأقفله جيداً، وأرمي المفتاح في البحر.

في الخريف التالي، ونحن لسنا صديقين بعد، كنتُ سأفهم ماذا عنيت في كلّ مرّة قلتُ له فيها، مُقتبِسة من مكان أجهله: «أن تحبّ شيء، وأن تقع في الحبّ شيء آخر». ورغم يقيني أنه يجدر بي المجيء بشيء من أرشيف طلال مداح وحنين صوته أو عبادي وحزن ريشته، كما يهجس بهما ريان، إلا أني كنتُ سأرسل لهُ صوت فيروز الذي لا يعرف اللهجة النجدية وأخلاطها، ولا الشعر النبطي، ولا مواسم الصيد، ولا بيت الشَّعَر، ولا مدارس تحفيظ القرآن، ولا الهلال، ولا الاستراحات، ولا العليا ولا زحام شوارع الرياض وضيق أخلاقها؛ مثلما أني لا أعرف من ذلك شيئاً. أرسلتُ له فيروز تُغني: «بتذكرك كل ما تجي لتغيم.. وجك بيذكر بالخريف.. ترجع لي كل ما الدني بدّا تعتم... متل الهوا الي مبلش ع الخفيف»، تحت سؤال يشبه صوته المجروح ووجهه المشطوف من الملامح: «بعدو أليف، ريان؟»، وختمتها بـ: «بنت شيعية وتحبّك يا جار!».

(٢٠)

قدرتي على نقل الأشياء والأحداث والصور والأمكنة والروائح تكاد تكون مُعدمة. وكي أكون أكثر دقة أقول: تكاد تتحول إلى نوع خاصٍّ وغير مقصود من الكذب، إذ لا أفلح مطلقاً في المطابقة بين واقعها وصورها المنقولة، ثمّة مسافة بيّنة لا أعرف كيف أفسرها، لا أتعمد أن أقول الأشياء خلاف ما تقوله، ولا أن أكسبها هالة زائفة أكثر مما هي عليه، لكنها تنتهي إلى ذلك، مخلفة المسافة نفسها والأسئلة المتشابهة عن مدى كون الأشياء حقيقية من حولي، وعن مدى تمكّني أنا من استنطاق حقائقها واستشفاف أرواحها. لذا كثيراً ما أصل عند كلّ بوابة بوح إلى نتيجة واحدة: شعور بغيض بأني رسمتُ عالماً جديداً، ملتبساً وأدكن غير ذي صلة بالعالم الذي كنتُ بالأصل أنوي تمريره.

عُمَر يبرر لي ذلك بأني أحاول الاحتفاظ بصورتي عن العالم لنفسي، لتظل صورة تامة لا يشوهّها شيء، ولا يطبع أحدٌ آثاره عليها. وأنا أدرك أن تبريره غير صحيح، إنها أنا التي لا تسمح للعالم بأن يعبرها. كلّ عبور هو وطء، ولستُ أجد في وطئي لذة.

من دواعي الأسف أيضاً، أنني أنا التي لا تتحدث عن الأشياء إلا لكي تنساها، كنتُ أسمح لها عبر ذلك بالبقاء حية إن لم يكن في ذاكرتي، ففي

الذاكرة التي أمد لها خيوطاً من وهني فتقوم بغزلها.

الآن، وأنا أخبره بكل ما كان سرّاً حتى العام الفائت، السرّ الوحيد الذي أوصدتُ أبوابه عن عُمَر، وعُمَر الوحيد الذي بخفة وجوده فتحها، كنتُ أعيش الفكرة نفسها أثرثر وأثرثر، غير متيقّنة من قدرتي على تمكين عُمَر من لمس ما حدث، وليس معرفته فقط، وغير متيقّنة من قدرتي على النسيان. أفكر: المحاولة تغفر لنا الفشل، على أي حال.

كنتُ قد وضعتُ نقطة أخيرة، وطوال الوقت لم يقل شيئاً إلا الهمهمات البسيطة التي تعني متابعته حديثي، والأسئلة والتعليقات القليلة التي تحرّضني على الاستطراد. استوقفني لثانيتين حالما اتضحت وجهة حديثي، وقال:

ـ سأسمعكِ حتّى الأخير لكن، حاولي أن تقتصدي في أيّ تفاصيل جسديّة.

ـ هذا بالضبط ما أنويه.

واعتذر عن «جلافته» بحسب تعبيره وأوضح أنه ليس مريحاً أن تسكن ذهنه أيّ أخيلة لعلاقة جسديّة أكون أحد طرفيها، فالأمر كأن الواحد منّا يتخيّل والديه في الفراش، أو يرى على عنق أخته آثار قبلة.

أنهيتُ حديثي، وقلقتُ مسبقاً من لحظة صمت تمرّ بنا ولا نجيد قطعها، فقلتُ بحماسة تخفي توجّسي:

ـ قُلْ شيئاً؟

ـ وهل هذا ضروري؟

ـ طبعاً!

ـ أكره حيادكِ.

ـ حيادي؟

ـ لا تستطيعين أن تكوني محايدة وتتحدثي بصوت بارد، وأنتِ طرف في الأمر، لا يحقّ لكِ ذلك.

ـ ولا يحقّ لي التورّط فيه، حدّ أن تُعمى عيناي عن الحقيقة.

ـ أنتِ مبتلة لن تقنعيني بخلاف ذلك.

ـ وها أنا أحاول أن أجف.

ـ تحبّين ضي؟

ـ لستُ مثليّة.. لتسألني بمثل هذه النبرة.

ـ تكرهينها؟

ـ مطلقاً!

ـ وهي هل تحبّك؟

ـ لا أعتقد.

ـ لمَ تصرين على نفي فعل الحبّ؟

ـ وما الفائدة. بالحبّ أو بدونه وصلنا إلى النتيجة نفسها.

ـ هل تعرفين ما هي مشكلتكِ؟

ـ أخبرني.

ـ أنتِ تؤمنين بنفسكِ إيماناً يدفعك إلى الكفر بكل أحد سواك.

ـ أنا أؤمن بك.

ـ أنا استثناؤكِ والاستثناءات لا تخرق القاعدة.

ـ هل تعرفُ شيئاً؟ قبل وقت قريب كنتُ أتحدث مع سندس. قلت لها

إني لا أستطيع المحافظة على شيء. الأصدقاء ينسلون من بين أصابعي مثل الماء. والكتابة تكفّ عن أن تكون منحة ضد جنوني. وحيطان غرفتي تضيق. أجابتني: «كلّ شيء باطل ما خلا الله» وإن كلّ ما أفعله لغير وجه الله يرتد عليّ. هذا غباء. الله لا يلعب بحياتنا الشطرنج مع قانون مُسبق: أما أن نلعب كلّ خطوة لمصلحته وإلا أفسد علينا لعبتنا.

ـ هي تؤمن بطريقة تعتقد معها أن الله ضلع ثابتة في كلّ شيء. لا تحرميها مما تؤمن به.

ـ أستطيع إذاً القول إن الله اختار مسار قدري، وليس من العدل أن أتحمل نتائجه وحدي.

ـ ولكنه جدل يخالف إيمانكِ، وأنتِ تعرفين ذلك.

ـ هل تعتقد أنه سيكون رحيماً معي؟

ـ أنا متأكد أنه أفضل بكثير مما نسمع عنه. بكثير جداً.

ـ وإنْ كنتُ لا أجد خطيئة في ما حدث؟

ـ إنه أولى بالسؤال مني.

ـ مع إجابة مؤجلة.

ـ إجابة نهائية.

ـ لم تخبرني بعد، كيف تراني؟

ـ ما من شيء تغير.

« لا أحد يأتي، لا شيء يحدث»

صموئيل بيكيت

(٢١)

جسدي يخونني، وموجعة خيانة جسد لم أعتد منه إلا أن يكون حياديّاً، حتّى في أسوأ تواريخه معي. حياديّ وخفيف بحيث لا أتذكر يوماً قد حملته وأثقلني، ولا خلعته فتعثرتُ به. لطالما كان صامتاً في عزّ ثرثرتي، ويهزّ رأسه دلالة على فهمه. لطالما كان متجاوباً، يتساوى عنده الجوع والشبع، والالتصاق الحميم وصقيع التنافر. ولطالما أخذته على محمل الجد لأنه هكذا، جيّد معي وعادل.

جسدي يؤلمني، الألم الذي لا تزيله أقراص البنادول، ولا يقصيه التجاهل. الألم الذي يُشبه الثقل، وكأني أتقدم بصعوبة في أرض من وحلٍ وكائنات لزجة خضراء، يدفعني إلى التخلّي عن فكرة الحياة كلها. ألم خادع ومُركّب، رأسي كلّه ثقب رصاصة تئز على حوافها الأصوات وتثور الريح. الألم الذي يرمح في رأسي كخيول بريّة وهنود حمر يؤدون طقوس دفن موتاهم. الألم الذي حين يكون هنا فليس ثمّة سواه، وحين يمضي يبتلع مع جَزره أصدافي الصغيرات ومراكب البحارة وأسماكهم وشِباك صيدهم.

وحين استدرت مقابل كومدينتي ضحكتُ، ضحكتُ كأني فقدتُ قدرتي على فعل أي شيء سوى الضحك. ولا أتذكر أني ضحكتُ هكذا

إلا قُبيل دخولي غرفة العمليات قبل بضعة أعوام، حين هشمتُ ذراعي، وتطلب الأمر تثبيتها بسيخ ريثما يتكثّف الكالسيوم في العظام وتتصلب من جديد. كنتُ في غرفة واسعة وباردة، وبيضاء جداً، بأضواء أكثر بياضاً، ومرّ بي الكثير من المعاطف البيضاء، كانت أياديهم تزيح الستائر وتعيدها بتكرار لا تلابسه الرتابة. وفكرتُ: يمكن كفني أن يكون أقل بياضاً من تلك الغرفة. وضحكتُ، كأن أحداً لا يكفّ عن دغدغتي، ضحكت. والآن، كنتُ أقرأ على علبة دوائي وبخط أحمر ٤٠٠ وأضحك.

جسر الثقة بيني وبين مرضي، كان قد انهار منذ نوبتي الفاضحة في القاعة ٢٤ من مبنى ع ١. لا أنفكّ أتذكّر رعب الوجوه وفضولها وشفقتها. وكان مرضي من اللطف بحيث ترك لي فسحة بقية العام بلا هزّات تُذكر. لكن الثقة مجرد سلبيّ صور، لا يمكن عبره التقاط أكثر من صورة واحدة، ولذا من الصعب أن تُستعاد. الثقة تُكتسَب مرّة واحدة، وحين نخسرها لا نستردّها إلا بمعجزة. وفي حالتي أنا، لم أكن بانتظار أيّ معجزة، ولست في وارد التعويل عليها.

كان صيفاً حارقاً ولما تشقق الرطوبةُ سطوحه بعد، في أول يونيو الماضي، حين تسلّمت وثيقة تخرّجي، وأخذت السيدة التي سلّمتها إليّ بطاقتي الجامعية وقصّتها من المنتصف ورمتها في علبة كالحة اللون وكبيرة مع أنصاف بطاقات أخرى كثيرة مختلطة فيها الأسماء والاختصاصات والشُّعب والدفعات، رمتها بلا اهتمام، ثُمّ أعطتني وثيقتي وابتسمت وقالت: «مبروك».

غادرتُ المكتبة حيث تسلمتُ وثيقتي، وكان حلقي يكوّر كتلة من

الأسى ويدفعها نحو مسار تنفّسي. وخرجتُ، جلستُ على مقعد خشبي، ولوّحت لي سلمى، وحلّ وقتُ افتعال الغبطة وتمرير الأمنيات. قالت حمداً لله الذي تاب عليها أخيراً، وقلتُ ليته لم يتب! ما هي بتوبة، ليست إلا تسريحاً شنيعاً من الحياة. ما الذي سأفعله الآن؟ أين أنفق أيامي، ما من أمكنة لاستثمارها، والأيام لا تُدخَر؟

وقدمتُ في روضة الأطفال التابعة للجمعية الخيريّة، كمتطوعة وخريجة كلية علماً أن المطلوب خريجة ثانوية، وأيضاً كشخص عايش العمل التطوعي على مدى بضع سنوات. كان قبولي مضموناً، غير أني توقعت تولّي عمل مكتبي، وليس أربعة وعشرين طفلاً يغذّون حاجتي إلى الأمومة. وهنا، كان الحضور الفاعل لمرضي، طغيانه الذي لم تردّه سماء.

أحببتُ أطفالي الأربعة والعشرين، واحداً واحداً أحببتهم، وأنا التي تتخبط ذاكرتها في الأسماء وتقدم إجابات دائماً خاطئة، حفظتُ أسماءهم منذ الأسبوع الأول. كنتُ قد أبليتُ حسناً وأنا أقنع مناف بالكفّ عن استخدام أسنانه كقلامة أظفار، وولاية عن استخدام أظفارها كأسلحة دفاع وهجوم، وعليّ عن استخدام لسانه البذيء كسوط مالح، وإيلاف عن استعراض أشد سياطها لذاعة... متوالية من التصرفات يجرّ بعضها بعضاً. واضطررت في سبيل ذلك إلى الرشاوى وغض النظر والفرص المُعادة مثل شريط تسجيل. معهم آمنتُ أن جزءاً مني خُلق لدور كهذا، لوجود كهذا، ولمحاولة كهذه. هم أيضاً ساعدوني على الإتزان، كنتُ أقوى بهم، وأتكل عليهم في تعديل مزاجي وتصحيح مسار يومي،

أتكل عليهم ليخلقوا مني إنساناً أفضل، خارج مقاييس البشر، ومقاييس الملائكة أيضاً.

كانت تدهشني ردود أفعالهم تجاه الحياة. تدهشني تفاصيلهم الصغيرة، إغماضة عيونهم، تحريكهم أصابعهم، والطابع الذي تأخذه وجوههم حين يشيرون لحاجتهم إلى الحمام، ضجيجهم وقت الفطور، وامتعاضهم إثر شرب العصير. يدهشني وقت الحكاية اليوميّة، وكيف يتكومون على الأرض محيطين بي من الجهات الأربع، وحين يجربون استباق أحداث الحكاية، وحين يلمسون كتاب الحكاية، والألوان، وتعرّج الخطوط وتعاريش النباتات، وكيف عندما ننتهي من سرد الحكاية يعيدون تصوير مشاهدها التي أعجبتهم. يدهشني تصفيق واحدهم لنفسه لمعرفته الحلّ الصحيح، وحين أنسى علبة الحلوى يتمدد الخذلان في عيونهم والتأفف في أفواههم. كانوا جنتي الصغيرة، التي تخبىء لي كلّ يوم دهشة أكبر من أجل اليوم التالي.

وصيّروني، أنا الكائن الليلي، إلى شخص يتشرّب الصباحات منذ فجر شموسها الأولى. يومياً، أستيقظ مع أذان الفجر، أستحم، أرتدي ملابسي، أنتظر مع أمي وأحاديثها الصباحيّة باص الروضة، الذي يأتي في السادسة والنصف، يزمر لي وأخرج، أصعد درجتين ويدي على الحاجز الحديدي تمسكُ بها حوراء، وحالما أجلس في الصفّ ما قبل الأخير، يعلق يوسف بتنورتي الجينز، كانت دائماً جينزاً، ويشدّها، كان دائماً يشدها.

لكن، ما بدا أنه لن ينتهي كان محكوماً بالانتهاء. مرضي الذي ظلّ يعبث من بعيد، لم يعد يكتفي بأن يطلّ من خلف الباب، أو من درفات

النوافذ، كان عليه أن يحسم أمره ويحضر بصورة أكيدة ونهائية. وليس الفرق بالنسبة إليّ حجم البؤرة المعطوبة في دماغي التي لا تكبر. الفرق الوحيد الذي آبه به غياب مرضي أو حضوره، تكرار نوباتي وشدّتها. وآنذاك فهمتُ الرسالة التي يريد إعلانها: إنه هنا ولن يغادر أبداً، وعليّ البدء بإجراءات تلائم وجوده.

هل كان تركي الروضة إجراءً احترازيّاً؟ الله وحده يعلم. الشيء الوحيد الذي أعلمه ومتيقنة منه هو أنني لم أكن لأغامر بالتسبب لأطفالي الأربعة والعشرين بترويع مثل هذا. ستروعهم الحياة كفاية، ولا حقّ لي بالمزايدة على قلوبهم الغضّة. قدمتُ عذراً على قدرٍ من التضليل إلى أم هاشم، نجاة، مديرتنا. كان عذري أني سأتقدم للماجستير في جامعة الملك سعود، وذلك يتطلب مني دراسة مكثفة للإنكليزية من أجل امتحان الـ TOEFL. ما كنتُ أكذب، لكني أعتذر، إذ لن تتأكد النتائج إلا بعد بضعة أشهر من تقديم الامتحان، ولغتي لم تكن بذلك السوء لأخصص لها وقتي كلّه. وفي آخر العام الدراسيّ، كانت ستظهر نتائج القبول من دون اضطرارنا إلى اجتياز اختبار الـTOEFL، وما كان اسمي موجوداً على اللائحة. أم هاشم، استجابتْ لي بلطفها المُعتاد، واكتفت باستبقائي لإكمال الفصل الدراسيّ كي لا يتشتت أطفالي مع مُعلِمة جديدة، وكانت تكفكف سيل اعتذاراتي، تريد بذلك أن تكفيني مغبة التبرير، في حين كنتُ أرى تحت طبقة وجهها الخفيف شفقةً ترزح في اشتباكها مع الودّ، الشفقة نفسها أراها في وجوه المعلمات الأخريات وعاملات النظافة.

عرفت أن الكلام سيتطاير سريعاً، ونوباتي لن تفتأ أن تصير مشاعاً

للهمهمات. نوبتي التي صارت تباغتني في أيّ وقت، في الحمام، في غرفة المعلمات، وحتّى في الاجتماع الوحيد الذي حضرته للجنة النسائيّة في الجمعية. أحياناً، كانت من الخفّة بحيث إني عدت لا أشعر بها إلا لماماً. تبدو مثل غصّة، أو لفحة هواء باردة. وحقنت عينيَّ بالدمع وحلقي باللعاب. أحياناً، كانت تتكرر فتبرز خطوط واضحة تحدد انحسار نوبة من بداية أخرى. وأحياناً، كانت من العنف والشدّة بحيث تتسبب لي بالغيبوبة والنسيان، ولم أكن من قبل أنسى، وكان هذا يخيفني، يخيفني عدم معرفة ماذا حدث، وأن لا أملك أيّ فكرة عن كيف حدث وعن تفاصيل أخرى.

أنهيتُ الفصل الدراسي بحفلة وداع صغيرة، وبكاء ياسمين الذي ترك بقعة على تنورتي الجينز، وهدايا صغيرة: ممحاة على هيئة الدُب Boh، وعدد قديم من مجلة «ماجد»، وربطة شعر، وحبات لبان خالية من السكر.

وهاتفتُ محمد.

ـ أنا مُتعبَة...

ـ هل تريدين الذهاب إلى المستشفى؟

ـ أخذتُ حبة زائدة، أو اثنتين.

ـ لا تغلقي الهاتف، قومي الآن وافتحي الباب.

قمتُ، بصعوبة. كنتُ قادرة على تحديد المسافات. وأكثر من مرّة شعرت بأني سأرتطم بالحائط، وبأن الأرض تنفتح تحت قدمي وتبتلع خطواتي. كان عليّ طوال الوقت ترداد ما أنا بصدد فعله كي لا أتوه في

منتصف الطريق وأنسى. وكان عليّ معالجة الباب بالمفتاح مراراً حتى أستطيع فتحه. وعدتُ برؤية مشوشة، وضباب الإعياء يسرق حواسي، حملتُ السماعة، وقبل أن أقول شيئاً، قال محمد:

ـ قليلاً وتأتي أمي.

وطلب مني مواصلة الحديث معه، أظنني هذيتُ كفاية، بكلمات متقطعة بلا رابط، وجمل من دون معنى.

أخيراً، جاءتْ فرصة سانحة لترضى عني أمي. يمكن أن تتعاقب نوباتي كيفما شاء دماغي المعطوب ما دامت أمي سترضى في الأخير، وتعاود مدّ حبال الكلام، التي انقطعت بيننا، وستكفّ عن النظر إليّ كما لو كنتُ غير موجودة، وعن الانشغال بأيّ شيء تافه كلّما اجتمعنا في مكان واحد، وعن الكلام معي عبر إدنا وإيقاظي عبر إدنا، وإطعامي عبر إدنا، أيضاً.

كان معدل الهمهمات وكلام الخلسة مرتفعاً عن المعتاد، وتكرار زيارات فاطمة أثار ريبتي. كلّما دخلتُ عليهما، أمي وفاطمة، توقفتا عن الهمس وافتعلتا حديثاً جديداً ريثما أخرج. وعرفتُ أن ثمّة ما يجري. قالت أمي: «ستزورنا خالتكِ هذا الخميس»، قلتُ في قرارة نفسي: «خالتي تزورنا كلّ يوم، فما الجديد؟».

أضافتْ: «ومعها بنات خالتك»، أكملتُ: «أف! اجتماع عائلي آخر يقتلُ مللاً!»، تابعتْ: «ولا تختلقي أعذاراً كعادتكِ كي تغيبي! عيب!». بالطبع، عيب! عيب! عيب!

في تلك الليلة لم أنم. حمزة يخطبني. لا بُد أنهم يمزحون. لماذا

يخطبني أنا. وأنا لستُ إلا بنتاً مُعتلة، لا تستطيع الاتفاق مع العالم، ولا مع التوقعات المُفترضة منها كبنت عاقلة ومهذبة، ولا أن ترمي بنفسها تحت عجلات القطار خوفاً من تفويته. لستُ إلا البنت التي أفسدتها الكتابة وساعات النت وصحبة الشبان كما تظنّ خالتي، وتشيّع ظنونها في فكر أمي. وتحدّ من اختلاط بناتها معي كي لا تُفسدهن التفاحة الخربة. ثمّ لستُ وإياه غير مجموعة من المورثات الخاطئة، هل يريدنا أن نُفرخ أطفالاً معطوبين يعيشون حياتهم متنقلين بين غرف المستشفيات، أم لعله يظن أن الله سيعفيهم من لعنة دمنا؟ ثم ماذا لو تزوجنا، ورآني في أكثر لحظاتنا حميمية وقرباً، ملتصقة بعريه، ومأخوذة بشهوتي، وعلى حين غرة لا أعود إلا جسداً ينتفض ووعياً منقوصاً! وماذا لو تزوجنا، وأنجبت طفلاً أو اكثر، فكيف سأحممه من دون أن أخاف، كيف سأحمله وأنزل به الدرج ولا أخاف، كيف سأعطيه ثديي حين لا تكفّ نوباتي عن التكرار، أو كيف أضعه على صدري وأهدهده كي ينام! كيف وهذا الجسد ليس محكوماً بإرادتي في كلّ أحواله. إذا كانت هذه دعابة فلستُ أفهم ما المُضحك فيها، وإذا كانوا جادين فأنا على وشك اليقين بأني العاقلة الوحيدة بينهم جميعاً!

خالتي التي تُقدم لي ابنها بمِنّة ظاهرة وكأنها تضحي به، وأمّي التي تعتقد أنها ستبلغ غايتها وهي تضمن لي سعادة دائمة مع حمزة، اتفقتا على أمر واحد: سأوافق. بل ليس عندي أيّ سبب للرفض. وهما قد أمضتا أياماً تخططان لحياتنا، ومسكننا، وصالة زواجنا، وتوقيته وصولاً إلى أسماء أطفالنا وعددهم والفرق بين أعمارهم. ولذا كان عصيّاً على أمي

التصديق بأني حقّاً أقول، بهذا الصوت العالي: لا.

ربما أكون فعلياً أترك لمرضي فرصة تعطيل حياتي، لكني أفكر: بهذه الطريقة فقط يمكنني التغلّب عليه. لن أسمح له بالاستمرار من خلال أطفالي. لا أريد أن أكون صلة عبور له، ولا أن أعيش حياة أمي من جديد. وهي عاجزة عن إيجاد ما تكفّر عن ذنبها إثر كلّ نوبة تكهرب جسدي ولا عن موت حسن. أنا ممتنة لله على هذه الفرصة الطيبة، لكني لا أرفس نعمته إذ أقول: لا. في ظروف أخرى، لربما اعتبرت حمزة واحداً من أفضل الفرص التي عبرت بي، إنه رفيق جيّد لحياة كاملة. لكني أعيش هنا، عالقة في جسدي هذا، باحتمالاته المحدودة، وليس يمكنني أن أقامر بحيوات آتية من أجل حياتي الآنية.

حالما سمعتُ خطوات أمي على الدَرَج استدرت ناحية الحائط، ولم يكن لدي قدرة على تحمل أساها. جاءت والتصقت بظهري، وأخذت تمسّد شعري، وكانت تبكي من عجزها وقلة الحيلة. وفي كلّ نوبة، نوبتي التي تتكرر في مواعيد ثابتة، كنت أشعر بأن انتفاضات جسدي تعرّيني، العري الذي لا أتمكن معه من ستر نفسي، ولا يفيد معه رفع الغطاء فوق جسدي أو التشبث بملابسي، عري الانكشاف والحاجة والضعف. كنت أسمع نشيجها، لكني بصعوبة أشعر به. نوبتي تحيطني بغلاف خانق، إلى عزلة مُحكمة، تقصيني. كنتُ خاوية، وفقدتُ فيما فقدتُ رغبتي في توقف النوبة. وصلتُ للحظة التي تتساوى فيها الأشياء، إذ يصبح رأسي فارغاً وروحي مطفأة تماماً. كنت تعبة، وتركتُ خيط لعابي يسيل على المخدة. نشيج أمي الذي يتصاعد وحشرجات نوبتي كانا يتناوبان

ككورس، وأنا أرى نفسي من الداخل، وأسمعني من الداخل، ويضرب صداي في جدران صدري ويرتد، وتنتشر ارتداداته في القاع، ومع كلّ نوبة يتضاعف ترسّبي.

ومحمد الذي يستطيع تحويل أيّ حدث إلى تسلية ممتعة، يبتكر منها النكات ويضحكني، كان يخفي قلقه بهدوء مُفتعل. ظلّ طوال الطريق يسألني ولم يتوقف عن طرح الأسئلة، متى أكلت؟ ومتى استيقظت؟ ومتى نمت؟ وماذا فعلت اليوم؟، محاولاً أن يبقيني معه، لكن نعاسي كان يمنعني من الإجابة إلا بكلمات متقطعة، وغرق أحرفي في لعاب نوبتي يتكفل بمسخ كلماتي القليلة وتحويلها مبهمة. رأسي ثقيل جداً ونعاسي يدفعني إلى الهلوسة، أحياناً كنتُ أحاول الإجابة عن أسئلة تجاوزتْها أسئلة أخرى، وأحياناً كنتُ أجيب مرتين متعاقبتين عن السؤال نفسه. وكان إذا لم أستطع الكلام وتغرغرت الكلمات في فمي، أو حين أسكن ولا آتي بأيّ حركة لشدة التعب، يمدّ لي يده ويقول: «شدّي على يدي». وبسبب الوهن أو الكبرياء، قلّما أعطيته يدي.

لطالما آمنتُ أني، أنا ومرضي، نقف على جانبي جرف خطر، وإذا سقطنا فسنسقط معاً، وآمنتُ أن وقع ارتطامنا سيدوي في أذني طويلاً. وسأعرف يقيناً أننا سقطنا. وما حدث هو أنه حين سقطنا كذبتني حواسي وطقطقة عظامي. وما حدث هو أنني استبدلتُ السواد العملاق الذي يبتلعني في فتحة الجرف إلى مجرد ظلام يوميّ أعالجه بالسكوت والادّعاء أنه لم حدث، في حين أنه يطمرني شيئاً فشيئاً. كنّا قد سقطنا، وكان إيماني الجديد: أن كلّ سقطة تخبىء سقطة أخرى أشد انحداراً وأبعد

غوراً، وأني موعودة بالمزيد.

عندما كنتُ في الصفّ السادس، ولي من العمر احد عشر عاماً، كانت بدايات مرضي انتفاضات بسيطة تدهمني أثناء نومي، وتتسبب بنوبة فزع أو كابوس ليليّ، مجرد انتفاضات واختناق وصحو مذهول. وأمي التي تحمل في جينات جسدها إرثاً من المرض، وترتاب بكل ما يصيبنا، مهما يكن عابراً، والتي امتنعنا عن تركها تشاهد أيّ برنامج طبّي، لأن ذلك يعني اسم مرض جديد يُضاف إلى قاموسها الثري، واشتباهاً أكبر في كلّ عارض ينتاب أجسادنا، حين رأت أمّي نوبات نومي تلك، أرادت أن تصدق أني لا أعاني أياً من الأمراض. لا يمكن طفلتها الصغيرة الحلوة أن تمرض، هذه ليست سوى مخاوف، مخاوف يجب ألا نسلس لها القياد، بعد ثلاث سنوات من ذلك، وحين رأت نوبتي وأنا أتشنج مفقدة السيطرة على جسدي لم يعد يمكنها أن تُنكر، وكان تخطيط دماغي كفيلاً بإثبات ذلك.

أتذكر وجهها، عندما كانت تجلس أمامي وأنا أخضع لفحص أشعة الرنين المغناطيسي، كنتُ أراها من مرآة صغيرة مثبتة قبالتي، وأنا في تلك الأسطوانة الضخمة، تابوت أبيض كبير، وهي تحرّك شفتيها بآيات قرآنية وتشارف البكاء. وأتذكر مجادلتها الطبيب وهو يكتبُ الوصفة، ويقول إني بمواظبتي على العلاج من الممكن جداً السيطرة على النوبات والحدّ من تطور المرض. كانت تجادله في أن لا يفخخ دمي بالمهدئات ويحيلني إلى بنت نضبت فيها الحياة. في حين كنتُ أنا أضحك، epilepsy. رائعون هم الأطباء حين يطلقون أسماء مضحكة في رنينها كهذه!

أمي اعتقدت أن مجموعة التغييرات التي تجريها ستقلل من احتمال ضرري، فغيّرت سريري واشترت لي واحداً جديداً واطئاً زواياه بلا أعمدة، وسكّنته قبيلة من المخدات، وفرشت أرض غرفتي ببطانة رفيعة، لأني كثيراً ما كنتُ أثناء نوبتي أسقط عن السرير. ودائماً تسأل عن رأسي حين أسقط. كلّما كنت على وشك إجراء فحص آخر تخاف من فكرة العثور على كتلة متورمة في دماغي، مع أن السقوط لم يكن يؤذي عظامي. وجب عليّ الالتزام بقوانين قليلة: محظور عليّ الاستحمام في المغطس، وعبور الشارع العام وحدي، وإغلاق باب غرفتي. بعض قوانينها لم تكن منطقية، وبعضها لم أكن أحرص على تطبيقه.

ولم نختلف على مرضي إلا حين تخرجتُ في الثانوية وقررت التقديم إلى جامعة الملك سعود، لم تكن أمي تأمن مرضي في وجودي قربها، فكيف تأمنه وأنا بعيدة! وجدتني بحاجة إلى الكثير من الكلام بغية مواجهة خوفها وهواجسها، وأسألها ألا تعوقني في تسيير حياتي مثلما أشتهي، فخذلتني. وهكذا، كنتُ لأربع سنوات أدرس تخصصاً تافهاً، في كلية غبيّة، مع فرصٍ معدومة لأحقق بشهادتي شيئاً، أدرس لأن هذا ما يجب عليّ فعله، وأنجح لأن هذا ما يفعله الجميع!

وعرفتُ أني لحظة تطأ قدماي بوابة المستشفى ستتوقف نوباتي. نوباتي التي توالت بلا توقف منذ بضع عشرة ساعة. نوباتي التي لا يفصل بين إحداها والثانية أكثر من خمس دقائق. وأعرف ماذا سيُقال لي، إنها نوبة واحدة، نوبة واحدة متكررة! أعرف! ولا أريد من أحدٍ أن يُذكّرني. أريدهم فقط أن يأخذوا جسدي ويجربوه يوماً واحداً، لثلاث أو أربع

نوبات. إذ ذاك سأترك لهم حرية اختيار المصطلحات والمسميات والهذر البارد. وبالفعل توقفتْ.

جاءت الطبيبة المناوبة، وقبل أن تبدأ بالكلام كنتُ مستعدة لمخاطبتها بكلّ عدائية، ذلك الشيء الوحيد الذي أملكه دفاعاً عن جسدي، في مقابل شعوري بالانتهاك، وانحسار حيّز خصوصيتي. سألتني عن مشكلتي، وأجبتها: «أخذتُ حبة زائدة فوق الجرعة القصوى»، وحينذاك كان محمد على وشك إخبارها: «ربما حبّتين» لكنه عدل عندما زجرته بنظرات خانقة. كنتُ وأنا أجيبها أحضّر معادلة متسلسلة منطقيّاً، Tegretol، الحبّة البرتقالية كما تسمّيها أمي، دوائي المُعتاد قوته ٢٠٠ ملغرام، وآخذ حبتين يومياً، لكن طبيبي جعلها حبة واحدة، ونسيت، لم تتوقف نوبتي وفكرتُ أن تناول حبوباً إضافية سيحسن الوضع قليلاً، وكانت حدود الجرعة القصوى ثماني حبات أيّ ألف وستمئة ملغرام، وبما أني تناولت خمس حبات بقوة أربعمئة، فهذا يدلّ على أني قد أخذتُ ألفين ملغرام.

استهلكتُ جلّ طاقتي وأنا أقدم لها هذا البيان التفصيلي، وصعقني ردُّها بتشكيك بارد: «لكن منذ وصلتِ لم تنتبكِ أيّ نوبة!». أسئلتها اللاحقة أكدت ريبتي، هل تشاجرتُ مع أحد؟ هل عندي مشكلات عائلية أو ضغوط في المنزل؟ هل هذه أول مرّة أتناول أكثر من الجرعة المعهودة؟ هل تلاعبتُ بأيّ أدوية أخرى؟ هل أتعالج عند طبيب نفسي؟ وكانت بين حين وآخر تتأكد من إجاباتي من خلال محمد متحدثة معه بالإنكليزية، كما لو أني غبية لن أفهم، وكما لو أن تعابيرها لا تكشف

بوضوح حتّى لعماي ما تقصده! أغلقتُ فمي وأنا أقضمُ شفتي كاتمة غضبي، إلى أن وجدتني أنفجر إثر تماديها، قائلة: «اكتبي في تقريرك أنها محاولة انتحار فاشلة! لا يهمّني!».

تابعتْ فحصي بصمت، وجو من التوتر يخيّم علينا. كنتُ أكره على وجه التحديد المطرقة التي يستخدمونها على ساقي وباطن قدمي ومرفقي لفحص ردود فعلي العصبيّة، وكرهت عندما سألني الطبيب في الفحص الأول هل كانت نوبتي تتسبب لي بتبوّل غير إرادي، ومع ذلك لا بُد أن ترتد رجلي، ولا بُد من أُجيب بـ: لا؛ لا أكيدة لكنها خافتة. أمرتْ الممرضة أخذ عينة من دمي، ونادتْ محمّداً، وقالتْ أنه يجب انتظار فحص الدم للتأكد، وإن الأمر يتطلب أكثر من المتابعة لليلة واحدة في المستشفى، وإن الجرعة الزائدة قليلة ومرور بضع ساعات على أخذها أتاح أن يتخلّص الجسم منها، بلا ضرر على الغالب.

البياض هنا لا يُحتمل! وتشبثتُ بيديّ محمد: لا تتركني! رجاءً! سأموت إذا تركتني، لا تتركني! سيكون أول شيء يفعله في الغد هو المجيء إليّ، قال، وكان يعدني مثلما لو كنتُ طفلة بعلبة ماكينتوش وآيسكريم باسكن روبنز، ولم يتبقَ إلا دمية بشعر أشقر تغنّي: «التعلب فات فات.. ودار سبع لفات»! محمد يظنّ أن ولادته المبكرة منحته أسبقية تحتّم أن يكون هو من يتلقى خلايا دماغي المُعتلة ودم حسن الذي يخون تكوّره ويتكسر. كان هو الآخر مثل أمي يحمل ذنب أنه لم يمرض بدلاً منا، ولم يسدد جميع ديون العائلة دفعة واحدة بشخص واحد بدلاً من تقاسم أعبائها بيننا بلا عدل.

البياض هنا لا يُحتمل! لكني أرضخُ لمشيئة محمد، وأرتدي قميصاً أبيض شبه عارٍ، وأنام في سرير بملاءات بيضاء، في غرفة جدرانها بيضاء، وستائرها بيضاء، وأبوابها بيضاء. كلّ شيء هنا أبيض بحدّة تجلب الغثيان، والخوف، والكوابيس القاتمة! الأبيض الذي لا يمكن أن يكون إلا موتاً. في واحدة من هذه الغرف البيضاء نبت لحسن جناحان وطار، لم يعد مُثقلاً بدمه، ولا محتكراً لجسده، صار طليقاً في روح مضيئة، وسقط في ذلك اليوم شهاب، جرح عيني وفاتني أن أُبعده بيدي مثلما فاتني أن أُحمِّله أمنية، كأن يعود وأعلّقه إلى السماوات بخيط طويل يبدأ معقوداً بيد الله.

تقول أمي: «الطيبون لا تريدهم الدنيا!». أمي تُجيد دائماً ابتكار فلسفات تقنعها بعدالة الله معها، هي التي لا تُعرِّض بقضائه، ولا تستنكر ابتلاءه، ولم تجدف عليه طوال حياتها، وهو الذي، كما أقنع نفسي، يُزلف لها الجنة خيرَ مُستقرّاً وأحسن مَقِيلا. وأنا لستُ طيبة كفاية لتركلني الدنيا خارجها، لكني من التعب بحيث أحتاج إلى موتي. أريد أن أحتضنه لو كان شبيهاً بـJo Black، وسيماً بمثل قامته، ويحبّ زبدة الفول السوداني. لن أساومه على بضعة أيام أخرى، وإن شاء مشاطرتي حياتي المُتبقية لمنحته كل ما تبقى. أريد أن أصدق أيّ خرافة تقودني إلى موت سهل، كالقرشين على عينيّ، لمُلتهم الخطايا الذي سيأكل خطاياي ويعيدني إلى بياض طهارتي، أو إلى صاحب القارب الذي سيؤمن لي عبوراً آمناً إلى الضفة الأخرى من الموت. أشتهي الموت لولا كلّ هذا الخوف من شكل العالم هناك، أخاف أن أدق الباب فلا يفتح أحد،

وأخاف أن أمضي إلى ما بعد إغلاق الباب وليس ثمّة إلا العتمة والوحشة وداخلون كُثر لا أعرف وجوههم وزمن بلا انتهاء. أريده أن يكون طيباً معي قليلاً، يأخذني من دون أن يؤذيني، يأخذني بلطف وخفة، يأخذني من دون أن يحشرني في المنطقة الأضيق من جسدي، يأخذني باتساخي وبقع سوادي وطين روحي، يأخذني، ويرفعني على جناحيه فوق جسدي، فوق العالم، فوق حيثُ الله. أريد مغادرة جسدي، وليس بغير الموت سأغادره.

نجمة تحمل الرقم سبعة وعشرين أضيفها إلى رصيد لياليّ في الغرف البيضاء، ولا أعتاد. رائحة النظافة هنا مُقززة. وتَشابه الوجوه في بلادتها مدعاة للسخرية. شأن غالبية لياليّ البيضاء منذ وعيتُ، قضيتُ جلّها في الغناء، كما تفعل البجعات قبل أن ترحل، الغناء الذي رأيته في عينيّ حسن أثناء مرضه الأخير، وعرفتُ أنه سيكون بخير، سيشفى كما وعدني، ولن يعود مرهقاً بجسده، وخذلان دمه، وتحقق وعده، شُفي بالطريقة الوحيدة التي تمكن منها: الموت! وهذه الليلة قضيتها أدندن أغنية قديمة، بصعوبة أتذكر منها جملة كاملة، لولا أنه يلسعني صوتها الذي يسكن ذاكرتي ويدور، يدور، يدور... شيء عن بنت كبيرة في عالم كبير ولم يعد يخيفها الغياب ولكنها ستصاب، ولا شكّ، بالحنين.

البياض هنا لا يُحتمل! لا بُد أن غرفتي الليلة تشعر بالوحشة مثلي، هاتفي يبكي ولا يضمه أحد، وأشيائي الصغيرة تصرخ محاولة لفت انتباه أحد، وما من أحد يمنحها التفاتة عابرة. وأنا وحيدة إلا من الأغنيات، في عزلة البكاء الطفيف. أضواء النافذة تدقّ في عيني، وعبث الممرضة

حولي أو فيّ، كلّ ساعة، يحول دون دخولي في النوم، وأنا أصلاً لا أنام في الغرف الغريبة.

في الخامسة من المساء التالي غادرتُ البياض النحِس. كلّ ساعة قضيتها تعني شخصاً آخر تصله الأخبار بتفاصيلها، ليستدعي من الملامح ما يناسب هذا الوضع، ويرتدي ملابس عطنة، ويأتي محملاً بالدعاء الذي لا ينوي الاتجاه إلى الأعلى أبداً، فيطأ على روحي ويبتر بعضها في خطواته، وكلّ ما عندي بابٌ أصفقه مراراً وأنا أقول: «لا أريد أن أرى أحداً!»، ونافذة افتراضية مُطفأة بالأحمر تحمل الاسم "overdose".

(٢٢)

حالة رصد!*.

«... سبب وحيد**، يبرر لي اندفاعي إلى رصد عامي الوشيك على أن يكون فائتاً، سبب وحيد لكنه يبدو لي مهماً جداً: أحدسُ، بلا دليل يؤكد حدسي، أن أعوامي المقبلة سوف تكون نسخاً متطابقة بعضها عن بعض مع تزوير تفاصيل صغيرة على الهامش، لا تستدعي الكثير من لفت الأنظار. إذاً، فسبب رصدي هذا العام هو أن أكون على يقين دائم من أني عشته. صحيح أني لن أنسى انعطافاته الكبرى، لكني لا أجزم بوجود غرف في ذاكرتي احتوته بضيافة جيدة. أريد أن أقنع نفسي بأني عشتُه بأفضل طريقة من دون أن أشعر بالأسى لتفويتي بضعة احتمالات مختلفة لأعيشه وفقها.

ساعات قليلة تفصلني عن انطفاء آخر يوم من عامي الثاني والعشرين. ولستُ أنوي تحويل هذا الرصد إلى تأبين طويل. أعرف كم

* من المفترض أن تقرأها في المنتدى بعد بضع ساعات. ضع الأيقونات كيفما اتفق، واقرأ على ضوئها. أعرف أنك تعرف أني لا أحبّ أيقونات الـ hotmail's.

** الحقيقة أنيُ وعيت على ذلك إذ سألتني: ماذا حدث في عامك هذا؟ وما الذي غيّر فيكِ؟

نميل إلى تذكّر الأشياء بصورة مثالية لمجرد أن انتهاءها يستدعي منا المزيد من اللطف حيالها، مندرجين تحت طائلة «اذكروا محاسن موتاكم»، أو العكس، إذ ننظر بإمعان إلى الجانب المخدوش من اللوحة، وسأحاول ألا أقع في الفخ.

أول انطباع يمكنني استخلاصه من هذا العام، أن الأشياء لم تكن حميميّة معي، ردّا على تجاهلي إياها. لن أبدأ بالشكوى، فأنا أقدّر حقّاً موقفها المعقد مني. أصبتُ بأشياء كثيرة، قصائد وأغنيات ونبتات موسيقى وسمكتيّ: يازا ونالا، باللونين الذهبي والبرتقالي؛ إلا أنها كانت تضمحل سريعاً، ولا تبقي أثراً، وتغادرني قبل أن أقبض على ظلالها. سريعاً، كانت الأغاني تخرج منهكة من تدويرها، والقصائد تكفّ عن الدهشة، وسمكتاي طفتا في اليوم نفسه على وجه الماء، من دون أن أُخِل بدوري في تبديل مائهما وإطعامهما مرّة يومياً.

سمّة هذا العام الغالبة، أني كنتُ مشغولة، القليل من الوقت، والعديد من المشاريع المؤجلة، أنجزتُ مهماتي في فرصها الأخيرة: بحث تخرّجي، الاستعداد لامتحاناتي النهائية، تسلّم وثيقتي، تقدّمي إلى الوظيفة، ثم تركي لها. كانت وتيرتي متسارعة هذا العام وبإيقاع عالٍ، حتى أني حين توقفت أخيراً لم أستطع معرفة كيف يتداول الناس أيامهم حين يتوقفون!

الكيلوغرامان الوحيدان اللذان أضفتهما إلى رصيدي، وكان الفضل فيهما إلى أكياس m&m's وساعات النت الطويلة، عدتُ وخسرتهما في النصف الثاني من العام لأسباب متعلقة باضطرابات نومي، ووحدّة

مزاجي، بالإضافة إلى عدم وجود شركاء يقاسمونني طاولة الطعام في الثانية صباحاً مع قرص من بيضتين بالجبن ورغيف. جلّ خساراتي خضعت للأسباب نفسها: المزاج الرديء ومواعيد نومي المتضاربة، متضمنة المكالمات الفائتة في شاشة جوالي والأصدقاء الغاضبين.

هذا العام كانت علاقتي طيبة مع النوم، ومع اليقظة أيضاً، مصحوبة بحدّة مزاج أقل، وارتفاع احتمالات الثلاث كلمات ونصف ابتسامة قبل غسل أسناني وأخيراً، تخلصتُ من تكتكة المنبه إذ ليس عندي مواعيد ذات أهمية قصوى تحتم استيقاظي في أوقات معينة. الجديد أن أحلامي كانت تنشب بكلابتين من الحديد في جفنيّ كلّما نمتُ، وتبقى إلى ما بعد يقظتي. وبالنسبة إلى شخص لا يتذكر أحلامه، ليس مريحاً أن يكسب عادة جديدة ويتذكر.

ما أزال على ثباتي القديم في كلّ «لا» قلتها؛ وبتردد متدرج حيال كلّ «نعم». أوشك أن أمررها. أحياناً. اعتقدتُ أني أعيش وفق خطة لا أفهمها، ولذا أنتهي بالمزيد من العشوائية، والعبث، المزيد من العزلة، والخوف، المزيد من تكريس نفسي لرغبات لم يسمح قصر نَفَسي بتحويلها إلى واقع. كنتُ أكثر طواعية هذا العام، بحيث سمحتُ لنفسي بالخروج عن الأدوار المُفترضة، وتحولتُ إلى حائط للخربشة. كان هناك الكثير من الكتابات غير المفهومة. وأخرى جيدة، وبعض النحت. وكذلك كان هناك خربشات بذيئة وكلمات محرمة.

لا أريد الاعتذار عما كُنته ولا عما لم أكنه. كبرتُ كثيراً هذا العام. كبرتُ أكثر من ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً. تماهيت مع انكساراتي،

وتساويتُ مع خيباتي، وتصالحتُ تماماً مع قابليتي للهزيمة وقدرتي على الخذلان، وخرجتُ منه ليس كما دخلتُ إليه. لم أعد معنية بتعداد سقطاتي، ولا التربص بخساراتي، ولا جزّ أعناق الفزاعات في حقول خوفي. لم تعد عندي أيّ رغبة في مكتسبات آنية، أو محافل ضوء، أو أصدقاء جدد. ولا كان بحوزتي روزنامة أتطلع لأيامها، ولا معجزات تعزز يقيني، ولا انتصارات متوقعة أسعى إليها في الحصيلة. كبرتُ كما يكبرون! وإن كان من باب الاعتراف المتأخّر، كان هذا عام وهني، عام حصاد يبابي، عام الخراب، والروح المعطوبة، والغرغرينا في أطراف القلب.

كان عام الخطأ الواحد، والستائر المفتوحة، والشجارات القليلة مع ماما. عام اللون الكحلي، وقواطع الكتب، وأزيز الطابعة. عام شامبو herbal essences، ودعاية معجون close up، وشوكولا الـgalaxy. عام النت بكلّ استحقاق، ونوافذ الـMSN، و«اليوزرات» الوهميّة. عام البطاطا المقلية، ومعلبات الفاصوليا، وفُتات السندويشات بين أزرار الـkeyboard. عام الرغبات الشريرة، وعدم التعويل على شيء، والفرضيات الخاطئة. حالياً، الفرضية التي أضعها على المحك: إذا استطعتُ أن أحجز لي مقعداً مميزاً في عام شائك مثل الـ١٤٠٠، فلن يعجزني حجز مقاعد أكثر تميزاً مع بطانة مريحة ومسند قدم في كلّ عام لاحق.

أحببتُ هذا العام «غرنوي»، أحببته جداً، حتى أني لم أجد في جرائمه أيّ فظاعة؛ الجريمة الوحيدة التي أصابتني بالغيظ هي موته بحدّ

أدنى من الوحشية التي توقعتها، أعني الوحشيّة كما يستحقها موت الأرباب، وليس وحشية التكالب والسواطير، برغم أني أتفهم رغبة «باتريك زوسكيند» في منح غرنوي مجداً أقل، وميتة لا تجعله أسطورة.

أحببتُ «كونديرا». لم أكن لأغفر له البتة لو اختار ألا يحدّ من وحشة هذا العالم عبر «خفته التي لا تُحتمل». أحببتُ على وجه الخصوص قدرته الفائقة على أن يُعرِّفني على العالم، ويدفع بي إلى وضع أسئلتي جميعها على الطاولة. أحببتُ «نيتشه» من أجل عبور أعزل، كان يقول فيه «تحملُ ألم مزدوج أيسر من تحمّل ألم وحيد».

أحببتُ بكاء ولد صغير، بكاءً صامتاً وطويلاً لفرط ما روّعه الشق الواسع بين تصوره عن العالم وحقيقة هذا العالم في "Almost Famous"، وأحببتُ إحدى أغاني فيلم "Blue Jeans, Baby". أحببتُ براعة Michael Nyman وروحه الترابية في موسيقى فيلم "Gattaca". أحببتُ طوم كروز في "Vanilla Sky" مع أن كلّ من تحدثت معهم بشأنه، شتموا الفيلم، وشتموا "Tom"؛ أحببته في "Magnolia"، أحببت خيوط الفيلم المتقاطعة، وعبقريته في إقناعي أنه لا يخرج من الشاشة، بل من البيوت والشوارع والحانات، من كواليس الأماكن ودهاليزها، ومن عيون قاطنيه وقلوبهم المتعبة، أحببتُ الرجل الذي كان يقول: «عندي حب كثير، وليس عندي من أعطيه هذا الحب. أحببته وكرهتُ مطر الضفادع. أحببتُ Westlife من أجل أغنية Soledad، من أجل غيابها والشوارع الخاوية دونها، والشعور بأن الذين نفقدهم هم خسارة عصية على التعويض، أحببتهم أيضاً وهُم يغنون: «أينما كانت السماوات

زرقاء، أينما كان العشب أخضر، سألتقيك ثانية».

كان لي صديق***، أي صديق، بلا شروط، صديق للأوقات الصعبة ووحشة آخر الليل، والاتصالات العجلى. صديق للعب الـXO، ومحو القصائد، والإفلاس قبل منتصف الشهر. صديق لردع الأسئلة المغلقة، وتطويع الوقت، وتقاذف الشتائم. صديق للأرق، والشكوى، ومبادلة الصفحة الأخيرة في الجريدة بملحق الرياضة. صديق لا يكفّ عن أن يكون جميلاً، مهما كنتُ معه مؤذية، وسوقية، وسيئة الطباع!، صديق يشيرُ إلى الجهات البعيدة ويقول: يوماً ما سنكون هناك يا صديقة! صديق على الغالب يهزّ الآن رأسه، ويفكر في أني مدفوعة بالامتنان ومبالغة الكُتّاب لأصنع منه بطلاً، وهو كذلك، والله.

ما الذي أتمناه لهذا العام؟

لأجيب عن هذا السؤال عليّ أن أعرج على الأغنية التي أدمنتها خلال هذا العام، لعل الغالبية لا تستمع لأغاني الـ Country music. مع ذلك لا ضير أن أمرر معلومة عن أغنية I Hope You Can Dance لامرأة جميلة إسمها Lee Ann Womack، ولولا خذلان الروابط لأتيتُ بها. الأغنية تتحدث عن عدم حسّ التساؤل، وعدم الاكتفاء وعدم التوقف عن الانبهار والدهشة، مع الأمل بوجود أبواب مفتوحة في مقابل كلّ باب مغلق، وبألاّ نطفىء وهج الحبّ في أرواحنا، وألاّ نحرم الإيمان فرصته في أن يقاتل من أجلنا، وليثبت لنا مجدداً جدارته بأن نتمسك به، هنا أتذكر عنوان الأغنية: كلّما كنتَ أمام خيارين: الوقوف أم الرقص، أتمنّى أن

*** ليس ثمة حاجة الى أن أقول لكَ «من؟»، أليس كذلك؟

ترقص.

ما الذي أتمناه لهذا العام؟

أستطيع بعشرة أمنيات سهلة: أتعلم الفرنسية، أسافر إلى إيطاليا، وأذوق الأندومي كي لا أموت من الجوع. غير أن أمنياتي الحقيقيّة ثلاث: أتمنى ألا يظل خوفي صخرة سيزيف أحمله وهناً على وهنٍ ويهوي بي، أتمنى ألا يضمحل شغفي بالحياة، والتجربة بكل أثمانها الباهظة، أتمنى ألا أندرج في قائمة البؤساء والمحبطين الزائدين عن سعة الأرض؛ أتمنى ألا أقترف خطيئة الموت. ما سوى ذلك يمكنني أن أتعامل معه بحنكة أو بحماقة، حسب مقتضى الحال، باستثناء الأقدار الكبرى التي لا أفهمها، وليس لي يد تعيد إطلاقها في مسارات أخرى، أو تجرب تعطيلها برغم الطرق السالكة!

رغبتي العارمة الآن، أن أرقص، وأواصل الرقص.

(٢٣)

أتشبث كثيراً بفكرة أن غداً سيكون أفضل من اليوم، بغض النظر عما كان عليه هذا اليوم. ومع أني أصاب بخيبات كثيرة، حين لا تكون ملامح غدي مختلفة، ما زلت متشبثة باليقين الوحيد الذي أملكه. وبرغم أني الوحيدة التي يمكنها التحكم بتحديد تفاصيل يومي، لا أعرف كيف تُصنع الأيام؟ كيف تُعجن؟ وكيف تُخبز؟ وكيف أعدّ ملعقة الخميرة؟

جميع أيامي تمرّ بهذه المحطة: خروجي اليوميّ قبيل صلاة المغرب، كلّما كان الفراغ والضجر يجتاحاني كانت الشوارع مهربي الوحيد. في كلّ يوم كان للشوارع روائح مختلفة، وأطفال مختلفون بألعاب مختلفة، ونساء بأصوات مختلفة، وعصافير كلّما انطفأ النهار أشعلت الأفق بالغناء. ومع أني لست في حاجة لاستعادة الحنين القديم كنتُ أجدني أسير في الشوارع نفسها التي أخذتني إليها ضي في الشتاء ما قبل الماضي، وأتجه إلى المشى نفسه، مارّة بمحاذاة نافذة غرفتها، من دون أن أنظر إليها.

بكّرتُ اليوم في خروجي، وبلا تخطيط مسبق تسمرتُ أمام باب منزلها، وضغطت سبابتي الجرس، وجاء أحد «الشياطين الصغار» كما تسمّي أختها ليقودني إلى غرفتها. هناك، انتظرت خمس دقائق كانت

ثقيلة ومُربكة وأنا أسمع صوتها في الحمام وأتتبع خطواتها: تنظف أسنانها، تغسل وجهها، تبلل أصابعها وتدخلها بين خصلات شعرها، تجفف يديها، ترفع ذراعها وتشتمّ نفسها، تتفقد بيجامتها، تُدير المفتاح في القفل وتخرج، وبَعد خطوتين تقف بريبة أمام باب الغرفة، وتتطلع إلى زائرتها التي جاءت من غير موعد.

فكرتُ في عشرات الأخبار والأفكار لأقولها: «ربما لم يكن عليّ المجيء وإزعاجكِ!»، «هل يضايقك مجيئي؟»، «كان يجدر بي الاتصال»، «أنا هنا لأني.. أحتاجكِ، أعني أفتقدكِ!»، «لا ترفضيني!»، «أتمنى ألا يكون توقيتي سيئاً أو لعلك مرتبطة بالتزامات أخرى».. لكن، وحالما وقفتْ أمامي أُصِبتُ بالخرس، ضاعت مني اللغة، وقدرتي على اتخاذ موقف ما، لم أتأهب لشيء من هذا، لم أُحضِّر له، جاء بمحض الحاجة، وأنا لا أستطيع دائماً التحكم بحاجاتي.

توقعاتي السيئة جداً: ربما تحجم عن استقبالي بلباقة، ربما تعاملني بتحفظ، ربما تكلّمني بجفاء، ربما تلومني، ربما ترمي كلّ حنقها عليّ؛ توقعاتي السيئة لم تحدث، ابتسمتْ كما لو أن إحدى معجزاتها قد تحققت، أخذتني من يدي وجلسنا على سريرها. كانت تحدق إليّ كما لو أني سأفلتُ منها، سأختفي وأتبدد، بل كما لو أني لستُ حقيقة وأنها واهمة، وكنتُ أتابع تصرفاتها كما لو أنها غير موجودة، جزء مني بدأ ينسحب، ويتقوقع في داخلي، وكنتُ أجهد لأبقيه.

لم تقل شيئاً ولم أقل. ظلّت تحدق إليّ وتبتسم، وحين تعبتُ من شعوري بمدى اتساع المسافة بيننا، همستُ في أذنها: «إفعلي شيئاً؟»،

قالتْ: «إنه دورك لتقولي كلمة السر»، كلمة السرّ؟ كلمة السر؟، إذا كانت تختبر ذاكرتي فقد تجاوزتُ أول اختباراتها، همستُ: «احضنيني»، قالتْ: «لا أسمعك»، هي إذاً تختبر عمق حاجتي إليها، لا تعنتي معي يا ضي: «احضنيني».

كنتُ على وشك القول: «احضنيني جيداً» أو «احضنيني بملء قوتك»؛ لكني تركتُ لها أن تتحسس أضلاعي، وعظام كتفي، وعنقي، وفكي، وجبيني، وفي عينيها سؤال كبير: «هل أنتِ حقّاً موجودة هنا معي؟»، فكرتُ، في اللحظة التي ستكون مستعدة لاحتضاني ستفعل، وفعلتْ، كما كانت تحضنني دائماً، بالطريقة الصعبة نفسها، كأنها تقول: أريدكِ أن تذوبي بين ذراعيّ!

قلتُ:

ـ لم تتغيري.

ـ أما أنتِ فبلى.

ـ تغيرتُ!

ـ كبرتِ.

ـ ما الذي حدث في غيابي؟

ـ لا شيء تقريباً!

ـ ألا تريدين أن تحضنيني؟

ـ أريدُ.

أدخلت يدها تحت قميصي.

ـ لماذا تعذبّينني.

ـ أقترب منكِ.

ـ لم آتِ لأمارس الجنس معكِ.

لوّحت بيديها أمامي، كما لو أنها تقول: ليس بيدي سلاح كما ترين.

أعرف. أريد فقط أن أراكِ، وألمسكِ.

يشبه الأبد هذا الوقت الطويل الذي مضى منذ تعريتُ معها. تحت كلّ هذا الضوء الساطع، فقدتُ عادتي المألوفة مرّة أخرى، هذا إنْ كنت فعلاً قد اعتدت التعرّي من قبل. قامت وخلعت ملابسها، بهدوئها الذي أعرفه، ضي التي لا تجد مشكلة مع عري جسدها، لا يمكن أن تتردد مرتين وأنا أقول لها: «أنتِ أولاً!».

حين همّتْ بالعودة إليّ، انصرفتُ عنها، وأنا أحكّ إبهامي في الطلاء البارز لجدارها:

ـ أطفئي الضوء واجلبي لي سيجارة.

أطفأته وعادت سريعاً. كانت تريد أن تُشعل لي السيجارة، ضوء القداحة وهو يتطاير على وجهها يُضفي على تعابيرها حدّة لا أراها في غير لحظات غضبها، أخذتها من يدها وحركتها حتّى حصلتُ على أفضل ظلّ تمكنتُ منه، فبدت رموشها أطول، وعيناها لؤلؤيتين.

ـ هل تحاولين إخافتي؟

ـ ولكنكِ لا تخافين.

ـ ألم أخبركِ أنكِ تغيرت؟

إبتسمتُ، يغمرني إحساس بأني أستخفُ بها. وعن غير قصد، قالتْ: قبّليني قبل أن تُفسِد طعم فمكِ السجائر.

قبلتني، وبسرعة انطفأت قبلتنا. كان انتباهي كله مركزاً على حاجتي إلى سيجارة، الغليان في رأسي، والنضوب في أوردتي. ابتعدتْ وقد مسّتها الخيبة، أبدت امتعاضها بسخرية طفيفة:

ـ سلق بيض!

تركتُها، ومضيت نحو الحمام حيث بصقتُ قبلتها في حوض المغسلة، وتساءلتُ بحنق عمّا أتى بي إلى هنا؟ ولأيّ دافع؟ عدتُ لغرفتها وفي ذهني دقات ضجيج، تشبه أولى لحظات تكوّن قرار ما. فتحتُ الضوء ثانية، وستائر نافذتها الغربيّة، لم تتغير مطلقاً، وأنا كأني كنتُ هنا بالأمس، والأمس الذي قبله. جلستُ أرضاً لصق سريرها تقريباً، ومددتُ لها يدي: «تعالي». وبطاعة من لا يفهم دوره في السيناريو المفترض، جاءت، تبحث في وجهي عن إجابة محتملة، ربتُّ بيدي رجليّ الممدودتين: «إجلسي»، فجلست. مججت نفساً طويلاً من سيجارتي، تبعته برشفة من قنينة بيبسي، عمدتُ إلى ذلك حتّى أجد مهرباً من قُبلاتها، ثمّ دفنت السيجارة في جوف القنينة، ودفعت بالقنينة إلى مكان قصيّ تحت سرير ضي.

أكره رؤية أعقاب سجائري، تذكرني بأني امتصصتُ روحها امتصاصاً تاماً، أحرقتُ جذوتها، ولما انتهيت خلفتها أعقاباً متلاصقة مصفرّة كمن يحضن نفسه وهو ذابل، إذ ليس من أحد يشاركه في المسافة الفارغة بين ذراعيه.

طالعتُ جسدها بفضول صرف، إنها حقّاً لم تتغير! ثم نظرت إليها وهززتُ كتفي. كانت الآن تفتح أزراري مبتدئة من الأسفل إلى الأعلى.

أرخيتُ رأسي على كتفها، لم أكن أتحمل وطء نظراتها الحارقة على جسدي، ولا تعثّر هواء التكييف بوجودي، ولا شروعها في أن تكون إصبعاً صغيرة تتحسسني مليمتراً بعد آخر.

ـ نامي.

ـ استلقيتُ.

لطالما كرهتُ وصولها إلى الجزء الأسفل من جسدي، حيث تستلزم تعريته مسافات أبعد، وتهيئة، وحيثُ يبدو تعاوني موافقة معدّة سلفاً، تنتظر فقط طلبها، أو الإيماء إليها. ولطالما كرهتُ اكتشافي بعد هذا الجزء بالتحديد أني صرتُ عارية، وكأن عريي الكامل ليس أمراً حتمياً في سياق ما يحدث.

لا أعرف كيف يتعامل البشر مع أجسادهم؟ لا أعرف كيف يرونها في المرآة؟ لا أعرف كيف يحافظون على حدودهم الخاصّة في حافلات النقل؟ لا أعرف كيف يتحاشون الملامسات المحرجة؟ لا أعرف بم يحسّون تجاه عريهم؟ ولا كيف يتخطون الشعور الثقيل بالعري؟ أعرف فقط أن عري جسدي لا يمكن أن يكون شهياً وجميلاً بقدر ما هو فجّ، وبقدر ما أعي أن جسدي لم يخلق لهذا الدور المكشوف. مررت باللحظة نفسها مرات ومرات وما زلت أشعر أن جسدي لي أنا، لي أنا، ولا أستطيع المجاهرة به، بجعله مشاعاً، ولو لعيني كائن واحد. ما زلتُ أشعر أن ثمّة نشوة لا تضاهى في أن أبقي جسدي سراً مقدساً، وربما استحمامي بملابسي الداخلية حتّى خمس سنوات سالفة، أفقدني القدرة على أن يشاركني أحد في هذا السرّ، وعلى أن أتمتع أنا أيضاً في هذه المشاركة.

ـ إفتحي أبواب دولابك؟

في كلّ حائط وزاوية من غرفتها كانت لي حكايات، إلا تلك المرايا، احتفظتُ لها بحكاية واحدة، حكاية البدء! وقامت ففتحتها، وهكذا، وجدتُ جسدي منتشراً في غرفتها، على امتداد ذلك الدولاب وأربعة من أبوابه الستة وثلاثة أرباع الحائط الذي يتكىء عليه، رميت نظرة إلى المرايا، كنتُ متعددة فيها، وفكرتُ، لو أرفع حجراً وأرمي به المرآة فتفتت جسدي، هل يُثقلنا الفُتات؟ وهزئت من نفسي، فُتات زجاج؟ أيّ أذى أريدُ اكتسابه بعد؟ ثُمّ خطر لي، ربما تخرج روحي القديمة المنحبسة في المرآة مذ لمستني ضي!

«بكيتُ؟» سألتُها. كانت ذاكرة مرّتنا الأولى مشمَّعة بالأحمر في ذهني. ذاكرة سريّة لا داعي لطرق أبوابها أو التلصص إليها من ثقب المفتاح ومن تحت أسفل الباب. وحين انفتحت المرايا عُميت للحظة بسبب الضوء ثم رأيت فجأة، ونزلت على رأسي الصور حتّى أغرقتني، أتذكر. كانت تلعق وجهي وعيني، وكنتُ أبكي، وأقول لها: «أنا أموت! أنا أموت!»، وكانت تقول: «سيكون كلّ شيء بخير. لا تخافي!». أفكر الآن، لعلّ ذاكرتي مشوّشة، لعلّ الأمر اختلط عليّ، لا بُد أني لم أبكِ، لا بُد أن ذاكرتي تضللني. وطالعتني مُستفسرة، فأشرتُ بعينيّ إلى المرآة: «يومذاك بكيتُ؟»، أجابتني: «نعم، بكيت». كنتُ أعوّل على أن تُكذّب ذاكرتي، أنا لا أبكي عند أحدٍ، فكرتُ، لا أبكي مطلقاً، وإذا ما فعلتُ فحتماً لن يكون خياري ضي! لكني، إذا كنتُ لم أتذكر أني بكيتُ من قبل، فلعلّ ذلك لم يكن خياراً!، «حقّاً؟»، «حقاً»، «وماذا حدث؟»،

ـ تزوجيني.

ـ تمزحين.

ـ اطلاقاً، تزوجيني. لن أؤذيك، لن أخونك. سأفعل كلّ شيء كما تريدينه. فقط، تزوجيني! لم أعرف كيف أفلتُ من هستيرية طلبها هذا.

ـ قولي شيئاً معقولاً!

ـ مثل... مثل أن أنزع شعر ساقك الزائد.

ـ شعر ساقي غير نابتٍ بعد.

ـ تزوجيني.

ـ في الجنة.

حين استيقظتُ صباح اليوم لم يكن لدي أيّ عزم على جعله مختلفاً عن نسق أيامي المتشابهة حدّ التطابق. استيقظتُ باكراً بمزاج مُتكدر، كلّ دواعيه لذلك طريقته في أن لا يأتي كما أتوقعه، ولم أكن لأكترث، تركته يعالج نفسه بنفسه حتّى طاب.

والآن، وأنا أضع قبلتي على خد ضي، وأسحب ذراعيها التي تحيط بي، وأدس إصبعي في غمازتها لتبتسم، وأخبرها أني ما زلتُ مدينة لها بالملابس التي خرجتُ بها في المرّة السالفة، قبل خمسة عشر شهراً، بمزاجي الطيب هذا، ليس بوسعي أن أشرح لها أن هذا المجيء ما هو عودة، وكيف كنتُ أستخدمها لأشفى منها، لأتعافى من كلّ الأذى الذي خلّفته في ذاكرتي ووجودي، أجربها لمرّة أخيرة ليتأكد لي أني لا أريد العودة إليها.

كنتُ أحدق إليها بغرابة، وهي باهتمام كامل منزاحة لمعصمي، وأتساءل ترى هل عرفتُ هذه البنت يوماً! من أين تجيء بكلّ هذه الرهافة وكلّ تلك القسوة في الوقت نفسه، وكانت تُدير حول معصميّ إسوارتين باللون الأسود، أشبه بأربطة من القماش.

ـ لا ترتديهما أمام الغرباء.

ـ لماذا؟

ـ كي لا يفكر أحد في أنك شققت رسغك.

وعند الباب، كانت قبضتي تتراخى وقبضتها تشدّ، وأصابعي تنزلق خارج كفها، في الوقت الذي تبقى أصابعها عالقة بكفي. قالت أشياء كثيرة لا أتذكرها، أشياء تشبه الوداع والأسف. أتذكّر كيف بدت حلوة جداً. برغم حزنها حلوة، وزهرة «رازقي» تُسرف في بياضها، تتدلى إلى جانب وجهها، وهي تمسكها بأطراف أصابعها وتتلمسها، قبل أن تقطفها، وتقدمها إليّ هديةً أخيرة.

(٢٤)

ـ عُمَر، قبّلْني الآن!

ـ لماذا الآن؟

ـ لن أطلب منك ذلك مرّة أخرى.

ـ متأكدة؟

ـ بشأن القبلة أم الطلب؟

ـ كليهما.

ـ متأكدة.

ـ وماذا لو أفسدت القبلة صحبتنا؟

ـ من المفترض أن تُفسدها بطريقة ما، ثم نحن كبيران كفاية لنعيد إصلاح ما فسد.

ـ وماذا لو أنك في حالة نزوة وندمتِ لاحقاً؟

ـ لن أندم على شيء أنت طرف فيه وأنا طرفه الثاني! كما أني لستُ في حالة نزوة.

ـ وماذا لو كنتُ طائشاً وأردتُ أكثر من قبلة؟

ـ لا شيء يضمن لكَ بأني لن أريد المثل.

ـ ماذا لو لم أعجبكِ؟

ـ ستعجبني.

ـ قد لا أكون A good kisser.

ـ سأُعلِّمكَ كيف تكون. والآن قبّلني.

ـ وإلا؟

ـ لنقلْ إذا لم تقبلني خلال ثوانٍ فسآخذ القبلة بنفسي.

بالأمس التقينا أيضاً. هاتفني ليخبرني بأنه على وشك الصعود إلى الطائرة، ثم ليخبرني بسلامة وصوله، ثم ليعلمني بتمكنه من الحصول على غرفة في الفندق المجاور للذي أسكنه. كان على بُعد شارعٍ مني، متواجهين على مرمى البصر، والهواء الذي يخلف نافذتي وراءه يمضي إلى نافذته، وكنتُ على يقين بأن اليوم لن يمضي قبل أن ألتقيه مثلما كنتُ اشكّ قبل أسبوعين في احتمال لقائنا. في تلك الليلة وبعد أن قلتُ له: «تعال»، أغلقتُ الهاتف لبياغتني الذنب إزاء تحميله مثل هذه المشقة، وهاتفته ثانية: «أنا أسحبُ عرضي، لا أريدكَ، لا تأت!»، غير أنه بعد أيام قليلة، كان من الطيش بحيث ألغى مواده الصيفيّة وسافر إلى لبنان ليحضر إحدى الحفلات الموسيقيّة في إطار «مهرجانات بيت الدين»، «لن أُعطب أسنان العالم إذا ما تزاحم جدولي لفصل واحد وذاكرت مواده برداءة وانعدام ضمير»، برر الأمر، «ثمّ، لا شيء يعادل West Side Story وكمانات Bond ولا المئتي دولار التي سأدفعهما!».

والتقينا. تذرّعت لأمي بحاجتي إلى شراء فرشاة أسنان، وقالت: «لا تتأخري». هناك، في المجمع التجاري الصاخب على الدوام التقينا. كلّ ما كنتُ أراه منه هو ظهره، وكلّ ما أسمعه في غمرة الفوضى والزحام

صوت خطواتي المرتبكة على البلاط، والتي لا تتفق مع إيقاع نبضي، وحسبتُ أن قلبي سيتوقف لفرط النبض، وواجهة «قزاز» مُكتظة بالألوان والمعروضات وقناني العطر والزجاج. الزجاج الكثير، ولستُ أدري كيف مشيتُ تلك العشرين خطوة إلى «بيت الدونات»، من دون أدنى التفات للأخضر الأدكن في واجهة «ذي بودي شوب»، وجدتني خلفه تماماً، أدسُّ أصابعي في كفه، كفه الدافئة، كصديقين قديمين، أو كحبيبين، وكأني فعلتها مليون مرّة من قبل، وبهتَ للحظة، أظنّه بهت، ثم قال: «ما عرفتُ أيّها تُفضلين. اختاري بنفسك»، وأشرتُ بأصابعي في عشوائية، كنتُ أُحسّ بالعالم كلّه يحدق إلينا ويعرف أننا نتواعد، وأخرج محفظته من جيب بنطاله الزيتيّ وسدد الحساب، ودفع الباب الزجاجي المؤدي إلى الشارع لأعبر، فهبّتْ عليّ نسمات شرّعتْ قلبي، وأحببتُه أكثر، هكذا بلا سببٍ أحببتُه أكثر، ولا أدري لماذا تذكرتُ شيئاً قاله لي مراراً: «سأهتم بكِ دائماً، وأحرص على ألا يصيبك أذى»، وخرجنا، وجلسنا عند النافورة، وضحكتُ، أنا لا آكل الدونات، ولا عُمَر يأكلها، ولم ننظف المقعد حيثُ جلسنا، ولا بُد أن بقعة هائلة رماديّة قد التصقت ببنطاله وعباءتي، وعلى مسافة بضعة أمتار منا يقفُ شرطي بجانب إشارة ممنوع التدخين، وإلى جوارنا عائلة إيرانيّة تُصور النافورة والبلاطات وسور الحرم، وللحظة حسبتني في واحد من أكثر خيالات Ally Mcbeal جنوناً وهستيريا.

كان عُمَر شبيهاً بنفسه تماماً، شبيهاً بما رأيته في صوره، ومن خلال الـ webcam في المرات القليلة التي صودف أن كان في مقهى للنت، بتعابير

الوجه وحركات اليدين وحدّة النظرة نفسها، بعظام الأنف الدقيقة البارزة وأرنبته التي لا تحتاج إلى غير سبابة تُعابثها، بالسُمرة نفسها، وعسل العينين الوافر نفسه، بالشعر الذي يُطيِّر الهواء سواده، بأصابعه الطويلة المُتأهبة دوماً لترسم أشكالاً في الهواء، وابتسامته المتحفظة التي تنتظر أن يدير وجهه للجهة الأخرى لتكتمل، وقهقهته التي تُشبه تكسر الماء في النافورة القريبة، وجبينه العريض الذي يبدو قَدَراً حافلاً للذين ينوون حياة كاملة يستغرقون فيها، رائحته مختلطة بعطر ck، رائحته التي لم يخلق الله منها نسخة ثانية لأيّ أحد، ودفء جسده كذلك، لم تُحرِّفه التقنية مطلقاً.

عالمي كلّه كان قد انزاح إلى حيّز الافتراضيّة حيث ملامحي أيقونات مجسمة، صوتي مساحة إضافة ردّ، غرفتي نافذة محادثة، حيث يسقط الوقت وتغيب الأمكنة. أصدقائي، أوطاني الصغيرة، الرجل الذي ظننتني أحببتُ، صناديق بريدي، مقاهينا حيثُ نلتقي، جميعها افتراضية، حتّى أسماؤنا افتراضيّة. ولم يعد اسم بنت عمّي كما كان قبل عشرين عاماً وإنما هبة وسندس وعقيل وقبل النت منذ أسمائنا المستعارة للمجلة. كانا دائماً سندس وعقيل، ودارين التي قدمت نفسها لي أول مرّة باسمها النتيّ ثُمّ اعتذرت مبتسمة لتُبدله باسم شهادة الميلاد، كما علّقتْ، تحبّ القطيف حتّى أنها اتخذت من قِطاف جسدها على الماء اسماً، قالتْ لي: «أردتُ اسماً يجمع ذاكرة وطنيّ: القطيف وناديا». ريان اختار الإسم الذي لم يكن أحد يناديه به غير أمه. وعلى ما يبدو كان حظي في أحسن حالاته مع حرف الراء، وضي تقول: «بمحض المصادفة وقعت عيني على كلمة ضي

في لحظة تسجيلي، ولم يكن في بالي أي اسم آخر». وحده عُمر كان حقيقة لم يقوّضها الواقع الافتراضي ولا المسافات ولا خوفي.

في أفق توقعاتي، لم يخطر ببالي إمكان لقائنا بهذه السرعة، ولا معاودته بهذه السرعة أيضاً. عدتُ ورأسي يدور باحثاً عن مخرج. لن يقضي عُمَر في الجوار أكثر من خمسة أيام، وعليّ افتعال أسباب مُقنعة للقاءين أو ثلاثة، من دون إثارة ريبة أمّي. أمي التي تشكّ حتّى في شكوكها، والتي لا تُضفي على قوانينها منطقاً كافياً، كانت لا تسمح بأن يقلّني سلام إلى الكلية التي كانت خارج القطيف، فكل ما هو خارج القطيف ليس إلا مُدناً غريبة، حتّى هُنا، المدينة، التي زرتها بضعة عشر صيفاً على التوالي، والمرسومة خرائطها على كفي، والتي تصير في كلّ صيف قطيف أخرى، حتّى أني أينما تلفتُّ أرى من أعرفه، تظل عند أمي مدينة غريبة وما من أحد يأمن المُدن الغريبة.

مخرجي الوحيد كان سلمى. فكرتُ أن الله يحبّني وبعث إليّ بسلمى. هاتفتُها، وكذبتُ كذبة مزدوجة، طلبتُ منها أن ندّعي أمام أمي أنها تدعوني إلى الغداء، في حين قلتُ لها إني سألتقي نوف، إحدى صديقات النت، وإن أمي ستتعنت وأمها أيضاً ولن نجد مكاناً وسطاً نلتقي فيه. وفي الكذبة الأخيرة، كنتُ نصف كاذبة، إذ كنت سألتقي بالفعل أنا ونوف، وكنا نفتش عن طريقة سرّية للقاء من دون الخوض في مجادلة أمي وامّها ومعارضتهما الفكرة، أو استيائهما من علاقتنا برمتها. بعد ذلك بقليل، عاودتْ سلمى مهاتفتي، كي لا تبدو فكرة الدعوة مبيتة ومتفقاً عليها سلفاً، كلمتُها قليلاً، ثم سلمتُ جوّالي إلى أمي، أعرف طريقة

سلمى في الحصول على مبتغاها، وأعرف بذلك أن أمي ستُحرج إحراجاً يجعلها توافق من دون تسويف، وحصلتُ على ما خططتُ من أجله، وبرغم أن أمي لم تمنحني إلا ثلاث ساعات، فقد عرفت كيف أساومها على أكثر.

ولم أستطع النوم، بقيتُ جالسة على سريري، وأحدق عبر النافذة إلى الواجهة الزجاجية حيثُ ينام خلف واحدة من نوافذها عُمَر، وبدا الغدُ بعيداً جداً، ويماطلُ في المجيء. فكرتُ، ليست إلا الثانية فجراً، ولعله لم ينم بعد، وفي حال أيقظتُه سيعاود النوم، لا بد أنه مُتعَب كفاية ليعاود النوم، هاتفتُه، وحمداً لله لم يكن نائماً، أخبرتُه عن حاجتي الساذجة إلى معرفة خلف أيّ نافذة ينام، وأخذ يفتح الضوء ويغلقه بضع مرات حتّى اهتديتُ إلى نافذته، ذكّرته ألا يضع عطراً في الغد كي لا تشم أمي رائحته في ثيابي، تمنيتُ له نوماً طيباً وشراشف نظيفة ومخدة لا تؤذي عنقه، وأنهيتُ الاتصال.

وجاءني حسن في الحلم، لم أكن ليلتذاك قد نمتُ أكثر من ساعتين. ولم يزرني من قبل في الحلم. كان وجهه مغطّى بقطعة قماش بيضاء صغيرة كنتُ أزيحها، فتعود لتغطي وجهه وهي تكبر وتتمدد على أطرافه وبقية جسمه، وأزيحها فتعود وتكبر، وهكذا، تحولت من منديل إلى «غترة» ثمّ إلى ملاءة فكفن! كنتُ أسألهُ: «نسيتني يا حسن؟ لمَ لا تأتي؟ تعال معي؟ قُم من الموت؟»، وكان يكتفي بالابتسام، ابتسامة طويلة رائقة، ليس كتلك التي تومىء بها حالة عجز الموتى إذ تقيدهم أكفانهم، وقبل أن ينطفىء الحلم، قال لي: «ليس هذا حقّ الموتى على الأحياء!»،

«وماذا تعني بهذا يا حسن؟»، «ماذا تعني بهذا؟»، «ماذا تعني؟»، «ماذا؟»، وألفيتني أقع في ضباب الصحو، والغرفة.

عند الظهيرة حالما دخلتُ المصعد وحيدةً هاتفتُ عُمَر أن يفتح لي الباب، وحالما دخلتُ من الباب الموسوم بالرقم ١٤٠٧ مدّ لي يُمناه مصافحاً. الرجال يتصافحون، ونحنُ البنات، نُقبّل بعضنا بعضاً، وأحياناً نتحاضن. وأعطيته يُسراي، بدافع انشغال يميني، أخذ مني الكيسين اللذين أحملهما، واتجهتُ إلى النافذة، أشرتُ إلى نافذتي، النافذة المفتوحة في الصفّ التاسع، قلتُ له: «أنا تحتكَ بخمسة طوابق»، وضحك، دائماً يضحك إذا انزلقتْ تعابير تتضمن إيحاءً جنسيّاً في كلامي. وكما تجاورنا بالأمس عند النافورة حيثُ اتسخ بنطاله وعباءتي، جلسنا اليوم متجاورين على أريكة ترابيّة اللون تحت الإضاءة الصفراء التي تخلفها الأبجورات والمصابيح. رفع أحد الكيسين: «علبة بيرة وعلكة فراولة... ما أخركِ؟»، أجبته: «دقيقتان لا تُحتسب تأخيراً إلا عند توقيت غرينتش»، كثيراً ما أقول أيّ كلام اعتباطي حين يحاصرني ولا أجد ما أكمل به جُملتي، وفي الكيس الثاني، علبة مُغلفة من عطر π، سألني لِمَ π تحديداً؟ وأجبتُه: «يمكنني دائماً أن أحبّ رجلاً يستخدم عطر π»، ولعلها جملة اعتباطيّة أخرى.

وفي السرير كان يسألني:

ـ تحبينني؟

ـ منذ متى تستخدم الحب طريقاً إلى سواه؟

ـ لا تتحذلقي، أجيبيني؟

وغنيتُ شيئاً عن انتظار فرص تتأخّر دائماً، وأسباب تمنعك من أن تكون بخير، وحاجتك إلى بوصلة غير معطلة، أن يجيء ملاك، ويأخذك من غرفتك الباردة والمظلمة، أن يفرِّغ شرايينك من الذاكرة، ويجعلك خفيفاً، ينتزعك من وضاعتك وينسيك خوف النهايات، ملاك يطير بكَ عالياً، عالياً إلى حيث تكون في مأمن.

ـ أنا ملاككِ؟

أكثر من ذلك، عُمَر. ثمّة جملة في الفيلم city of angels إن كنتَ تذكره. كان الملاك يقول فيها شيئاً مثل:

..that he rather one breath, one touch, one kiss than eternity

وأنتَ من أتنازل طوعاً عن ملائكيتي الأبديّة، لو كنتُ ملاكاً، من أجل إنسانيته.

ابتسم، لم نكن قد أطفأنا الضوء ورأيتُه كيف يبتسم.

ـ أحبّكَ، عُمَر. كثيراً أحبّك. بربّ السماوات أحبّك.

ومع أني قلتُ له قبلاً أحبّك عُمَر، بعشرات الحالات قلتها، فإنّ هذه الحالة لم تمرّ بي قبلاً. لم يسبق أن قلتها كفتاة على استعداد لأن تعشق، كفتاة تسكن إلى رجل وتدهشها تفاصيلُ رجولته، ذقنهُ، سالفاه، شعر صدره، تقاسيم جسده المختلفة، ورائحته الثقيلة، كفتاة ظلّت تفتش دائماً عن حلول وتكتشف الآن أن كلّ حلولها الممكنة كانت تحت يدها ولم تلحظها قط!

سألني هل كنتُ خائفة؟ وأجبتُ: «لا». ضحك إذ يفضحني بريق عينيَّ، فتراجعتُ وقلتُ: «حسناً، متوترة قليلاً!». وكان السؤال يسيل

على طرف لساني وعُمَر يأخذه بين شفتيه: «هل تقرف مني إذا دهمتني النوبة وأنا بين يديك؟»، وأعرف، سيغلق فمي بيد صارمة، ويقول بنبرة أكثر صرامة: «لا تقولي هذا، لا تفكري في هذا، مفهوم؟»، أو يقضم بخفةٍ طرف إبهامي مثلما يفعل مع جود، صغيرة أخته، كلّما حفظت كلمة نابية ورددتها بلا فهم.

آن القبلة بسط يديه عليّ، ورفع عني ملابسي. ببطء رفعها بعدما فتحتُ أزرار قميصه، انفعالي يزداد كلّما انكشف جزء آخر من جسدي. وكّما رأيتُ انعكاسي في عينيه لسعتني الشهوة، لم يسبق أن رأيتني في عيني أحد! وأصابعه تنحدر عليّ وتعلو، تنحدر وتعلو، عُمَر الذي حسبته سيتحرك على جسدي مُلتفاً مثل عاصفة رملية، كان في الواقع يتحرك بتصاعد في حالة مدّ وجزر.

حاول أن يخلع القلادة التي تحيط بعنقي ورفضتُ، لم يحدث أن خلعتها، منذ خمسة أعوام لم أخلعها، في محرم الفائت مرّت خمسة أعوام، ولا أستطيع أن أخلعها، كأني أخلع يديّ حسن عني، حسن الذي أخبرني وهو يشبكها حول عنقي أن الملائكة ستحرسني ما دمت ألبسها، حسن الذي لم يؤمن يوماً بحماية الأحراز ولا استدعاء الملائكة. رفضتُ وغمغم على غير اقتناع: «لا بأس!».

وحين أزحت يده من تحت ربلة ساقي، «لا تفعل هذا، لا تلمس ساقي هكذا» قلتُ. أخذ نفساً طويلاً واقترب مني:

ـ تثقين بي؟

ـ تعرفُ إجابتي من دون حاجتكَ إلى السؤال.

ـ أحتاج إلى أن تثقي بي الآن أكثر، أكثر بكثير من أيّ وقت مضى.

كنتُ آكل ظفري وكان يسحبه من فمي.

ـ أحتاجُ إلى سيجارة.

ـ لا، لا تحتاجين إلى سيجارة.

ـ أحتاج إلى الحمام، إذاً...

وقمتُ سريعاً، منفلتة من يديه. دخلتُ الحمام وأغلقتُ الباب ورائي. فتحتُ صنبور مياه المغسلة. وقفتُ قبالة المرآة. أشعر بأني أُفسد هذه اللحظات، ولا أفهم لماذا أفعل ذلك، ولماذا الآن أشعر بأني مُثقلة بذاكرتي، ومسكونة بكلّ ما مضى ومن مضى. تؤذيني الهمهمات القديمة، وهمسات العتمة، وبخار الأنفاس على وجهي، وسروالي الداخلي معقود عند قدمي، أو ملقى بإهمال إلى جانب عمود السرير، والسروال المبتل في لزوجته وروائحه التي تخنقني، واليد الملتفة حول ربلة ساقي وأنا أكتم خوفي وبكائي الذي يجب ألاّ يُسمع، أردد: إنني لا أرى، إذاً فلا شيء يحدث! إنني لا أرى، إذاً فلا شيء يحدث! إنني لا أرى، وإذاً فلا شيء يحدث! لا أرى، لا يحدث! لا شيء!

سمعت وقع خطوات عُمَر، لا بد أنه كان يتلصص عند باب الحمام.

ابتعدْ عُمَر.

ـ ما الذي تفعلينه في الداخل؟

ـ I have to pee

ـ ولِمَ الخجل؟

ـ It's all about dirty words!

ـ ألن نقول كلماتٍ بمثل هذه القذارة وتتجاوزها؟

ـ سنقولها in English. والآن، ابتعدْ.

تعبتُ من ملامحي القديمة، أريد شطفها، أريد ذاكرة نظيفة، وجسداً بلا آثار مرور أحد عليه، جسداً خالياً من النشيج، وموغلاً في النسيان. غسلتُ وجهي، غسلتهُ بضع مرات، وخرجتُ.

اتجهتُ إلى حيث يجلس عُمَر على حافة السرير، وقفتُ بين رجليه، لفّ يديه حول خصري، سحبتُ يمينه، ووضعتُ القلادة في كفه، ثم طويتُ أصابعه عليها:

ـ خُذْني، عُمَر.. خُذْني كُلّي!

وأخذني، أخذني ليس كما أخذتني ضي في كلّ عراكاتنا في الفراش، ولا بحالة الخِفة التي مررتها عليّ دارين، ولا في الخوف والخزي لوطء كعب عالٍ لأعوامٍ على جسدي. بين حين وآخر، لفرط الشهوة أو لفرط الحبّ، كنتُ على وشك أن أقول: «إفعلْ شيئاً كي لا تظلّ خارجي! لا تسرق أطفالكَ مني!»، لو لم تفزعه الكلمات الكبيرة التي أنطقُ بها.

وعذريتي التي لم تعنِ لي شيئاً من قبل، ليس منذ جاءت امرأة ما إلى دارنا وكنتُ لم أُبدل بعد مريول مدرستي الأزرق، ولم أدع أمي ترى «الشَبرَة» البيضاء التي علقتها المُدرسة على ياقتي، شعرتُ برائحة غريبة في تصرفات أمي، كانت تستدرجني إلى شيء أعرف أنه مخيف وهائل، غير أني لا أعرف ما هو، الاستدراج تحول مطاردة، وحين أمسكتا بي، تعاونت المرأة الغريبة مع أمي على تعريتي، والمباعدة بين ساقي وتشويهي بقلامة أظفار ثم دسّت بقطعة لحمي في منديل ورمتها إلى سلة المهملات.

في الحمام لم أكن بعدُ قد بلغت ورأيتُ أول علامة من الدم، فهمتُ حينذاك أنه بلا معنى كل ما كانت تقوله أمي عن الحشمة وستر الجسد وخصوصية أعضائه. كانت تنبّهني: «لا تتركي أحداً يضع يده عليكِ!»، حتّى يديّ لم أكن أضعهما على جسدي، وكلّ ذلك كان بلا معنى. لم آبه بعذريتي في ظلّ عبثي المحموم والطائش، إلا في الحدود الضيقة التي تحتم عليّ أن أبقى مختومة بها. والآن، في أول الأمر مع عُمَر كنتُ أريد أن أقول له: «خذها! أنا لا أريدها، خُذها!»؛ ثم وإذ قبّلني، وإذ سألني: «تحبّيني؟»، وأجبتُ: «أكثر مما يسعك التخيّل، عُمر»، أردتُ أن أقول له: «أريدك أن تُسكِن أطفالك بيتهم، تعال إلى هذا الحدّ! تعال!»، وأعرف أن ليس بوسعه المجيء!

فرغنا، وغفا من فوره على بطني. ولم أكن لأصدق أن عُمرَ ينام حالما يقضي شهوته، لا أدري لماذا، لكنني لم أستطع التصديق، برغم أني سمعتُ أشياء من الغرابة بحيثُ تبدو معها فكرة نوم عُمَر مجرد حدث عاديّ، على الأقل، فهو لا يأكل التفاح بعد ممارسة الحب ولا يُدمن الزبادي.

نائم، يتنفس بهدوء، وأنا أحبس أنفاسي كي لا أكدر نومه، ملامحه مطمئنة جداً، بلا انفعالات، وبلا تعب. لو بوسعي التلصص على أحلامه، لو بوسعي التدخل وتعديل ألوانها وروائحها وأمكنتها، لو بوسعي فقط أن أسكن عينيه. وفتحهما، ببطء، وأنا أتشرب وجهه، وعيناه تتشربان الضوء، فتحهما، وابتسم، تذبحني ابتسامته، ويعرفُ أنها تذبحني.

ـ يفوتُكَ الكثير هنا وأنت نائم.

ـ بما أنك لم تخونيني فلم يفتني شيء.

ـ وما يدريك؟

ـ لا يسعكِ خيانتي وأنا نائمٌ على جسدكِ.

ذكّرني بشيء يقول: «نم على جسدي، وادعُ الله ألا يجيء النهار!»، لا أدري من أيّ جهة نتيّة التقطتها، ما أكثر عبوري بالأماكن! ومع يقيني بأن دعائي لن يُستجاب، لن أكفّ عن السعي، مع فرق واحد، لم يكن النهار هو ما لا أريد أن يجيء، بل الليل.

ـ أخبريني، ما الذي فاتني؟

ـ أن ترى نفسك وأنت نائم.

ـ حاجباي هكذا، وفمي هكذا.

وكان يعقف أصابعه فوق عينيه، ويمدّ شفتيه بطريقة مُضحكة.

ـ you are so good to be true!

ـ أعجبتك؟

ـ يمكنني أن أطريك حتّى الغد، لكنكَ لن تُقيّم نفسكَ تبعاً لرأيي.

ـ لا تعاودي الحذلقة.

ـ تعرفُ أنّك أعجبتني.

ـ وما زلت تحبينني؟

ـ أحبّكَ أكثر.

ـ ما الذي لم يعجبك؟ لا تستغفليني وتقولي: لا شيء! لن أصدقكِ.

ـ عليكَ أن تدعني أجربكَ ثانية لأحكم.

ـ أجربكَ ثانية! وفكرتُ، قد لا نكون هنا ثانية يا عُمَر، قد لا نلتقي يا عُمَر، قد لا أرى عينيكَ مرّة أخرى يا عُمَر، وقد لا تبتسم في وجهي يا عُمَر، وقد لا يمكنني أن أتشبثُ بك وأقول: «خلصني!»، وقد...

ـ عُمَر؟

ـ لبيه.

ـ أحبّكَ.

ـ كأني أسمع «ولكن»؟

ومثل ليلة من المفرقعات الناريّة، كانت تومض في ذهني ولا تلبث أن تنطفىء مخلّفة في قلبي الدخان ورعب الفقد، أشياء قرأتها بصحبة عُمَر: «يداي تفتحان ستائر وجودك»، «فإني أحبّك حتى التعب»، «شخص يشبهني حيّاني ومضى.. خلّفني في الأرض وحيداً، أعزل، مكسور القلب»، «بعد قليل سيخرج البدر وسيفقد كل منا فرصته أن يبقى وحيداً، وحاجته إلى أن يندم»، «لو كان الحبّ مسألة كلمات؟ اقترابي من جسدك يخلق لغة»، «ستسقط النوافذ واحدة تلو الأخرى.. ما سيبقى مبنى الريح بطبقاته الألف».. وانتهيتُ إلى تذكر قصيدة كنتُ قد قرأتها على عُمَر، وكان قد توّهم أن خلف خلاء صوتي أثناء قراءتها حكاية: «كلّ الذين أحبّهم يتغيّرون!»، والتصقت بضلوعه.

ـ عُمَر، لا تغادرني! ولا...

ـ لن أفعل، ثقي بي.

ـ ولن تموت! لا أحبّ الذين يموتون! قل إنك لا تموت!

April, 2005